

عَلَّمَ اللُّغَةَ



تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وائلي

لغوي ودكتور في الآداب من جامعة باريس
مدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م

المطبعة الشرقية للطباعة

بجزيرة الروضة، القاهرة

علم اللغة

تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وافي

ليسانس ودكتور في الآداب من جامعة باريس

مدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية ودار العلوم

المجلد الأول

(حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف)

١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

المطبعة السلفية

بجزيرة الروضة بالقاهرة

(بعض كتب أخرى للمؤلف)

- ١ - Contribution à une Théorie Sociologique de L' Esclavage
- ٢ - Distinction entre La Femme et L' Homme dans L' Esclavage
- ٣ - فى التربية : بحث فى عوامل التربية (قررت وزارة المعارف تدريسه بدار العلوم)
- ٤ - الاقتصاد السياسى (يدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية)
- ٥ - البطالة ووسائل علاجها (نال جائزة « المباراة الادبية »)
- ٦ - تاريخ الأدب اليونانى
- ٧ - لمحة فى تاريخ الأزهر
- ٨ - مواد الدراسة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه
ومن تبعهم باحسان .
وبعد فنذ عهد بعيد ، وبخاصة منذ أن كشفت اللغة السنسكريتية ،
لم تفك موضوعات علم اللغة موضع عناية عدد كبير من أعلام الباحثين
في أمم الغرب . وقد بذل في هذا السبيل جهود قيمة مشكورة بلغ
بفضلها هذا العلم درجة راقية من النضج والكمال ؛ فوضحت حدوده
ومناهجه ، وهذبت أساليبه وطرق دراسته ، وتميزت فروعه بعضها
من بعض ، واختص في كل فرع منها عدد كبير من العلماء ، فتوفروا على
دراسته ، وقتلوا مسأله بحثا . ومن ثم أصبحت مراجع هذا العلم من
أكثر مراجع العلوم عدداً ، وأوسعها نطاقاً ، وأدقها بحثاً ، وأجلها قيمة .
وعلى الرغم من ذلك ، لم يكتب فيه باللغة العربية - على ما أعلم -
مؤلف يعتد به ؛ اللهم إلا بعض كتب قديمة تمثل هذه البحوث في
أدوار طفولتها الأولى ، بل في أدوارها السابقة للطفولة ، ولا تكاد
اليوم - وقد أيقع هذا العلم - تنقع من صدى ولا تسمن من جوع .

حيال هذا ، رأيت أن الواجب يحتم عليّ - وقد وقفت قسماً من جهودى على هذا العلم ، وعهد إلى بتدريسه لطلبة دار العلوم - أن أقوم بأول محاولة في هذا السبيل ؛ فكتبت هذه العجالة ، معتمداً فيها على طائفة كبيرة من أوثق المصادر الإفرنجية التي يرى القارى بعضها مشاراً إليه في ثنايا تعليقاتنا وبعضها مدوناً بقائمة المراجع في آخر الكتاب . ولم آل جهداً أن أوفق بين غرضين ليس من اليسير التوفيق بينهما : أحدهما أن لا أغادر ناحية من النواحي البارزة في هذا العلم إلا عرضت لها مناقشا أهم ما قيل فيها ومدلياً بما يصح الركون إليه بصددتها ، وثانيهما مراعاة الإيجاز في علاج الموضوعات حتى لا أتجاوز النطاق الذي رسمته لهذه العجالة والذي ينبغي أن تكون عليه أول محاولة . والله أسأل أن يتيح متابعة ما بدأت به وتنقيحه وتكملته وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً .

على عبد الوامر والى

تمهيد
٢٩٦٥

في التعريف بعلم اللغة

❦

- ١ -

البحوث اللغوية وما يدخل منها تحت علم اللغة

ترجع أهم البحوث اللغوية إلى الموضوعات التالية :

١ - البحوث المتعلقة بنشأة اللغة الإنسانية ، والأشكال الأولى التي ظهر فيها التعبير ، والأدوار التي اجتازها حتى وصل إلى مرحلة الأصوات ذات الدلالات الوضعية ، والأسس التي سار عليها الإنسان والنماذج التي احتذاها في وضع الكلمات وفي تعيين مدلولاتها ، ونشأة مركز اللغة في النوع الإنساني ... وما إلى ذلك من البحوث التي تعالج اللغة في أدوار نشأتها الأولى . - ويطلقون على هذا الفرع من البحوث

اللغوية اسم « أصل اللغة » أو « نشأة اللغة » *Origine du Langage*

وكل ما يذهب إليه الباحثون بهذا الصدد - كما سيظهر لك في الباب الأول من هذا الكتاب - يتألف من آراء فردية ظنية تعتمد في بعض نواحيها على الحدس والتخمين وفي نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمي . وهكذا شأن جميع البحوث التي تعرض لأصول النظم الإنسانية .

ولذلك يرى كثير من العلماء إخراج هذا الموضوع من نطاق علم اللغة وإلحاقه بالبحوث الفلسفية الميتافيزيقية؛ لأن منهج البحث فيه لا يتفق في شيء مع ما ينبغي أن تكون عليه مناهج البحث في العلوم . - وهذا الرأي هو السائد الآن؛ ولذلك لا يكاد المحدثون من علماء اللغة يعرضون لهذا الموضوع ، وإن عرضوا له تناولوه على أنه دخيل على مادتهم ومثال من البحوث اللغوية في أدوارها الأولى .

٢ - البحوث المتعلقة بحياة اللغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر وسعة وضيق وعظمة وضعفة؛ وما تعرض له من انقسامها إلى لهجات ، وتفرع لغات عامية من كل لهجة من لهجاتها ، وتعدد مظاهرها تبعاً لتعدد فنونها ووجوه استخدامها؛ وما تقوم به من صراع مع غيرها ، وما ينجم عن هذا الصراع من انتصار أو هزيمة ، واختلالها مناطق جديدة أو تخليها عما كانت تملكه؛ وما يؤول إليه أمرها من شيخوخة وهرم وفناء ، وما تتمثل فيه ظواهر انحلالها من اختفاء من عالم المحادثة والكتابة ودروس آثارها ، أو اختفاء من المحادثة وحدها ، أو اختفاء من المحادثة والكتابة مع بقائها في المعاجم والمؤلفات . . . وعوامل كل ظاهرة من هذه الظواهر وتواترها والقوانين الخاضعة لها . - ويطلق على هذا البحث اسم

« حياة اللغة » Vie du Langage

ومن أهم فروع هذا البحث وأوسعها نطاقاً فرع يسمى « الريبالينولوجيا » Dialectologie أي علم اللهجات . وموضوعه دراسة الظواهر المتعلقة بانقسام اللغة إلى لهجات وتفرع اللغات العامية عن كل لهجة من لهجاتها . . . وما إلى ذلك .

٣ - دراسة الأصوات التي تتألف منها اللغة وبيان أقسامها وفصائلها

وخواص كل قسم ومخارجه، وما تعتمد عليه من أعضاء النطق، وطريقة إحساس السامع بها، واختلاف النطق بالحروف واختلاف الأصوات التي تتألف منها الكلمة في لغة ما باختلاف عصورها والأمم الناطقة بها، والعوامل التي تنجم عنها هذه الظواهر، والنتائج اللغوية التي تترتب على كل منها والقوانين التي تخضع لها... وما إلى ذلك. ويطلقون على هذا البحث اسم « الفونيتيك » Phonétique أي « علم الصوت ».

٤- دراسة اللغة من حيث دلالتها، أي من حيث إنها أداة للتعبير عما يجول بالخيال... ويطلق على هذا البحث اسم « السيميوتيك » (١) Sémantique أي « علم الدلالة »... ومن « الفونيتيك » و« السيميوتيك » (علم الصوت وعلم الدلالة) يتألف أهم فروع علم اللغة وأدقها وأكثرها نضجا.

وينتظم علم الدلالة بحوثا كثيرة استقل الآن كل منها عما عداه وأصبح موضوع شعبة دراسية قائمة بذاتها. وأهم هذه البحوث ما يلي: (١) البحث في معاني الكلمات، ومصادر هذه المعاني، واختلافها في لغة ما باختلاف عصورها والأمم الناطقة بها، وموت بعض معاني الكلمة ونشأة معان جديدة، والعوامل المختلفة التي ترجع إليها هذه الظواهر، والنتائج اللغوية التي تترتب على كل منها، والقوانين التي تخضع لها في سيرها... وما إلى ذلك... ويطلق على هذا البحث اسم « ليكسولوجيا » Lexicologie أي « علم المفردات ».

(ب) البحث في القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات وتصريفها، وتغيير أبنيتها بتغيير المعنى وما يتصل بذلك... ويطلقون على هذا البحث اسم « المورفولوجيا » Morphologie أي « علم البنية » وهو ثلاثة أنواع:

(١) يرجع الفضل في وضع هذا الاسم الى الاستاذ بريال M.Bréal

« المورفولوجيا التعليمي » أي « علم البنية التعليمي » ؛ وهو الذي يدرس القواعد السابق ذكرها في لغة ما لمجرد جمعها وترتيبها وتنسيقها حتى يسهل تعلمها وتعليمها ومراعاتها في الحديث والكتابة . ومن هذا النوع علم الصرف في اللغة العربية .

« المورفولوجيا التاريخي » أي « علم البنية التاريخي » ؛ وهو الذي يدرس هذه القواعد في لغة ما دراسة تاريخية تحليلية ، فيدرس الأشكال التي كانت عليها في أقدم مراحل هذه اللغة ، وما طرأ عليها من تغير في مختلف العصور والأمم ، وعوامل تطورها وتأثرها ، والقوانين التي تسير عليها في مختلف مظاهرها . . . وما إلى ذلك .

« المورفولوجيا المقارن » أي علم البنية المقارن ؛ وهو الذي يدرس القواعد السابقة دراسة تاريخ وتحليل ومقارنة في فصيلة من اللغات الانسانية أو في جميع اللغات . فهو يمتاز عن الشعبة السابقة بالموازنة التي يجريها بين اللغات فيما يتعلق بقواعد البنية في كل منها . هذا ، والقسمان الأخيران هما اللذان يدخلان في نطاق علم اللغة . أما القسم الأول وهو « المورفولوجيا التعليمي » ، فليس من بحوث علم اللغة ، بل من بحوث القواعد التعليمية .

(ح) البحث في أقسام الكلمات (تقسيمها الى اسم وفعل وحرف . . . الخ) وأنواع كل قسم ووظيفته في الدلالة ؛ وأجزاء الجملة وترتيبها وأثر كل جزء منها في الآخر (تائيد كلة أو تكبيرها أو جمعها أو تثنيها . . . تبعاً لحالة كلة أخرى في الجملة) ، وعلاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض وطريقة ربطها ؛ وتقسيم العبارة إلى جمل وترتيب هذه الجمل وطريقة وصلها أو فصلها . . . وما يتصل بذلك . ويطلق على هذا البحث اسم « السنكس » Syntax أي « علم التنظيم » ، وينقسم إلى نفس الأقسام الثلاثة التي انقسم إليها « المورفولوجيا » أو « علم البنية »

أى إلى تعليمى وتاريخى ومقارن .

« فالسنتكس التعليمى » أى علم التنظيم التعليمى ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم فى لغة ما لمجرد جمعها وترتيبها وتنسيقها حتى يسهل تعلمها وتعليمها واحتداؤها فى الحديث والكتابة . - ومن هذه الشعبة بعض أبواب النحو والمعانى فى اللغة العربية .

« والسنتكس التاريخى » أى علم التنظيم التاريخى ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم فى لغة ما دراسة تاريخية تحليلية .

« والسنتكس المقارن » أى علم التنظيم المقارن ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم دراسة تاريخ وتحليل ومقارنة فى فصيلة من اللغات أو فى جميع اللغات .

والقسمان الأخيران هما اللذان يعدان من فروع علم اللغة . أما « السنتكس التعليمى » فليس من بحوث هذا العلم .

هذا ، ومن « المورفولوجيا » و « السنتكس » أى علم البنية وعلم التنظيم يتألف ما يسمونه « الجرامير » Grammaire أى القواعد . - وبما تقدم يتبين لك أن دراسة الجرامير بفرعيها تكون تارة تعليمية وتارة تاريخية وتارة مقارنة ، وأن القسمين الأخيرين وحدهما هما اللذان يدخلان فى نطاق علم اللغة .

(٥) البحث فى أساليب اللغة واختلافها باختلاف فنونها (الشعر ، النثر ، الخطابة ، المحادثة ، الكتابة ، المسرح ... الخ) وباختلاف العصور والامم الناطقة بها ، والطرق التى تسلكها الأساليب فى تطورها ، والقوانين الخاضعة لها . . . وما يتصل بذلك . - ويطلق على هذا البحث اسم « الستيلستيك » Stylistique أى « علم الأساليب » .

وهذا البحث يمكن أن يدرس على نفس الوجوه الثلاثة التى أشرنا إليها فى البحثين السابقين .

فاذا درس على الوجه الأول، بأن كان الغرض منه مجرد جمع القواعد المتعلقة بأساليب لغة ما وتنسيقها وترتيبها ليسهل تعلمها وتعليمها واحتداؤها في المحادثة والكتابة، أطلق عليه اسم «**الستيليبستيك التعليمي**»، «**أى علم الأساليب التعليمي**». - ومن هذا النوع بعض أبواب المعاني والبيان والبديع في اللغة العربية.

وإذا درس على الوجه الثاني، بأن كان الغرض منه دراسة الأساليب في لغة ما دراسة تاريخية وتعقبها في مختلف مراحل هذه اللغة وفي مختلف الأمم الناطقة بها وشرح تطورها والقوانين الخاضعة لها بهذا الصدد، أطلق عليه اسم «**الستيليبستيك التاريخي**»، «**أى علم الأساليب التاريخي**». وإذا درس على الوجه الثالث، بأن كان الغرض منه دراسة الأساليب في عدة لغات دراسة تاريخ وتحليل ومقارنة، أطلق عليه اسم «**الستيليبستيك المقارن**».

والتوعان الأخيران هما اللذان يدخلان في نطاق علم اللغة. أما دراسة الأساليب على الوجه الأول فليست من بحوث هذا العلم بل من بحوث «**علوم البلاغة**».

هـ - البحث في الأصول التي جاءت منها الكلمات في لغة ما، بأن نبحث مثلاً عن الأصول الإغريقية واللاتينية... وغيرها التي انحدرت منها كل كلمة من الكلمات الفرنسية، أو الأصول العبرية والسريانية... وغيرها التي انحدرت منها كل كلمة من الكلمات العربية. - ويطلق على هذا البحث اسم «**الإيتيمولوجيا**» Etymologie أى «**أصول الكلمات**». ويختلف هذا البحث عن البحثين السابقين (الفونيتيك والسيمنتيك) في أنهما يدرسان أموراً كلية ويرميان إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها ظواهر الصوت أو ظواهر الدلالة، على حين أن هذا المبحث يدرس

أموراً جزئية وليس من أغراضه ولا من شأن دراسته الوصول الى قوانين؛ فهو يبحث عن الأصول التي جاءت منها كل كلمة من كلمات اللغة على حدتها .

ولكن الصلة وثيقة - على الرغم من ذلك - بينه وبين الباحثين السابقين . فدراسته تفيدهما كثيرا ، كما أنه ينتفع كثيرا بدراستهما . وذلك أن معرفة أصول الكلمات (موضوع هذا البحث) يساعد كثيراً على الوقوف على تطور الأصوات وتطور الدلالات وعلى كشف القوانين الخاضع لها هذا التطور في مظهره ، أي يعين الباحثين السابقين (الفونيتيك والسيمنتيك) على الوصول الى أغراضهما . كما أن الوقوف على القوانين التي يخضع لها كل من الصوت والدلالة في تطورهما (وهو موضوع الباحثين السابقين) يساعد على معرفة أصول الكلمات ، أي يساعد هذا البحث على الوصول الى أغراضه .

هذا ، ومن أهم شعب الإيتيمولوجيا شعبية تسمى «الاونوماستيك» Onomastique وموضوعها البحث عن أصول الأعلام بمختلف أقسامها : أعلام الأشخاص والقبائل والعشائر والجبال والأنهار والأمصار .. وما الى ذلك . ومن أهم فروع «الاونوماستيك» فرع يسمى «التوپونوماستيك» Toponomastique وموضوعه البحث عن أصول أسماء الأماكن على اختلاف أنواعها .

٦ - بحوث اجتماعية ترمى الى بيان العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية وأثر المجتمع ومدنيته ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية .. في مختلف الظواهر اللغوية .

وإلى هذه البحوث تحتاج معظم الفروع السابقة . لأن نشأة اللغة الانسانية والأشكال الأولى التي ظهر فيها التعبير والأدوار التي اجتازها

حتى وصل إلى مرحلة الأصوات ذات الدلالات الوضعية... (موضوع الفرع الأول) ؛ وحياة كل لغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر وقوة وضعف وسعة وضيق ، وانقسامها إلى فنون وإلى لهجات وتفرع لغات عامة منها ، وما تقوم به من صراع مع غيرها وما ينجم عن هذا الصراع ، وما يؤول إليه أمرها من شيخوخة وهرم وبقاء... (موضوع الفرع الثاني) ؛ والتطورات التي تحدث في أصواتها ومعانيها وأساليبها وقواعدها... (موضوع الفروع الثالث والرابع والخامس) كل أولئك وما إليه ترجع أهم عواملها إلى ظواهر اجتماعية .

فموضوعات البحث الذي نحن بصدده تمتزج بموضوعات الفروع السابقة جميعها وتفسر ظواهرها . ولذلك لا يكاد يخلو منها بحث من مباحث علم اللغة .

غير أن علماء الاجتماع قد أخذوا على القدامى من علماء اللغة بهذا الصدد مأخذ كثيرة ، ترجع إلى تقصيرهم في بيان العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية ، وانحرافهم أحيانا عن جادة الصواب في هذه السبيل ، وتفسيرهم لبعض الظواهر اللغوية تفسيراً خاطئاً يبعد بها عن المجتمع وشئونه . ولذلك أنشؤا فرعا خاصا في علمهم سموه « علم الاجتماع اللغوي » Sociologie Linguistique وعالجوا فيه الظواهر اللغوية بطريقة تكشف عن العلاقات التي تربطها بمختلف الظواهر الاجتماعية ، وتكفل سد ما في البحوث القديمة من نقص وإصلاح ما بها من أخطاء . وقد أوغل بعضهم في هذا السبيل حتى كاد ينكر أن لغويين العوامل الاجتماعية أثرا في شئون اللغة .

ومهما يكن نصيب نظرياتهم من الصواب (١) ، فهي قد أعطت هذه

(١) سنناقش هذه النظريات في وطنها ، وهو الباب الخاص باللغة والمجتمع وقد نظرية

دوسوسور De Saussure

البحوث شخصية متميزة، وجعلتها موضوع فرع مستقل، وجعلت كثيرا من علماء اللغة أنفسهم ينزلها هذه المنزلة ويفرد لها دراسة خاصة.

٧- بحوث نفسية تدرس العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها من تفكير وخيال وتذكر ووجدان ونزوع... الخ وتبين أثر كل طائفة منهما في الأخرى؛ وتشرح ما تؤديه اللغة من وظائف معتمدة في أدائها على ظواهر نفسية كالإيحاء والتأثير؛ وتعرض لما يعتمد عليه كسب الطفل للغة من قوى نفسية... وهلم جرا. ولا تقل أهمية هذه البحوث في دراسة اللغة عن أهمية البحوث الاجتماعية السابقة. وذلك أن أهم العوامل التي تؤثر في الظواهر اللغوية لا تخرج عن طائفتين: ظواهر اجتماعية عامة وظواهر نفسية فردية^(١). فموضوعات البحث الذي نحن بصدده تمتزج بموضوعات الفروع السابقة جميعها وتحتاج إليها هذه الفروع في تفسير ظواهرها وتعليلها. ولذلك لا يكاد يخلو منها مبحث من مباحث اللغة.

غير أن علماء النفس قد وجهوا لهذه البحوث قسطا كبيرا من عنايتهم، وجعلوها موضوع فرع مستقل من عليهم سموه «علم النفس اللغوي» *Psychologie du Langage*. وتوفر على دراسته عدد كبير من أعلامهم، فبلغوا به درجة راقية من النضج والكمال. وقد تأثر بهم كثير من علماء اللغة أنفسهم، فأفردوا لهذه الموضوعات دراسة خاصة.

بقي من البحوث اللغوية ما يسمونه «الفيلولوجيا» *Philologie*. - وهو بحث غير محدود النطاق ولا متميز الحدود. وذلك أن مدلول هذه

(١) تتأثر الظواهر اللغوية كذلك بالظواهر البيولوجية والفيزيولوجية والجغرافية كما سنذكر ذلك بتفصيل عند كلانا من علاقة علم اللغة بما عداه. ولكن أهمية هذه العوامل أقل بكثير من أهمية الظواهر الاجتماعية والنفسية.

الكلمة قد اختلف كثيراً باختلاف العصور وباختلاف الأمم، ولا يزال العلماء يختلفون في فهمها وإطلاقها .

فأحيانا تطلق ويراد بها ما يشمل معظم البحوث السابقة .- ويكاد يتعين هذا المعنى إذا وصفت بما يدل على عموم بحوثها، فقول مثلا « فيلولوجيا مقارنة » *Philologie comparée*.

وأحيانا تطلق ويراد بها دراسة لغة أو لغات من حيث قواعدها وتاريخ أدبها ونقد نصوصها (١).

وأحيانا تطلق ويراد بها دراسة الحياة العقلية ومنتجاتها على العموم في أمة ما أو في طائفة من الأمم .

وهي بمعنيها الأخيرين تقابل ما نسميه أدب اللغة وتاريخ ادبها .

ويطلق على جميع البحوث السابقة - ما عدا الفيلولوجيا بمعنيها الأخيرين وما عدا المورفولوجيا التعليمي والستكس التعليمي والستيلستيك التعليمي - اسم « علم اللغة » (٢) *Linguistique* ou « Science du Langage »

وقد اخترنا هذا الاسم لكتابنا لأن موضوعاته ستكون شاملة لكل البحوث التي تدخل تحت علم اللغة (٣).

(١) كانت اذا أطلقت في عصر احياء العلوم لاتصرف الا الى دراسة اللتين الاغريقية واللاتينية دراسة قواعد وأدب . ولكن الآن لاتفيد هذا المعنى الا اذا قيدت بقول « فيلولوجيا كلاسيكية » *Phil. Classique*

(٢) علمت أن بعض المؤلفين يخرج كذلك من نطاق علم اللغة البحث الخاص بشأه اللغة وعرفت وجهة نظرم (انظر صفح ٥ و ٦) .

(٣) يتفق كتابنا في خطته العامة مع المنهج الحديث لسنة الرابعة لدار العلوم . فقد حرصت اللجنة التي عهد اليها بوضع المنهج في هذه المادة والتي كان لي شرف "مضوية" فيها أن تكون مسائله في السنة الرابعة شاملة لجميع البحوث التي يطلق عليها اسم علم اللغة ، وجعلت هذه الدراسة العامة بمثابة تمهيد وأساس للدراسة الخاصة بفقهاء اللغة العربية الذي رأيت ارجاعه الى السنة الخامسة .

هذا، وقد وضع المؤلفون من العرب أسماء لبحوث تشبه بعض البحوث السابقة .

فوضعوا اسم «الصرف» لبحوث من فصيلة «المورفولوجيا التعليمي»؛ واسم «النحو» لبحوث من فصيلة «السنكس التعليمي»؛ واسم «البلاغة» لبحوث من فصيلة «الستيلستيك التعليمي»؛ واسم «أدب اللغة وتاريخ أدب اللغة» لبحوث من نوع الفيلولوجيا بمعنيها الأخيرين . غير أنهم لم يطلقوا هذه الأسماء إلا على ما يتعلق من البحوث السابقة باللغة العربية وحدها .

ومهما يكن من شيء فقد علمت أن «المورفولوجيا التعليمي» و «السنكس التعليمي» و «الستيلستيك التعليمي» و «الفيلولوجيا» بمعنيها الأخيرين، ليست من علم اللغة في شيء .

أما بحوث علم اللغة نفسه فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة أشهرها اسم «فقه اللغة»^(١) . وهذه التسمية هي خير ما يوضع لهذه البحوث؛ فإن فقه الشيء هو كل ما يتصل بفلسفته وفهمه والوقوف على ما يسير عليه من نواميس . فقد قال صاحب المصباح : «الفقه فهم الشيء» ، وقال ابن فارس : «كل علم لشيء فهو فقه» .

وقد كنا نود أن نسمى كتابنا باسم «فقه اللغة» لولا أن هذا الاسم قد خصص مدلوله في الاستعمال المألوف فأصبح لا يفهم منه إلا البحوث المتعلقة بفقه اللغة العربية وحدها .

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الفقرة الخاتمة بتاريخ البحوث اللغوية .

- ٢ -

أغراض علم اللغة

يرمى هذا العلم من وراء دراسته للظواهر اللغوية السابق بيانها إلى أغراض وصفية تحليلية يرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

١ - الوقوف على حقيقة الظواهر اللغوية والعناصر التي تتألف منها والأسس القائمة عليها .

٢ - الوقوف على الوظائف التي تؤديها في مختلف مظاهرها وفي شتى المجتمعات الإنسانية .

٣ - الوقوف على العلاقات التي تربطها ببعض والعلاقات التي تربطها بما عداها من الظواهر : كالظواهر الاجتماعية والنفسية والتاريخية والجغرافية والطبيعية والفيزيولوجية والبيولوجية والأنثروبولوجية . . . وهلم جرا .

٤ - الوقوف على أساليب تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور .

٥ - كشف القوانين التي تخضع لها في جميع نواحيها والتي تسير عليها في مختلف مظاهرها (القوانين التي تسير عليها في تكوينها ونشأتها وأدائها لوظائفها وعلاقاتها المتبادلة وعلاقاتها بغيرها وتطورها . . . وما إلى ذلك) .

وهذا الغرض الأخير هو الأساس لبحوث علم اللغة ؛ بل يكاد يكون غرضها الفذ ؛ وذلك أن الأغراض السابقة ليست في الواقع إلا وسائل للوصول إليه . فعلم اللغة لا يعرض لحقيقة الظواهر اللغوية والوظائف التي تؤديها والعلاقات التي تربطها ببعض والتي

ترابطها بغيرها والتطورات التي تعتورها... لا يعرض لهذا كله لمجرد الوصف وسرد الحقائق التاريخية، ولكن ليصل على ضوئه إلى كشف القوانين الخاضعة لها هذه الظواهر.

- ٣ -

قوانين العلوم

وبهذه المناسبة لا نرى مندوحة عن ذكر كلمة عن قوانين علم اللغة التي قررنا أنها الغرض الأساسي من دراساته. - وسنمهد لهذا بالكلام عن قوانين العلوم على العموم فنقول:

تطلق كلمة القوانين في العرف العلمي على الأصول العامة التي تبين ارتباط الأسباب بمسبباتها والمقدمات بنتائجها اللازمة؛ أو بعبارة أخرى التي تنبئ بحدوث نتائج معينة لازمة إذا حدثت أسباب خاصة وترجع النتائج الحادثة إلى أسبابها. فما يقرره علماء الرياضيات والطبيعات والاقتصاد وغيرهم من القواعد التي تبين علاقة السببية بين أمرين أو أكثر يصدق عليه اسم قوانين. وذلك كقوانين ضرب عدد في عدد^(١) وقوانين الربح^(٢) وقانون تساوي المثلثين^(٣) في الرياضيات، وقانون الجذب العام وقانون أرشميدس^(٤) وقانون بويل^(٥) في الطبيعات،

(١) مثال ذلك: إذا ضربت أربع وحدات في خمس وحدات كان الحاصل عشرين وحدة.

(٢) مثال ذلك: ربح مبالغ مايساوي حاصل ضرب رأس المال في الزمن في السعر مقسوما على مائة.

(٣) مثال ذلك: ينطبق المثلثان كل على الآخر تمام الانطباق إذا ساوى في كل ضلعان والزاوية المحصورة بينهما نظائرها في الآخر.

(٤) ككل جسم مغمور في سائل يكون مدفوعا من أسفل إلى أعلى بقوة تساوي وزن السائل الذي يحل محله.

(٥) في درجة الحرارة الواحدة تكون حجوم مقدار معين من غاز متناسبة لضغوط الواقعة عليه تناسباً عكسياً.

وقوانين العرض والطلب ^(١) وقانون جريشام ^(٢) في الاقتصاديات ...
وهلم جرا.

هذا، وقد فطن الإنسان منذ عصور سحيقة في القدم إلى خضوع
الكواكب والنجوم في سيرها وبزوغها وأفولها لقوانين ثابتة مطردة،
هدته إلى ذلك مشاهداته اليومية وملاحظته لاطراد النظام الذي تسير عليه
هذه الأجرام. وعلى هذه المشاهدات أسس أول علم عرفه بنو الإنسان
وهو علم الفلك.

ومع ارتقاء الفكر الإنساني أخذ الاعتقاد بخضوع الظواهر
لقوانين ثابتة يتسع نطاقه قليلاً قليلاً حتى شمل كل نواحي الطبيعة وكل
مظاهر الحياة، وحفز الباحثين على إنشاء علوم الطبيعة والكيمياء
والجغرافيا والبيولوجيا والفيزيولوجيا والتاريخ الطبيعي ... وما إلى
ذلك من البحوث التي لم تدع ظاهرة من ظواهر الطبيعة ولا ناحية من
نواحي النمو حتى كشفت عما يسيطر عليها من قوانين.

ولم يمض على ذلك أمد طويل حتى تمكن العلماء من الوقوف على
القوانين الطبيعية الخاضعة لها الرياح والعواصف والأمواج ... وما إلى
ذلك من الظواهر التي كانت مضرب الأمثال في التقاب وعدم الاستقرار
والتي كان الشعراء يجعلونها رمزاً للتحرر من ربة القواعد والقوانين.
فأنشوا «الميتيورولوجيا» (علم الأحوال الجوية) و«الاسيونوجرافيا»
علم أحوال المحيطات، وتمكنوا في بحوثهم الجغرافية وغيرها من الكشف
عن القوانين الخاضعة لها التيارات البحرية والزلازل والبراكين.

(١) يرتفع الثمن كلما زاد الطلب أو قل العرض وينخفض الثمن كلما قل الطلب أو زاد
العرض. - كلما ارتفع الثمن قل الطلب وزاد العرض وكلما انخفض الثمن زاد الطلب وقل العرض.
(٢) إذا اجتمع نقدان في التعامل أحدهما ردي والآخر جيد فإن الردي يتغلب على الجيد
ويطرده من السوق.

وقد كان لزاما بعد هذا كله أن تتجه الأفكار شطر الإنسان والمجتمع الإنساني وأن يتساءل الباحثون عما إذا كانت الأعمال الإنسانية الفردية والاجتماعية خاضعة لقوانين شبيهة بالقوانين الخاضعة لها ظواهر الطبيعة. غير أنهم قد طال تساؤلهم وترددوا كثيراً بهذا الصدد. وذلك أن كلاً من الظواهر الفردية والاجتماعية تبدو حرة طليقة غير خاضعة لما نسميه بالقوانين؛ فالأولى تبدو أنها من صنع الفرد يسيطر عليها ويسيرها وفق ما يراه؛ والأخرى تبدو أنها من صنع المجتمعات تخلقها خلقاً وتغير فيها حسب ما تشاء وتشاء لها أهوائها. فتذكر الفرد أمراً من الأمور ونسيانه لأمر آخر، وارتفاع ثمن سلعة ما أو انخفاضه، واختلاف مدلول كلمة ما في عصرين أو اختلاف حروفها وأصواتها في جيلين متعاقبين... هذه الأمور وما إليها من الظواهر الإنسانية الفردية والاجتماعية تظهر للنظرة الأولى أنه لا سيطرة عليها لغير إرادة الأفراد والمجتمعات وأهوائهما، ويصعب بداهة ذي بدء الاعتقاد بخضوعها لقوانين ثابتة مطردة كلقوانين الخاضع لها القمر في تزايديه وتناقصه أو النهار والليل في اختلافهما باختلاف الفصول.

لمثل هذه الشبهات لم ينفك الباحثون يقدمون في هذا السبيل رجلاً ويؤخرون أخرى، حتى ظهر في أواخر القرون الوسطى العلامة ابن خلدون وألف مقدمته الشهيرة التي أثبت فيها بالأدلة القاطعة أن أعمال المجتمع وظواهر العمران خاضعة في مختلف نواحيها لقوانين لا تقل في صرامتها واطرادها عن القوانين الخاضعة لها الظواهر الطبيعية... غير أن آراءه وبحوثه في هذه الناحية لم يتح لها ما كانت أهلاً له من الذبوع والانتشار وما كان يعوزها من التنقيح والتهديب إلا في القرن الثامن عشر الميلادي. فقد ظهر في هذا القرن في مختلف بلدان أوروبا وبخاصة في فرنسا طائفة من قادة الفكر لم تدع مؤلفاتهم أي مجال للريب في

خضوع الظواهر الاجتماعية بمختلف أنواعها لقوانين يمكن استنباطها من ملاحظة هذه الظواهر في مختلف أحوالها وفي شتى الأمم والعصور . ومن ذلك الحين أخذ المشتغلون بدراسة الظواهر الاجتماعية يوجهون كل عنايتهم إلى كشف القوانين الخاضعة لها ؛ وأخذت العلوم الاجتماعية تظهر شيئاً فشيئاً وينمو عددها قليلاً قليلاً ويتكون من فروعها مجموعة حديثة بجانب المجموعتين القديمتين وأعنى بهما العلوم الرياضية والطبيعية .

- ٤ -

قوانين علم اللغة

على هذا الأساس قام علم اللغة كما قام غيره من العلوم الاجتماعية ؛ واتجهت عناية الباحثين فيه إلى كشف القوانين الخاضعة لها الظواهر اللغوية في مختلف أشكالها ومباحثها . وقد اهتموا إلى طائفة كبيرة من هذه القوانين منها ما يتعلق بالأصوات ، ومنها ما يتعلق بالدلالات ، ومنها ما يتعلق بحياة اللغة ، ومنها ما يتعلق بوظائفها ... بعضها خاص يصدق على لغة معينة ، وبعضها عام ينطبق على فصيلة من اللغات ، وبعضها أعم يصدق على جميع اللغات . - وسيمرّ بك في كل باب من أبواب هذا الكتاب أمثلة كثيرة من هذه القوانين ؛ وسترى على ضوءها أن الظواهر اللغوية لا تسير وفقاً لإرادة الأفراد أو المجتمعات أو تبعاً للأهواء والمصادفات وإنما تسير وفقاً لنواميس لا تقل في ثباتها وصرامتها واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك والطبيعة . - فقد يكون في استطاعة الفرد أو في استطاعة الجماعة اختراع لفظ أو تركيب ؛ ولكن بمجرد أن يقذف بهذا اللفظ أو بهذا التركيب في التداول اللغوي وتناقله الألسنة يفلت من إرادة

مخترعه ويخضع في سيره وتطوره وحياته ... لقوانين ثابتة صارمة لا يستطيع الفرد ولا الجماعة الى تعويقها أو تغييرها سبيلا . فالكلمة الجديدة أو التركيب الجديد أشبه شيء بحجر يقذف به القاذف في جهة معينة بقوة خاصة؛ فإنه بمجرد أن يفارق يده يخضع في سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره على تعطيلها أو وقف آثارها .

ومن هذا يظهر أنه ليس في قدرة الأفراد والجماعات أن يقفوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يحولوا دون تطورها على الطريقة التي ترسمها قوانين علم اللغة . فهما أجادوا في وضع معجماتها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها وضبط قواعدها وأصواتها وكتابتها ، ومهما أجدوا أنفسهم في إتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقا وفي وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة في محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ... ، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير في السبيل الذي تريدها على السير فيه سنن التطور والارتقاء والتي ترسمها قوانين علم اللغة .

ومن ثم يظهر كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالمية (إسپرانتو Esperanto) يتحدث بها الناس من مختلفي الأمم والشعوب . وذلك أن هذه اللغة الصناعية ، على فرض إمكان اختراعها وإلزام الناس باستخدامها (١) ، لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع في أصواتها ومدلولاتها وحياتها وتطورها لجميع القوانين التي تخضع لها اللغات الطبيعية والتي خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان . فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين في التكوين الطبيعي لجسومهم

(١) هذه الأمنية ، وإن كانت ممكنة نظريا ، يحول دون تحقيقها عمليا صعوبات جمة ستعرض لها في الباب الذي ستقفه على هذا الموضوع .

وأعضاء نطقهم ، وفي الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفي قوائم الإدراكية والوجدانية ، وما دامت سنة الطبيعة تقضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له في كل هذه الأمور ؛ فلا بد أن تختلف هذه اللغة الصناعية في كلماتها وأصواتها ودلالاتها وتراكيبها ... باختلاف العصور وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وتختلف أقسامها باختلاف فنونها ، وتنقسم إلى لهجات يختلف كل منها عما عداها ، وتتفرع منها لغات عامية ، وتوسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالا تاما وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من اللغات ؛ وهكذا لا يمضي زمن قصير أو طويل حتى يتولد من هذا العلاج نفس المشكلة التي حاولنا القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » ؛ « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم واللغاتكم إن في ذلك لآيات للعالمين » .

- ٥ -

قوانين « الفونيتيك » وقوانين « السيمنتيك »

غير أن علماء اللغة لم يصلوا بعد إلى استنباط قوانين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إلا في الشعبة الخاصة بدراسة الأصوات (الفونيتيك) . أما في الشعبة الخاصة بالدلالة (السيمنتيك) فكثير مما كشفوه لم يصل بعد في دقته وضبطه وعمومه إلى المستوى الذي يستحق فيه اسم « القوانين » . والسبب في ذلك راجع إلى أن الظواهر الصوتية في مختلف أشكالها ترجع أهم عواملها إلى أعضاء النطق وطريقة أدائها لوظائفها وتأثيرها بالظواهر الجغرافية وأساليب انتقالها بطريق الوراثة من الأصول إلى

الفروع وما إلى ذلك . وعوامل هذه طبيعتها من الممكن تحديد آثارها وتحديد العلاقات التي توجد بينها وبين مختلف الظواهر اللغوية . فطبيعة الظواهر التي تدرسها هذه الشعبة تسمح باستنباط قوانين دقيقة مضبوطة .

وليس الأمر كذلك في الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة (موضوع السيمنتيك) . وذلك أن العوامل التي تؤثر في معاني الكلمات وفي قواعد اللغة وأساليبها فتؤدي إلى اختلافها وتطورها ... وما إلى ذلك ، يرجع أهمها إلى ظواهر اجتماعية وتاريخية وسياسية وجغرافية وثقافية ... وهلم جرا . وعوامل هذا شأنها ليس من اليسير تحديد آثار كل منها وتحديد العلاقات التي تربطها بالظواهر اللغوية .. فلا ينبغي أن نتظر من علم اللغة أن يصل في هذه الناحية إلى قوانين ثابتة صارمة عامة إلا بعد زمن طويل ومجهود جبار .

- ٦ -

الشعبة التي ينتمي إليها علم اللغة

تمهيد في تعريف العلم والفن وأمثلتهما وأقسام كل منهما

ترجع جميع شعب البحوث إلى قسمين : بحوث علمية وبحوث فنية . ويطلق العلم Science اصطلاحاً على كل بحث موضوعه دراسة طائفة معينة من الظواهر لبيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التي تربطها ببعضها البعض والتي تربطها بغيرها وكشف القوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها .

ويطلق الفن Art اصطلاحاً على كل بحث موضوعه بيان الوسائل التي ينبغي الالتجاء إليها للوصول إلى طائفة معينة من الغايات العملية .

فالبحث في جسم الإنسان مثلا يختلف الحكم عليه باختلاف ما يرمى إليه من أغراض . فان كان الغرض منه شرح أعضائه وأجهزته وبيان العناصر التي تتألف منها ، ومعرفة الوظائف التي تقوم بها ، والوقوف على تطورها ونموها ، وتوضيح العلاقات التي تربطها بعضها ببعض والتي تربطها بغيرها ، وكشف القوانين التي تخضع لها في تكوينها ونشوتها وتطورها وأدائها لوظائفها ... صدق عليه أنه « علم » . - . وإن كان الغرض منه بيان الوسائل التي ينبغي الالتجاء إليها لشفاء الجسم مثلا مما عسى أن ينتابه من مرض واختلال ، صدق عليه أنه « فن » . - . ومن ثم يعدون « الفيزيولوجيا » علماً ، لأنها تدرس جسم الإنسان من وجهة النظر الأولى ؛ على حين أنهم يعتبرون « الطب » من طائفة الفنون ، لأنه يدرس جسم الإنسان من وجهة النظر الثانية .

وكذلك البحث في القوى العقلية ، فالحكم عليه يختلف باختلاف الطريق التي يسير فيها والغرض الذي يرمى إليه . فإذا كان موضوعه وصف هذه القوى وشرحها ببيان حقيقتها والعناصر التي تتألف منها ، والوظائف التي تؤديها ، والمراحل التي تجتازها في نموها ، والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض والتي تربطها بغيرها ، والقوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها ... كان جديراً باسم « العلم » . - . وان كان الغرض منه بيان الوسائل التي ينبغي الالتجاء إليها للتأثير في هذه القوى وتربيتها وتهذيبها ... صدق عليه أنه « فن » . - . ومن ثم كانت بحوث « السيكولوجيا » (علم النفس) من طوائف العلوم وكانت « البيداجوجيا العامة » (التربية العامة) شعبة من شعب الفنون .

ومن هذا يتبين أن أهم فارق بين العلوم والفنون أن الأولى نظرية وصفية تحليلية ترمى إلى شرح ما هو كائن ؛ على حين أن الأخرى عملية

تطبيقية يهتما بيان ما ينبغي أن يكون (١).

هذا ، وتنقسم الفنون قسمين رئيسيين :

١ - فنون يقينية Arts rationnels ، وهي ما كانت بحوثها الفنية مؤسسة على بحوث علمية ومستمدة منها . وذلك كفن الطب الحديث ، فانه مؤسس على علم « الفيزيولوجيا » ؛ وكفنون التربية الحديثة ، فإن الخطط التي ترسمها للتأثير في جسم الطفل وعقله وخلقه مؤسسة على بحوث علم النفس وعلم وظائف الأعضاء وما إليهما .

٢ - فنون غير يقينية Arts irrationnels ، وهي ما كانت بحوثها الفنية غير مؤسسة على بحوث علمية . وذلك كفنون السحر والشعوذة والطب القديم وما الى ذلك من الفنون التي تعتمد فيما تقرره على العقائد أو الأساطير أو الخرافات أو على محض التجارب .

اما العلوم فتقسم باعتبار الظواهر التي تدرسها الى ثلاث طوائف رئيسية :

١ - العلوم الرياضية ، وهي العلوم التي تدرس خواص الكم من حيث إنه محدود أو مقيس ، كالحساب والجبر والهندسة وما إليها .

٢ - العلوم الطبيعية ، وهي التي تدرس ظواهر الكون سماوية كانت أم أرضية عضوية كانت أم غير عضوية ، كالفلك والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية وعلم الحيوان وعلم النبات والطبيعة والكيمياء . . . وما إليها .

٣ - العلوم الإنسانية ، وهي التي تبحث في الانسان أو في المجتمع

(١) ولا صحة لما ذهب اليه فونت Wundt من أن العلوم تنقسم قسمين : وصفية موضوعها الوصف والتحليل ، ومياريية Normatives موضوعها بيان واجب عمله ؛ لان في تقسيمه هذا خلطا بين العلوم والفنون ؛ ولان البحوث التي سماها علوما مياريية ليست في الحقيقة الا فنونا . - هذا وقد كفانا العلامة « ليفي برونل [Levy Bruhl] » ثبوت الاطالة في الرد على هذه النظرية بما كتبه عنها في مؤلفه الجليل « الاخلاق وعلم الاجتماع الخلقى » La Morale et La Science des Mœurs .

الإنساني . وهي لذلك تنقسم قسمين :

(أولا) علوم فردية ، وهي التي تدرس الإنسان من حيث إنه فرد كالأنثروبولوجيا (علم الإنسان) والفيزيولوجيا الإنسانية (علم وظائف أعضاء الإنسانية) والسيكولوجيا (علم النفس) .

(ثانيا) علوم اجتماعية وهي التي تدرس الإنسان من حيث إنه عضو في مجتمع ، أو بعبارة أخرى تدرس العلاقات التي تكون بين أفراد يضمهم مجتمع . - ولتعدد هذه العلاقات تعددت علوم هذه الطائفة : فمنها ما يدرس العلاقات السياسية ويبحث في نشأة الأمم وتطورها ونظم الحكم فيها وعلاقتها بعضها ببعض ... الخ ، ويسمى « علم السياسة » ؛ ومنها ما يدرس النظم القضائية وتطورها والأسس المبنية عليها ... وما يتصل بذلك ، ويسمى « علم الحقوق » ؛ ومنها ما يدرس النظم الدينية ويبحث في أصولها وتطورها وآثارها ، ويسمى « علم الأديان » ؛ ومنها ما يبحث في النظم الاقتصادية المتعلقة بإنتاج الثروة واستبدالها وتوزيعها واستهلاكها ويشرح حقيقتها ونشأتها وتطورها والأسس القائمة عليها ووظائفها والقوانين الخاضعة لها ... ويسمى « علم الاقتصاد السياسي » ؛ ومنها ما يبحث في النظم الخلقية ويسمى « علم الأخلاق » ... وهلم جرا .

وتمتاز هذه الطائفة الأخيرة عن بقية طوائف العلوم بشدة الصلة التي تراط فروعها بعضها ببعض . فبحوث علم الأخلاق تمت بصلة وثيقة إلى بحوث علم الأديان ؛ وبحوث علم السياسة شديدة الارتباط ببحوث علمي الأخلاق والحقوق ... وهلم جرا . - والسبب في هذا راجع إلى أن فروع هذه الطائفة متحدة في موضوعها الرئيسي وهو الإنسان من حيث إنه عضو في مجتمع ، وإلى أن النظم الاجتماعية التي تدرسها متداخل بعضها في بعض ومتأثر بعضها ببعض لدرجة تجعل تقسيمها إلى فروع

ضرباً من الاصطلاح ومجرد وسيلة لتسهيل الدراسة . - وهذا ما حدا بأوجيست كونت Auguste Comte على أن يجمعها كلها تحت لواء علم واحد سماه علم الاجتماع أو « السوسولوجيا » Sociologie .
وعلى العكس من ذلك العلوم الطبيعية ؛ فان موضوعات كل فرع منها متميز تمام التميز عن موضوعات ما عداها . فموضوعات الجيولوجيا مثلا لا يمكن أن تلتبس بموضوعات علم الفلك ؛ إذ الأول يدرس طبقات الأرض على حين أن الثاني يبحث في أفلاك السماء .

الشعبة التي تنتمى إليها بحوث علم اللغة

فاذا عرفت هذا ورجعت إلى ما قلناه في الفقرات السابقة عن بحوث علم اللغة وموضوعاتها وأغراضها وقوانينها ، ظهر لك أن هذه البحوث من طائفة العلوم لا الفنون وأنها من فصيلة العلوم الاجتماعية .
أما أنها من طائفة العلوم فذلك لأنها ترمى من وراء دراستها للظواهر اللغوية إلى أغراض وصفية تحليلية ترجع إلى الوقوف على حقيقتها والعناصر التي تتألف منها ، والوظائف التي تؤديها ، والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض والتي تربطها بما عداها ، وأساليب تطورها ، والقوانين التي تخضع لها في مختلف نواحيها ؛ وبالجملة : تدرس الظواهر اللغوية لشرح ما هو كائن لا لبيان ما ينبغي أن يكون . وقد تقدم أن كل بحث هذا شأنه يسمى علماً . - وأما أنها من فصيلة العلوم الاجتماعية ، فذلك لأن موضوع العلوم الاجتماعية على ما تقدم هو دراسة العلاقات التي تتكون بين أفراد يضمهم مجتمع . ومن الواضح أن الظواهر اللغوية التي تدرسها بحوث علم اللغة ليست إلا شعبة من شعب هذه العلاقات . فالنظم اللغوية التي تسير عليها أفراد أمة ما في تفاهمهم والتعبير عما يجول بخواطرهم لا تختلف في هذه الناحية عن

النظم الاقتصادية التي يسرون عليها في مبادلاتهم ، والنظم الدينية التي يتبعونها في عباداتهم وعقائدهم وفهمهم لما وراء الطبيعة ، والنظم الخلقية التي يأخذون بها في تمييزهم بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، والنظم العائلية التي يخضعون لها في الزواج والطلاق والتوريث وتحديد درجة القرابة ، والنظم السياسية التي يحتدونها فيما يتعلق بشكل الحكومة ونظام الحكم وتوزيع السلطات وحقوق كل سلطة وواجباتها ، والنظم القضائية التي يطبقونها في الجرائم والعقوبات والمسئولية والعقود والالتزامات . - فكما أن كلا من النظم الاقتصادية والدينية والخلقية والعائلية والسياسية والقضائية تنظم ناحية من العلاقات الاجتماعية ، كذلك النظم اللغوية تنظم ناحية هامة من هذه العلاقات وهي الناحية المتصلة بالفهم بين الأفراد والتعبير عما يحول بالخواطر .

-٧-

الانتفاع ببحوث علم اللغة من الناحية العملية

غير أنه من الممكن الانتفاع بحقائق هذا العلم من الناحية العملية ، أى الاهتمام بضوئه إلى ما ينبغى عمله في ظواهر اللغة ، شأنه في ذلك شأن غيره من العلوم . فكما أن بحوث الفيزيولوجيا التي تدرس وظائف الأعضاء دراسة علمية ، أى دراسة وصف وتحليل ، قد أقيم على أسسها فنّ الطب الذي يشرح الوسائل التي ينبغى الالتجاء إليها للوصول إلى طائفة معينة من الغايات العملية المتصلة بجسم الإنسان ؛ وكما أن بحوث السيكولوجيا (علم النفس) التي تدرس القوى النفسية لمجرد وصفها وتحليلها وكشف القوانين الخاضعة لها ، قد أقيم على أسسها فنّ « البيداجوجيا » الذي يشرح الوسائل التي ينبغى اتخاذها لتربية قوى

الطفل النفسية وتعليمها وتهذيبها وإعدادها إعداداً صالحاً للحياة المستقبلية ، كذلك من الممكن أن يقام على القواعد التي يكشفها علم اللغة بحوث فنية ترشدنا إلى ما ينبغي عمله في مختلف الشؤون اللغوية : فترشدنا مثلاً إلى خير الوسائل التي ينبغي اتخاذها في تعليم اللغات الحية وغيرها ، وفي وضع كتب القواعد والأدب وطرق تدريسها ، وفي إصلاح قواعد الإملاء والشكل والترقيم ، وفي تدوين معاجم اللغة وضبط مفرداتها وتحديد دلالاتها ، وفي النهوض باللغة ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن أو تحريف ، وفي تهذيب مصطلحاتها وتوسيع نطاقها وترقية لهجاتها العامة وإدخال مفردات جديدة على مفرداتها ، وفي إحلال لغة أخرى محلها ، وفي إنشاء لغة عالمية يتحدث بها جميع أفراد النوع الإنساني ... وما إلى ذلك من الشؤون اللغوية التي تشغل الآن قسماً كبيراً من نشاط الباحثين والمصلحين والتي من أجلها تنشأ الجامعات اللغوية والأكاديميات ، وينظم عدد كبير من المؤتمرات المحلية والدولية .

وفي الحق أن كثيراً من المصلحين والمفكرين قد أخذوا الآن يولون وجوههم في حلّ هذه المشاكل شطر علم اللغة ويستمدون منه المعونة ويقيمون إصلاحاتهم على الأسس التي تقررها قوانينه وتطمئن إليها قواعدهم ، بعد أن كانوا من قبل يصدرون عن آراء فردية فطيرة وتسيرهم آمال ورغبات لا سند لها من العلم الصحيح . - ومن ثم اضطروا إلى تغيير كثير من الخطط الفاسدة التي كانوا يسرون عليها من قبل ؛ وأخذوا ينصرفون عن كثير من المشروعات التي شغلهم زمناً غير قصير ، بعد أن تبين لهم من قوانين علم اللغة استحالة تنفيذها ، كمشروع إنشاء لغة عالمية .

فاذا هذبت هذه البحوث الفنية وربطت في مختلف نواحيها بحوث علم اللغة ، ونسقت موضوعاتها ، ونظمت مسائلها ، وجمعت نتائجها ،

وفصلت عما عداها من البحوث ، ودونت في مؤلفات مستقلة ، لا يلبث أن يتكون منها فن يقينى شبيه بالفنون التى تكونت على أسس الفيزيولوجيا والسيكولوجيا كالطب والتربية العامة وما إليهما . - ويظهر للتأمل فى هذه البحوث أنها سائرة إلى هذه الغاية بخطى حثيثة وأن اليوم الذى يتم فيه تكوير هذا الفن بالشكل الذى وصفناه ليس بعيد .

- ٨ -

علاقة علم اللغة بما عداه من البحوث

تقدم أن علم اللغة من العلوم الاجتماعية وأن طائفة العلوم الاجتماعية تمتاز عن بقية طوائف العلوم بشدة الصلة التى تربط فروعها بعضها ببعض^(١) . فعلم اللغة متصل إذن اتصالاً وثيقاً ببقية أفراد فصيلته ونعنى بها العلوم الاجتماعية . وذلك أن للظواهر الاجتماعية بمختلف أنواعها آثاراً بليغة فى مختلف شئون اللغة . فنشأة اللغة ، وانقسامها إلى فصائل ، وحياتها ، وانتشارها ، وما يطرأ عليها من قوة وضعف وسعة وضيق وعظمة وضعف ، وصراعها مع غيرها وانتصارها أو هزيمتها واحتلالها مناطق كانت تابعة لغيرها أو تخليها لغيرها عن بعض مناطق نفوذها ، وتعدد مظاهرها تبعاً لتعدد فنونها ، وانقسامها إلى لهجات وتفرع لغات عامة منها ، واختفاؤها اختفاء كلياً أو جزئياً ، والتطورات التى تحدث فى أصواتها ومدلولاتها وأساليبها وقواعدها . . . كل أولئك وما إليه لا يمكن فهمه والوقوف على أصوله وأسبابه إلا على ضوء الظواهر الاجتماعية الأخرى من سياسية ودينية واقتصادية . . . وهلم جرا . فلا غرابة إذن أن تكون الصلة وثيقة بين العلم الذى يدرس الظواهر

(١) انظر صفحات ٢٦ - ٢٨ .

اللغوية (علم اللغة) والعلوم التي تدرس الظواهر الاجتماعية الأخرى كعلوم السياسة والأديان والاقتصاد والتاريخ ... وما إلى ذلك .
 وليس علم اللغة مرتبطا بالعلوم الاجتماعية فحسب ، بل إن بحوثه متصلة كذلك ببحوث علم النفس . فكثير من المسائل التي يعرض لها يتوقف شرحها وفهمها وبيان أصولها وأسبابها على الرجوع إلى ما يرتبط بها من الظواهر النفسية وإلى ما يقوله علم النفس بصددتها . فتكوين المتكلم لعباراته وفق أفكاره ، وإدراك السامع الحديث وفهمه له ، وصوغ العبارات وتدوينها كتابة ، وفهم القارئ لنقوش الكتابة ، وكسب الطفل للغة ، وأداء اللغة لوظائفها الدلالية والإيحائية والتأثيرية ، وانحطاط لغة في عصر ما أو عند بعض الشعوب الناطقة بها وارتقاؤها في عصر آخر أو عند شعوب أخرى ، وتعدد فروع اللغة تبعاً لتعدد نواحي التفكير ، وتطور اللغة في مدلولات كلماتها وأساليبها كل هذه الظواهر وما إليها تعتمد اعتماداً جوهرياً على ظواهر عقلية كالإدراك الحسي والتفكير وإدراك المعاني الكلية والحكم والاستدلال وخيال الحركة والخيال السمعي والخيال النظري والحفاظة والذاكرة وتداعي المعاني والحالات الوجدانية والانتباه والعادة ومظاهر النزوع والإرادة والأمزجة ووراثة الصفات النفسية .. وهلم جرا . ومن الواضح أن هذه الظواهر هي موضوع علم النفس ؛ ولا يمكن فهمها وتحديد صلتها باللغة وأثرها فيها إلا بالرجوع إليه .

ويتصل علم اللغة كذلك بالبحوث التاريخية والجغرافية . فكثير من الظواهر اللغوية التي يعرض لها ترجع عواملها وأصولها إلى ظواهر جغرافية وتاريخية . فانتشار اللغة وصراعها مع غيرها وانتصارها أو هزيمتها واحتلالها مناطق كانت تابعة لغيرها أو تخليها لغيرها عن بعض مناطق نفوذها ، وانقسامها إلى لهجات وتفرع لغات عامية منها ، وانتشار

الدخيل بين ألفاظها ، واستعارتها كلمات من غيرها ، وتأثيرها بقواعد غيرها من اللغات أو بأساليبها ، وما يطرأ عليها في أثناء حياتها من قوة وضعف وسعة وضيق ، والتطورات التي تحدث في أصواتها ومدلولاتها وأساليبها ... كل ذلك وما إليه ترجع طائفة من أسبابه إلى ظواهر تاريخية وجغرافية : كالغزو ، وتغلب أمة على أخرى ، والهجرة ، واندماج أمم بعضها في بعض ، واتصال الأمة بما عداها ، واعتناقها ديناً غير دينها الأصلي ... ، و كالموقع الجغرافي للمملكة ، وحالة الجو ، وطبيعة الأرض ، وما تشتمل عليه من تضاريس وجبال وفجوات وخلجان ، والحدود الطبيعية التي تفصل أجزاء المملكة الواحدة أو تفصل المناطق الناطقة بلغة واحدة بعضها عن بعض ... وهلم جرا .

ويتصل علم اللغة كذلك بعلوم الطبيعة ووظائف الأعضاء والتشريح والبيولوجيا والأنثروبولوجيا . فهو يستعين بحوث علم الطبيعة في تحليل الصوت والوقوف على خواصه وقوته ومدته وموجاته وذبذبه وانتشاره وما يتصل بذلك . ويستعين بالتشريح والبيولوجيا الإنسانية (وظائف أعضاء الإنسان) في الوقوف على مخارج الحروف وتحليل أعضاء النطق والسمع ، والوقوف على وظائفها ، وكيفية قيامها بهذه الوظائف ؛ واختلافها باختلاف الأفراد ، واختلافها في الفرد الواحد باختلاف سنه ، واختلافها باختلاف الأمم ، واختلافها في الأمة الواحدة باختلاف عصورها ، وبيان أثر هذه الظواهر جميعها وما إليها في اللغة ونشأتها وتطورها . ويستعين بالبيولوجيا (علم الحياة) والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) في الوقوف على نشأة الفصيلة الإنسانية ، ونشأة مركز اللغة عند الإنسان ، ونشأة أجهزة السمع والنطق ، والتطورات التي اجتازتها الفصيلة الإنسانية فيما يتعلق بالتكوين الجسمي وعلى الأخص تكوين أعضاء السمع والنطق ،

وفي الوقوف على قوانين الوراثة وانتقال الصفات الجسمية من الأصول إلى الفروع ، وبيان أثر هذه الظواهر كلها وما إليها في اللغة الإنسانية نشأتها وانتشارها وتطورها (١).

وحمادى القول : إن علم اللغة يتصل بكل طوائف العلوم . غير أن صلته بأفراد فصيلته ، ونعني بها العلوم الاجتماعية ، أشد من صلته بالطوائف الأخرى . - على أن ما يصدق على علم اللغة بهذا الصدد ، يصدق على ما عداه من العلوم : فالمعارف الإنسانية كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

هذا ، وتشتد حاجة علم اللغة إلى علوم الطبيعة والفيزيولوجيا والتشريح والأنثروبولوجيا في بحوثه الخاصة بالأصوات (شعبة الفونيتيك^(٢)) ؛ على حين أن حاجته إلى الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا تشتد في بحوثه المتعلقة بالدلالة (شعبة السيمينتيك^(٣)) والمتعلقة بحياة اللغة^(٤) . . . وما إلى ذلك ؛

- ٩ -

مناهج البحث في علم اللغة

يراد بمناهج البحث الطرق التي يسير عليها العلماء في علاج المسائل والتي يصلون بفضلها إلى ما يرمون إليه من أغراض . وقد تقدم لك أن

(١) لم يفكر علماء اللغة في الاستماتة بعلوم الطبيعة والفيزيولوجيا والتشريح والبيولوجيا والانتروبولوجيا الا منذ عهد قريب .

(٢) انظر موضوع هذه الشعبة بالسطر الاخير من صفحة ٦ والقسم الاول بصفحة ٧ .

(٣) انظر موضوع هذه الشعبة بصفحة ٧ (رقم ٤) والصفحات التالية لها .

(٤) انظر موضوع هذه البحوث بصفحة ٦ (رقم ٢) .

العلوم تتفق جميعها في اتجاهاتها الأساسية وفي وجهة نظرها إلى الظواهر التي تعالجها وفي الأغراض العامة التي ترمى إليها من وراء دراساتها. وقد كان لزاما، وهي متفقة في هذه الأمور، أن تتحد فيها بعض مناهج البحث. ولذلك كان من بين مناهج البحث بعض طرق تستخدم في مختلف فروع العلوم. - ويطلقون على هذه الطرق اسم «الطرق العامة، أو مناهج البحث المشتركة».

ولكن لكل فرع منها موضوعات معينة وأغراض خاصة يمتاز بها عما عداه من الفروع. وقد نجم عن هذا أن تستخدم كل علم منها في دراسته - زيادة على الطرق العامة التي سبق ذكرها - طرقا خاصة به تتفق مع طبيعة موضوعاته وتدعو إليها بميزات ظواهره وما يرمى إليه من أغراض خاصة به.

ولكل شعبة من شعب العلم الواحد مسائل متميزة تختلف في بعض خواصها ومظاهرها عن مسائل الشعب الأخرى. ولذلك نرى أن العلم الواحد قد يستخدم في دراسته لموضوع من موضوعاته طرقا لا يستخدمها، ولا ينبغي استخدامها، في موضوع آخر من نفس العلم. وعلى هذا السنن سار علم اللغة في دراساته : فاستخدم طرقا عامة يشترك فيها مع غيره من البحوث العلمية؛ واستخدم كذلك طرقا خاصة به تقتضيها طبيعة الظواهر التي يعرض لدراستها ولا تتلاءم مع غيرها؛ وامتازت كل شعبة من شعبه عما عداها ببعض طرق دراسية تواتى طبيعة مسائلها وتحقق أغراضها من أقرب سبيل.

وسنعرض بإيجاز فيما يلي لأهم هذه الطرق معلقين على كل منها بما يوضح نوعها ونواحي استخدامها وما يبين منشأها وما بها من محاسن وعيوب.

(الطريقة الأولى) طريقة الملاحظة المباشرة . أى التى لا يلتجأ فيها إلى التجارب ولا تستخدم فيها الأجهزة ؛ بل يقتصر فيها على ملاحظة الظواهر اللغوية فى حالاتها العادية الطبيعية ولا يستعين فيها الباحث بغير حواسه وقواه العقلية .

وفى هذه الطريقة يشترك علم اللغة مع عدد كبير من العلوم الأخرى وبخاصة العلوم الطبيعية . - وهى أقدم طريقة استخدمها الباحثون فى علم اللغة ؛ ولا تزال إلى الآن من أهم طرقهم ؛ وإليها يرجع الفضل فى معظم ما وصلوا إليه . فعلى ضوء الملاحظة استطاعوا أن يقسموا الظواهر اللغوية إلى أقسام متميزة ويرجعوها إلى طوائف محدودة ويردوا الفروع إلى أصولها ؛ فنظمت بذلك موضوعات العلم ونسقت فروعه وسهلت دراسته . وبفضل هذه الطريقة كذلك كشف العلماء عن كثير من الحقائق المتصلة بنشأة اللغة وحياتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التى تربط ظواهرها بعضها ببعض والتى تربطها بما عداها والقوانين الخاضعة لها فى مختلف نواحيها .

وتنقسم الملاحظة أقساماً كثيرة باعتبارات مختلفة :

فتنقسم باعتبار نوع الظواهر اللغوية التى تعالجها إلى قسمين :
ملاحظة صوتية Phonétique وهى ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالصوت ؛ وملاحظة دلالية Sémantique وهى ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة .

وتنقسم باعتبار نوع اللغات التى يتناولها البحث إلى قسمين :
ملاحظة اللغات الحية ، وملاحظة اللغات الميتة . أما ملاحظة اللغات الحية فسيبيلها واضحة ؛ وأما ملاحظة اللغات الميتة فيتحقق بالرجوع إلى ما وصل إليها فى المؤلفات والوثائق والآثار ... وما إلى ذلك . -
وملاحظة اللغات الميتة كبيرة الأهمية فى الدراسات اللغوية على العموم

وفي دراسة نشأة اللغات وتطورها على الخصوص. فلو اقتصر علماء اللغة على ملاحظة اللغات الحية لما وصلوا إلى شيء يعتد به بصدد التطور اللغوي، ولتعرضت بحوثهم وآراؤهم بهذا الصدد للزلل والاضطراب، وما كان يتاح لعلمهم في هذا الأمد القصير أن يصل إلى ما وصل إليه من حقائق وقوانين تنتظم جميع الظواهر اللغوية. وذلك أن ارتقاء اللغات وتطورها لا تظهر آثارهما جلية واضحة إلا بملاحظة مرحلة طويلة من مراحل التاريخ الإنساني؛ وهذا لا يتاح إلا بدراسة اللغات الميتة من بطون الكتب والآثار. - وقد بدأ علم اللغة بداءة حسنة بهذا الصدد، فقد وجه الباحثون فيه منذ نشأته عناية كبيرة إلى دراسة اللغات الميتة القديمة؛ بل إن عناية القدامى منهم بملاحظة اللهجات الحية واللغات الحاضرة لم تكن شيئاً مذكوراً بجانب عنايتهم بدراسة ما دثر من اللغات (١).

وتنقسم الملاحظة كذلك باعتبار تعلقها بشخص الملاحظ (بكسر الحاء) أو بغيره إلى قسمين: أحدهما الملاحظة الذاتية Subjective وهي أن يلاحظ الباحث ما يصدر عنه هو من ظواهر لغوية ويدون ملاحظاته ويحللها ليصل على ضوءها إلى تحقيق ما يرمى إليه، أو أن يكلف شخصاً آخر أن يلاحظ ما يصدر عنه (عن ذلك الشخص الآخر) من ظواهر لغوية ويطلب إليه أن يصفها له، فيدون هذا الوصف ويحلله ويوازنه بملاحظات أخرى ويستخدمه في علاج ما تعنيه دراسته. وثانيهما الملاحظة الخارجية Objectif وهي ملاحظة الباحث لما يصدر عن شخص آخر من ظواهر لغوية بدون أن يكون لهذا الشخص الآخر أي دخل في الملاحظة. وهذا القسم الأخير ينقسم هو نفسه قسمين: ملاحظة خارجية سلبية passive وملاحظة خارجية ايجابية positive فالسلبية هي ما يترك

(١) ستكام عن هذا بتفصيل في أثناء كلامنا عن تاريخ البحوث اللغوية (انظر الفقرة التالية).

فها الملاحظ (بفتح الحاء) على حالته الطبيعية، بأن يقتصر الباحث على الاستماع إليه وهو يتحدث حديثاً عادياً. والايجابية هي ما يعمل فيها الباحث على توجيه الشخص الذي تجرى عليه الملاحظة وجهة معينة، بأن يلقي عليه أسئلة خاصة في الموضوعات التي يهيمه بحثها ليصل على ضوء إجاباته إلى الوقوف على ما يعنيه الوقوف عليه.

وقد أخذ علماء اللغة على طريقة الملاحظة بمختلف أنواعها ما أخذ كثيرة، وتبين لهم نقصها في كثير من الشؤون.

فكثير من العلماء لا يثقون بالملاحظة الذاتية (ملاحظة الباحث لما يصدر عنه هو من ظواهر لغوية) ويرتابون في كل ما يصل عن طريقها من حقائق. وذلك أنهم يرون أن قوى العقل في أثناء ملاحظة الإنسان لما يصدر عنه ويقوم به من ظواهر لغوية تكون موزعة مشتتة. فهي تشرف على إصدار الظواهر اللغوية وتلاحظ في الوقت نفسه ما تصدره من هذه الظواهر. وتكون النتيجة أن كلا الأمرين (الإصدار والملاحظة) يكون ناقصاً غير طبيعي، لعدم تفرغ القوى العقلية له ولاشتغالها بشيء آخر في أثناء قيامها به. هذا إذا لاحظ الباحث نفسه في أثناء قيامها بالظاهرة اللغوية. أما إذا لم يشغل نفسه بالملاحظة إلا بعد الفراغ من الظاهرة اللغوية، فإن ملاحظته في هذه الحالة تكون منسوبة على ما استعده ذا كرتة من عناصر الظاهرة التي فرغ منها. وملاحظة كهذه لا يوثق بها؛ لأنه من المتعذر أن يتذكر الإنسان كل ما أصدره أو قام به تذكراً صحيحاً لانقص فيه ولا زيادة ولا تغيير ولا تبديل.

هذا إلى أن عزم الشخص على ملاحظة ما يصدر عنه من ظواهر لغوية، سواء أراد أن تجرى هذه الملاحظة في أثناء قيامه بالعمل أو بعد فراغه منه، يحمله على توجيه قسط من انتباهه للعمل في أثناء صدوره. وتوجيه الانتباه لعمل ما من الأعمال العادية في أثناء صدوره يشوّه

ويجعله يصدر في صورة غير طبيعية. ألا ترى أنك لو حاولت أن تعرف مثلاً كيف تكتب أو كيف تمشي لاعتراك اضطراب في أعصابك فتشوه كتابتك وتتعثر في مشيتك.

وكثيراً ما يكون علماء اللغة متأثرين في أثناء ملاحظتهم لما يصدر عنهم من ظواهر لغوية ببعض مبادئ ونظريات؛ فهما حاولوا الدقة في الملاحظة فإن هذه المبادئ والنظريات تفسد عليهم أحكامهم وتبعدها عن الحقيقة من حيث لا يشعرون.

وكثيراً ما تغري الملاحظة الذاتية الباحثين بالتسرع في أحكامهم. فقد يكون بعض ما يصدر عنهم من ظواهر لغوية خاصاً بهم لا يشترك معهم فيه غيرهم من الأفراد. فالإقتصار على الملاحظة الذاتية في حالات كهذه يغرر بالباحثين ويجعلهم ينظرون إلى أمور فردية نظرتهم إلى ظواهر عامة.

هذا إلى أن الفرد لا يمكن أن يمثل في حياته الفردية إلا ناحية يسيرة من ظواهر لغته. فالإقتصار على الملاحظة الذاتية يجعل دائرة البحث ضيقة كل الضيق.

على أن تمت ظواهر لغوية كثيرة لا تمكن فيها مطلقاً الملاحظة الذاتية. ومن ذلك الظواهر اللغوية في أدوار الطفولة الأولى. وذلك لأن الطفل لا يشعر بما يصدر عنه وما يقوم به من ظواهر لغوية شعوراً دقيقاً ولا يستطيع أن يصفه وصفاً يعتد به.

وقد دلت التجارب على خطأ الملاحظة الذاتية حتى في الظواهر اللغوية الداخلية التي لا يدركها بشكل مباشر إلا المتكلم نفسه كحركات اللسان مثلاً في أثناء النطق بحرف أو بصوت. فقد ظهر للباحثين بعد أن استخدموا الأجهزة الدقيقة في دراسة هذه الطائفة من الظواهر فساد كثير من النظريات القديمة التي كان مصدرها الملاحظة الذاتية.

وكثير من العلماء لا يطمئن كذلك إلى الملاحظة الخارجية في شكليها السلبي والايجابي؛ أما شكليها السلبي فلبطئه وضآلة محصوله . فإذا اقتصر الباحث على ملاحظة الناس في حالاتهم العادية فقد ينقض عمره قبل أن يتم له تحقيق مسألة لغوية واحدة . وأما شكليها الايجابى فلأنه عرضة للزلل وخطأ التأويل . فقد لا يفهم الملاحظ (بفتح الحاء) حق الفهم ما يلقى عليه من أسئلة فيجيب إجابات مضللة . هذا إلى أن شعوره بأن لغته موضوع ملاحظة يغير من اتجاهها ويخرج بها عن حالاتها الطبيعية .

ووجه كذلك اعتراضات كثيرة إلى الملاحظة الصوتية (ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالصوت) . فقد أخذ كثير من العلماء على هذه الملاحظة أنها تعتمد على الأذن الانسانية؛ وأن هذه الحاسة غير دقيقة في تمييز أنواع الصوت وإدراك خصائصه .

وبزيد من فساد إدراكها ثلاثة أمور:

(أحدها) تأثير السامع بالشكل الكتابي للكلمة فلا يسمعها على الوجه الذى لفظت به ، بل على الوجه الذى يتفق مع رسمها . فكثير منا ينطق مثلاً بالعبارات الآتية على هذا النحو «ضار لعلوم»، «مسأل صعب جداً»، «جر تلصرى»، «صوط جميل»؛ ولكن يخيّل لمن يسمعها إذا كان ملماً بالقراءة والكتابة أنه يسمعها على النحو الآتى: «دار العلوم»، «مسألة صعبه جداً»، «جريدة المصرى»، «صوته جميل» . وذلك لتأثره فى سماعها بالشكل الذى ترسم به .

(وثانيها) أن السامع يوجه قسماً كبيراً من انتباهه فى أثناء السماع إلى مدلول الكلمات والعبارات ولا يعنى كثيراً بإدراك الأصوات . وهذا الاتجاه الذى لا يستطيع أى سامع أن يتحرر منه تمام التحرر يجعل إدراكه السمعى عرضة للزلل ، فهو بمجرد أن يدرك معنى الكلمة ، وذلك يتحقق بسماع بعض حروفها ، وبمجرد أن يدرك معنى الجملة ، وذلك

يتحقق بإدراك بعض كلماتها ، ينصرف عن سماع الباقي فلا يدركه إدراكاً سمعياً صحيحاً . تعمد مثلاً تحريف بعض كلمات في جملة ما وناقش السامع فيما سمعه تر أنه لم يتبين هذا التحريف . قل مثلاً لزاير : « إزى صحّة » فإنه يسمعها « إزى صحتك » ولا يتبين حذفك لكاف الخطاب ؛ وقل مثلاً في أثناء التحسر على شخص : « بسكين الراجل ده » فإن المخاطب يسمعها « مسكين » ولا يفتن لاستبدالك الباء بالميم .

(وثالثها) أن غرابة الصوت على الأذن ، أى عدم إيلافها سماعه من قبل ، يجعلها تدركه إدراكاً خاطئاً ، ويظهر هذا من سماعك لكلمات لغة أجنبية لا تعرفها : فانك لا تكاد تتبين الأصوات التي سمعتها ولا تستطيع إعادتها إعادة صحيحة لأول مرة .

ولكن ، على الرغم من جميع هذه المآخذ ، لا تزال طريقة الملاحظة المباشرة من أهم الطرق المستخدمة في علم اللغة ومن أهمها نفعاً وأكثرها إنتاجاً ؛ ولا يمكن لأى شعبة من شعبه الاستغناء عنها ؛ بل إن بعض الشعب لا يواتيها في بحوثها إلا هذه الطريقة^(١) .

غير أن هذه الاعتراضات ترشدنا إلى اتخاذ احتياطات كثيرة بهذا الصدد . فمن ذلك :

١ - أن الاقتصار على شكل واحد من أشكال الملاحظة المباشرة يعرض الباحث للزلل وخطل الرأي . فينبغي أن تتضافر جميع أشكال هذه الطريقة ويدعم بعضها بعضاً ليسد ما في كل منها من نقص ويصلح ما به من فساد . وذلك بأن نجتمع بين الملاحظة الذاتية ، والملاحظة الخارجية السلبية والملاحظة الخارجية الإيجابية ، وتتخذ في كل منها من وسائل الحيلة ما يكفل بعده عن مظان الخطأ والريبة التي أشرنا

(١) نشبة « السيمتيك » مثلاً تعتمد في أم بحوثها على طريقة الملاحظة المباشرة ولا يواتيها غيرها .

إليها في الاعتراضات السابقة .

٢ - وأنه من الخطأ الاقتصار على طريقة الملاحظة المباشرة في دراسة « الفونيتيك » (دراسة المظهر الصوتي في اللغة) بل الواجب أن تضم إليها طرق أخرى أدق منها في علاج هذه الظواهر، كطريقة الأجهزة والمقاييس التي سيأتي الكلام عنها .

٣ - وأن استخدام هذه الطريقة في « الفونيتيك » يتطلب من الباحث أن يكون دقيق الاحساس مرهف السمع . وذلك لا يتحقق إلا إذا عني بترية هذه الحاسة وأخذها في كل شئونها بالدقة وعودها الضبط وقوة التمييز ، فقد تستطيع حينئذ أن تقوم بما يعجز عن القيام به أدق الأجهزة ... على أنها في حالاتها العادية قد بلغت في بعض إدراكاتها درجة من الدقة لم يبلغ مثلها بعد أي جهاز صناعي . فهي تدرك إحساسات سمعية كثيرة في آن واحد وتميز بينها ؛ وتستطيع أن تحس فروقا لغوية دقيقة لا يقوى على تسجيلها أحدث جهاز . فقد يبلغ الشخص في إجادة لغة أجنبية درجة لا يستطيع معها أدق الأجهزة أن يسجل فرقا بين نطقه ونطق أبنائها ؛ ولكنه بمجرد أن يلفظ أمام أحدهم كلمات منها يدرك من فورهِ أن المتكلم أجنبي ويحس ما في أصواته من غرابة ومخالفة للألوف . والقرى المتقاربة قد تتقارب لغات أهلها لدرجة لا يقوى معها أي جهاز على تسجيل فرق بينها ؛ ولكن بمجرد أن ينطق أحدهم أمام آخر ببعض كلمات يستطيع السامع أن يدرك إن كان المتكلم من أهل قريته أو من غيرها .

وخير طريقة تسهل على الأذن القيام بوظائفها وتعودها الدقة في إدراكاتها ، أن يأخذ الباحث نفسه بما يسمونه « الكتابة السمعية » ، وذلك بأن يعنى بتدوين الكلمات عقب سماعه لها مباشرة بالشكل الذي يتفق مع الأصوات التي لفظت بها وبدون أن يدع لرسمها العادي أي

أثر على نفسه في أثناء ذلك . ويتطلب هذا النوع من الكتابة حروف هجاء أكثر من حروف الهجاء المصطلح عليها . وذلك أنه في هجائنا العادي لا يوجد لكل صوت إلا حرف واحد ، مع أن هذا الصوت يختلف اختلافا كبيرا في شكله ونبرته وقوته ومدة النطق به ... باختلاف الكلمات والجمل وباختلاف موقعه في الكلمة أو العبارة ، ويختلف النطق به في كل حالة من هذه الحالات باختلاف الأفراد والمناطق ... وهم جرا . وإليك مثلا اللام في الله فإنها تارة ترقق (بالله مثلا) وتارة تفخم (والله وتالله مثلا) ؛ وأحيانا لا يقف اللسان عندها وأحيانا يستمر صوتها مدة طويلة (إذا أراد السامع التأكيد في قسم مثلا) ؛ ولا ينطق بها في القسم كما ينطق بها في غير القسم (فطقك باللام في والله إذا كانت الواو عاطفة ليس كنطقك بها إذا كانت واو قسم) . فينبغي في « الكتابة السمعية » أن يكون لكل شكل من أشكال اللام حرف خاص يرمز إليه . وإليك مثلا آخر حرف الجيم ، فإن النطق به يختلف اختلافا كبيرا باختلاف المناطق والأفراد وباختلاف الكلمات . ففي العالم العربي وحده يوجد عدد كبير من أصوات الجيم : فالجيم المنقلبة عن قاف عربية يختلف النطق بها عن الجيم الأصلية . وكلتا الجيمين يختلف النطق بهما باختلاف المناطق : فلكل من سكان الصعيد وسكان الدلتا والحجازيين واليمنيين والسوريين واللبنانيين والعراقيين والمغاربة ... في نطق كل جيم منهما أسلوب صوتي خاص يختلف عن أسلوب من عداهم . بل إن بلاد المنطقة الواحدة لتختلف أحيانا بهذا الصدد فيما بينها اختلافا غير يسير . فينبغي في « الكتابة السمعية » أن يكون لكل شكل من أشكال الجيم حرف خاص يرمز إليه . وما قلناه في اللام والجيم يصدق على ما عداهما من الحروف .

(الطريقة الثانية) طريقة الأجهزة في دراسة الفونيتيك (علم الأصوات) .

إن عدم دقة الأذن الانسانية في تمييز أنواع الصوت وخصائصه وإدراك نبراته وقياس قوته ومدته، والعوامل الكثيرة المحيطة بها والتي تجعل مدركاتها عرضة للزلل... كل أولئك قد حمل علماء الفونيتيك (دراسة أصوات اللغة) على البحث عن وسيلة أخرى تبرا من كل هذه العيوب، فاهتدوا إلى طريقة الأجهزة. وهي آلات تدار بطرق خاصة فلا تغادر صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بالصوت إلا أحصتها وسجلتها بشكل دقيق مضبوط. وبذلك تستحيل ظواهر الصوت إلى علامات مخطوطة تقاس باليد وتحسبها العين، وتغنى الباحث عن استخدام أذنه وتقيه شر أخطائها، وتعمل بحوثه مبنية على أسس متينة صادقة لا يستطرق إليها الشك ولا يأتيها الباطل.

وترجع الحقائق التي ترشدنا إليها هذه الأجهزة إلى طائفتين مختلفتين: إحداهما تتعلق بطبيعة الأصوات؛ وثانيتها تتعلق بمخارجها. فبالنأمل فيما تسجله هذه الأجهزة من العلامات الممثلة لنبرات الصوت وقوته ومدته... وما إلى ذلك نستطيع أن نقف على طبيعته؛ وبالتأمل فيما ينطبع فيها بصدد الأعضاء التي تلفظه نستطيع أن نقف على مخارجه.

ومن ثم انقسمت طرقهم بهذا الصدد إلى طريقتين لكل طريقة منهما أجهزة خاصة: إحداهما يسمونها طريقة « التدوين المباشر » Inscriptio directe وهي التي نقف بفضلها على مخارج الحروف؛ وثانيتها يسمونها « طريقة العلامات Méthode Graphique » وهي التي نقف بفضلها على طبيعة الصوت.

أما طريقة « التدوين المباشر » فترمى إلى الوقوف على الأعضاء التي

تشارك في لفظ صوت ما وانتقالات كل عضو منها في أثناء لفظه ، عن طريق أجهزة ترك فيها هذه الأعضاء وهذه الانتقالات أثراً مباشراً . وهذه الأجهزة كثيرة متنوعة ، منها « السقف الصناعي » وهو آلة على شكل سقف الحلق يغطي ظاهرها بطبقة من الحكك أو ما شاكله ، وتركب في الفم بحيث يكون باطنها ملصقاً بسقف الحلق ، ويطلب إلى الشخص النطق بحرف من الحروف التي يشارك في لفظها اللسان وسقف الحلق . فعندما يتصل لسانه بسقف حلقه يترك في المادة الجيرية أثراً . ومن هذا الأثر وموضعه من الجهاز يتبين للباحث بشكل مضبوط المكان الذي يلتقي فيه اللسان بسقف الحلق في أثناء النطق بهذا الحرف . وأما طريقة العلامات فهي أهم كثيراً من الطريقة الأولى وأعظم منها فائدة وأكبر أثراً في تقدم هذا العلم . وهي ترمي إلى الوقوف على طبيعة الصوت أي على خواصه ومميزاته من حيث نبراته وقوته ومدته ... وما إلى ذلك ، عن طريق أجهزة تحس هذه الخواص وتسجلها بعلامات وخطوط دقيقة الدلالة بهذا الصدد . وذلك أنه بالتأمل في هذه الخطوط وقياسها والنظر في اتجاهاتها نستطيع أن نقف بطريقة مضبوطة على مختلف الخواص المميزة للصوت الذي نختبره وعلى مبلغ كل خاصية منها ودرجتها .

وكل جهاز من هذه الأجهزة يشتمل على ثلاثة أجزاء :

١ - الكاشف Explorateur ، ويوضع على العضو الذي يراد دراسة حركته في أثناء النطق للوقوف على خاصية من خواص الصوت ، ويختلف شكل الكاشف وتركيبه باختلاف الأعضاء التي يوضع عليها وهو مصنوع بطريقة تجعله يحس إحساساً دقيقاً كل ما يقوم به العضو من حركة مهما كانت ضئيلة .

٢ - المدوّن Inscripteur ، وهو على شكل قلم متصل بالكاشف ،

يتحرك حركات معينة تبعا لحركات العضو التي يحسها الكاشف، ويخط في أثناء تحركه خطوطا تمثل في اتجاهاتها وأطوالها وأشكالها، حركات العضو.

٣ - السجل Enregistreur، وهي اسطوانة تدور حول محورها يخط عليها المدون الخطوط السابق ذكرها.

ولكل جهاز من هذا النوع نظام خاص في سيره وتركيبه وحل رموزه. ويستخدم عدد كبير من هذه الأجهزة في وقت واحد في أثناء النطق؛ فيوضع جهاز على الرئة وآخر على القلب وثالث على القصبة الهوائية ورابع على الحنجرة وخامس على الأنف وسادس على الفم... وهلم جرا. فعلى ضوء الخطوط التي تظهر في سجلات هذه الأجهزة نستطيع - بعد قياسها وحل رموزها - أن نقف على مختلف خواص الصوت الذي نجري عليه الاختبار وأن نصفه وصفا دقيقا لا لبس فيه ولا إبهام.

هذا، وقد شاع تسمية البحوث القائمة على طريقة الأجهزة باسم «الفونيتيك» التجريبي «Phonétique Expérimentale» أي دراسة الصوت دراسة تجريبية. ولكن هذه التسمية غير صحيحة؛ لأننا لسنا بصدد تجارب أي تغيير الظروف العادية المحيطة بالظاهرة أو بالشخص الملاحظ بل بصدد ملاحظة في ظروف طبيعية عادية، ولكن عن طريق أجهزة ومسجلات آلية لا عن طريق الأذن والحواس الانسانية.. - حقا إن الباحث قد يلجأ أحيانا إلى التجربة أي إلى تغيير الظروف المحيطة بالظاهرة أو بالشخص الملاحظ؛ ولكن هذا لم يحدث إلا في حالات نادرة لم نحصل منها على نتائج ذات بال. ومهما يكن من شيء، فلم تكن التجارب هي الغرض الأساسي الذي دعا إلى اختراع الأجهزة وليست هي الغرض الأساسي الذي يدعو إلى استخدامها؛ وإنما أهم ما قصد من اختراعها وما

يقصد من استعمالها هو ملاحظة الظواهر عن طريقة آلة دقيقة ، لا عن طريق الأذن التي كثيرا ما تضلل الباحثين .

وقدم هذا الأسلوب من البحوث العلامة ماري Marey باستخدامه أجهزة من هذا القبيل في « الفيزيولوجيا » (علم وظائف الأعضاء) . ولكن أول من استخدمه في الظواهر اللغوية هو الاستاذ روسلو Rousselot ، وكان ذلك عام ١٨٩٠ . وهو الذي أطلق على البحوث القائمة على هذه الطريقة اسم « الفونيتيك التجريبي » أي « علم الصوت التجريبي » . ويلتمس له العذر في إطلاق هذا الاسم الخاطيء . ففي عصره كانت تطلق كلمة « التجريبي » على كل ما تستعمل فيه الأجهزة ولو لم يكن للتجارب حظ فيه .

(الطريقة الثالثة) الطريقة التجريبية .

تقوم هذه الطريقة - كما أشير إلى ذلك فيما سبق - على تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية ما أو المحيطة بالشخص الذي تجرى عليه الملاحظة ، بحيث يمكننا الوقوف من طريق سهل مختصر مأمون العواقب ، على ما يتعذر الوقوف عليه في الظروف العادية أو على ما يقتضينا الوقوف عليه في الظروف العادية إسرافا في الوقت والمجهود .

وعلى هذه الطريقة تعتمد طائفة كبيرة من العلوم الطبيعية كالطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي وما إلى ذلك . فأهم ما كشفه الباحثون في هذه العلوم يرجع الفضل فيه إلى الطريقة التجريبية . ولو أنهم اقتصروا على ملاحظة الظواهر في حالاتها العادية لما وصلوا إلى عشر معشار ما وصلوا إليه . فعالم الطبيعة مثلا لا يكتفى فيما يتعلق بالجذب والكهربائية والمغناطيسية والضغط الجوي . . . وما إلى ذلك بملاحظة ظواهرها في

حالاتها العادية ولا ينتظر حتى تحدث الظاهرة التي يريد دراستها ، بل يخلقها خلقاً في معمله ويغير من الظروف المحيطة بها ويختبر النتائج التي تنجم عن تجاربه ؛ وعلى ضوء هذا كله يصل إلى كشف القوانين الخاضعة لها في مختلف أحوالها وأوضاعها .

أما العلوم الإنسانية ، فلم تنتشر فيها هذه الطريقة انتشاراً كبيراً ، ولم يتجاوز استخدامها فيها دائرة ضيقة ، وذلك أن معظم الظواهر التي تدرسها العلوم الإنسانية لا تواتر فيها طريقة التجارب ، فليس في طاقة الباحث أن يخلق مثلاً نظاماً من النظم الاجتماعية ويحوّر فيه وفي الظروف المحيطة به وينظر إلى النتائج التي تنجم عن كل حالة من حالاته كما يفعل هذا حيال ظاهرة كهربائية أو ظاهرة جذب أو حيال نبات أو حيوان .

ولكن هذا لم يثن الباحثين في العلوم الإنسانية عن الانتفاع بهذه الطريقة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . فاستخدمت أولاً في علم النفس ، وشاع استخدامها فيه حتى أصبحت الآن معظم الظواهر النفسية ، من حفظ وذاكرة وانتباه وتداعي معان . . . وما إلى ذلك ، تدرس على النحو التجريبي الذي تدرس به ظواهر الطبيعة . ثم أخذ استخدامها منذ عهد قريب ينتشر في العلوم الاجتماعية وخاصة علم اللغة .

وقد صادفت ميدانا فسيحا في شعبة « الفونيتيك » . فلم يكتف الباحثون في هذه الشعبة بملاحظة الظواهر اللغوية في ظروفها العادية ، بل لجئوا في مواطن كثيرة إلى التجارب أي إلى خلق هذه الظواهر وإثارتها وتغيير أوضاعها والظروف المحيطة بها وبالأشخاص الذين تجرى عليهم الملاحظة . ووصلوا بفضل هذه الطريقة - على الرغم من قرب العهد بها - إلى كثير من النتائج القيمة بصدد العلاقة بين اللفظ والسمع ، وأخطاء الأذن ، والفرق بين الأصوات الغنائية والأصوات

الكلامية ، واختلاف النطق بالحروف باختلاف الأمم والمناطق
وباختلاف الأعمار ، وتعلم اللغات الأجنبية ، وكسب الطفل للغة ،
وتعلم الصم الكلام وهم جرا . وينتظر أن يتسع نطاق هذه الطريقة
في المستقبل وأن يصل الباحثون على ضوءها إلى حل كثير من المشاكل
الصوتية التي لا تزال قائمة إلى الآن .

وقد يصحب التجربة في هذه الشعبة استخدام الأجهزة كما تقدمت
الإشارة إلى ذلك . ولكن هذا ليس ضروريا . فالطريقة التجريبية
تتحقق في كل حالة يحاول فيها الباحث تكوين ظاهرة لغوية أو إثارتها
ولولم يستخدم في ذلك أى جهاز صناعى ؛ كأن يطلب إلى الشخص
الذى تجرى عليه الملاحظة أن ينطق بكلمة ما ، أو يغير من أوضاع
حروفها ويطلب إليه النطق بها ، أو ينطق بها أمامه ويطلب إليه تكرار
ما سمعه ... وهم جرا .

واستخدمت هذه الطريقة كذلك في الظواهر اللغوية المتعلقة
بالدلالة (السيمنتيك)؛ ووصل بفضلها العلماء إلى نتائج ذات بال وبخاصة
في دراسة اللهجات واللغات العامية (الدياليكتولوجى) . فلم يكتف
الباحثون في هذه الناحية بملاحظة الأشخاص وهم يتحدثون في
حالاتهم العادية ، بل لجئوا كذلك إلى التجارب أى إثارة الظواهر
اللغوية وتوجيهها في النواحي التي تتيح لهم الوقوف على حقيقة أو
استنباط قانون .

ومن الواضح أن تجارب هذه الشعبة لا مجال فيها لاستخدام
الأجهزة . فمادة التجارب فيها لا تتجاوز الأسئلة والأجوبة ، ووسائل
إصدار الظواهر وتسجيلها وملاحظتها لا تتجاوز أعضاء الجسم والقوى
العقلية . وذلك بأن يطلب الباحث مثلا إلى الشخص الذى تجرى عليه
الملاحظة أن يعبر عن معنى أو يصف منظرا ، أو يذكر له كلمة ويطلب

إليه ذكر مترادفاتهما ، أو يريه شيئاً ويطلب إليه بيان اسمه أو أسمائه في لغته ، أو يعمل عملاً ويطلب إليه التعبير عما يدل عليه ، أو ينطق أمامه بجملة صحيحة ويطلب إليه تفسيرها بلغته العامية ، أو بجملة خاطئة ويطلب إليه أن يرشده إلى ما فيها من نقص بصدد الدلالة . . . وهلم جرا . هذا ، ولم يتح للطريقة التجريبية من ظروف النجاح والانتشار في علم اللغة ما أتىح لغيرها ، فهي لا تزال تسير فيه بخطى بطيئة ؛ بل لا يزال بعض علمائه ينظرون إليها بعين الريية ولا يثقون كل الثقة بما تصل إليه من نتائج . وذلك أنهم يرون أن تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية قد يخرج بها عن طبيعتها ويصورها في غير صورتها الحقيقية فيتعرض الباحث للخطأ في الحكم إذ يلتبس عليه الطبيعي بالمصطنع .

ورأيهم هذا ، على ما فيه من مبالغة في الشك ، يرشدنا إلى ما يحف بهذه الطريقة من أخطار وإلى وجوب استخدامها بقصد وحرص ، واتخاذ أقصى ما يمكن اتخاذ من وسائل الحيطة لاتقاء الزلل واللبس والتمييز بين الطبيعي والمصطنع من أعمال الأفراد الذين تجرى عليهم التجارب .

(الطريقة الرابعة) طريقة قياس الغابر على الحاضر .

ترشدنا الملاحظة إلى كثير من التطورات التي اعتورت اللغات القديمة في مختلف مظاهرها . فقد اختلفت كل واحدة منها في أصواتها ودلالاتها وقواعدها وأساليبها . . . باختلاف عصورها وباختلاف الأمم الناطقة بها . ومن الواضح أن عالم اللغة لا يقنع بتسجيل هذه التطورات ووصفها وصف المؤرخ الأمين ، بل يبحث كذلك عن أسبابها ويعمل على كشف العوامل التي أدت إليها .

ولما كان من الصعب الاهتداء بشكل مباشر إلى هذه الأسباب والعوامل لتعلقها بظواهر قد تقادم عليها العهد ، استخدم العلماء للوصول

إليها طرقاً غير مباشرة . ومن هذه الطرق « طريقة قياس الغابر على الحاضر ، فللوقوف على أسباب مظهر من مظاهر التطور في لغة قديمة يبحثون عن تطور مشبه له في اللغات الحديثة ويدرسون أسبابه (وأسباب التطورات الحديثة لا يحتاج كشفها إلى كبير عناء لوضوح أثرها وقرب العهد بها) ثم ينظرون إلى أي مدى يمكن أن تكون أسباب التطور القديم مشبهة لهذه الأسباب .

واستخدام هذه الطريقة في تطورات الدلالة (السيمنتيك) محفوف بالآخطار وعرضة للزلل . وذلك أن العوامل التي تؤدي إلى تطور اللغة في معاني كلماتها وقواعدها وأساليبها . . . قلما تتحد في عصرين أو في لغتين . لأن معظمها يرجع إلى ظواهر اجتماعية وتاريخية وسياسية وجغرافية وثقافية . . . وهلم جرا . ومن الواضح أن هذه الطائفة من العوامل لا يمكن أن تتكرر بشكل واحد ولا أن تتحد نتائجها في عصرين أو في أمتين . فمن المجازفة إذن أن نعزو تطوراً دلالياً حدث في لغة قديمة إلى عوامل مماثلة للعوامل التي أحدثت تطوراً يشبهه في لغة حديثة .

أما فيما يتعلق بالناحية الصوتية من اللغة (الفونيتيك) فلا ضير من استخدام هذه الطريقة . وذلك أن التطورات الصوتية يرجع معظمها إلى أمور تتعلق بأعضاء النطق ، وطريقة أدائها لوظيفتها ، وتأثيرها بالظواهر الجغرافية ، وأساليب انتقالها بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع . . . وما إلى ذلك . وعوامل هذه طبيعتها قلما تختلف آثارها باختلاف العصور والأمم . فعلى ضوء العوامل التي أدت إلى تطور صوتي في لغة حديثة ، نستطيع أن نصل إلى كشف العوامل التي أدت إلى تطور مشبه له في لغة قديمة

(الطريقة الخامسة) Méthode Comparative طريقة الموازنة

تقوم هذه الطريقة على الموازنة بين الظواهر اللغوية في طائفة من اللغات لاستنباط خواصها المشتركة، وللوقوف على وجوه الاتفاق والخلاف في عواملها ونتائجها، وللوصول من وراء هذا كله إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها في مختلف مظاهرها.

ومع أهمية هذه الطريقة في دراسة علم اللغة، ومع أن العلماء قد وصلوا بفضلها إلى معظم ما وصلوا إليه من حقائقه، فإنها كثيراً ما تكون عرضة للزلل والانحراف عن جادة الصواب. غير أن معظم الأخطاء بهذا الصدد لا يرجع في الحقيقة إلى الطريقة ذاتها وإنما يرجع إلى سوء استخدامها، وخاصة إلى نقص الاستقرار والتسرع في صوغ القوانين العامة. فقد يلاحظ الباحث مثلاً بصدد ظاهرة لغوية أنها قد حدثت في طائفة من اللغات على أثر بعض أمور، فيتمجّل بوضع قانون عام يقرر فيه أن هذه الظاهرة نتيجة لازمة لهذه الأمور وحدها. مع أن الواقع قد يكون غير ذلك. فقد لا يكون بين هذه الظاهرة وتلك الأمور علاقة سبب بمسبب، وقد يظهر له إذا اتسع نطاق استقراره أن الأمر بينهما لا يعدو مصاحبة اتفق حدوثها في بعض اللغات، وأن هذه الأمور قد حدثت في لغات أخرى بدون أن تحدث هذه الظاهرة، أو أن الظاهرة قد حدثت أحياناً بدون أن تسبقها هذه الأمور. - وقد يبدو له مثلاً أشابه في بعض الكلمات في لغتين فينتسرع في الحكم عليهما بأنهما من فصيلة واحدة. مع أن الواقع قد يكون غير ذلك؛ فقد يكون سبب الاتفاق أن إحداهما قد اقتبست هذه الكلمات اقتباساً من الأخرى مع انتمائهما إلى فصيلتين مختلفتين؛ كما اقتبست السريانية عدداً كبيراً من الكلمات الإغريقية، مع أن السريانية من فصيلة اللغات السامية والإغريقية من فصيلة اللغات الهندية - الأوروبية؛ وكما اقتبست الفارسية الحديثة كلمات كثيرة من

العربية ، مع أن أولاهما من اللغات الآرية وثانيتها من اللغات السامية؛
وكما اقتبست التركيبية قسماً كبيراً من متن لغتها من العربية والفارسية ، مع
أنها من فصيلة غير فصيلتي العربية والفارسية ، وهي الفصيلة التتارية .

(الطريقة السادسة) الطريقة الاستنباطية *Méthode d' Induction* .

تستخدم هذه الطريقة للوقوف على علل الظواهر ونتائجها اللازمة
ولكشف علاقة السببية بين ظاهرتين أو أكثر .

وقد قسمها ستورت ميل إلى أربع طرق سماها طرق الاستنباط ،
ووضع لكل منها ضابطاً أو قانوناً خاصاً بها ، وهي :

طريقة التلازم في الوقوع *Méthode de Concordance* وهي التي
يحكم بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى إذا ثبت بالمشاهدة أنه
كلما وقعت الأولى وقعت الثانية .

وطريقة التلازم في التخلف *Méthode de différence* ، وهي التي
يحكم بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى إذا ثبت بالمشاهدة أنه
إذا لم تقع إحداها لم تقع الأخرى .

وطريقة التلازم في التغير *Méthode des Variations concomittantes*
وهي التي يحكم بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى إذا ثبت
بالمشاهدة أنه كلما حصل تغير في إحداها صحبه تغير في الأخرى بنفس
النسبة والقدر .

وطريقة البواقي *Méthode des Résidus* وهي التي يحكم بمقتضاها على
حادثة من مجموعة حوادث بأنها علة لناحية من ظاهرة ما إذا ثبت علمياً
التلازم بين مجموعة الحوادث وجميع نواحي الظاهرة وثبت كذلك أن
ما عدا هذه الحادثة من المجموعة علة لما عدا هذه الناحية من الظاهرة .
ولا يدخل في نطاق بحثنا شرح هذه الطرق ومناقشتها وبيان مدى

صحة كل منها؛ فهذا كله موضعه كتب المنطق. والذي يهمننا تقريره هو أنه على الرغم من شيوع استخدام هذه الطرق في العلوم الطبيعية للوقوف على علل الظواهر ونتائجها اللازمة ولكشف العلاقات التي تربط بين ظاهرتين أو أكثر؛ فإن علماء اللغة لم يستخدموها لهذه الأغراض إلا في حالات قليلة. وذلك أنه قد تبين لهم أن الطرق الثلاثة الأخيرة ليست مطردة الصحة في الظواهر اللغوية^(١). فاقصروا على استخدام الطريقة الأولى وهي «طريقة التلازم في الوقوع». فعند محاولتهم الوقوف - عن طريق الاستنباط - على العلاقة بين ظاهرتين لغويتين، أو ظاهرة لغوية من جهة وظاهرة اجتماعية أو نفسية أو فيزيولوجية... من جهة أخرى، لا ينظرون إلا إلى مبالغ التلازم في وقوعهما؛ فيستقرئون الحالات التي تبدو فيها كلتا الظاهرتين، فإذا تبين لهم أنه في كل حالة تبدو فيها إحداهما تظهر الأخرى حكموا على اللاحقة منهما بأنها نتيجة لل سابقة.

- ١٠ -

تاريخ البحوث اللغوية

عرضنا في الفقرات السابقة لعلم اللغة في وضعه الأخير، وسنتكلم بإيجاز في هذه الفقرة عن المراحل التي اجتازتها البحوث اللغوية حتى وصلت إلى هذا الوضع، مقسمين موضوعنا إلى قسمين: أحدهما خاص بتاريخ هذه البحوث في الغرب؛ وثانيهما خاص بتاريخها في الثقافة العربية:

تاريخ البحوث اللغوية في الغرب

ظلت البحوث اللغوية عند أمم أوروبا، حتى أواخر القرن الثامن

(١) يرجع هذا إلى أسباب كثيرة لا يقع المقام لتفصيلها.

عشر الميلادي محصورة في دائرة ضيقة لا تعدو كثيراً مسائل علوم البنية والتنظيم والأسلوب (المورفولوجيا والسنتكس والبستيلستيك) في أشكالها التعليمية^(١).

فلم يكن معظم العلماء ليعرضوا لغير هذه البحوث الثلاثة إلا استطراداً وفي صورة ناقصة وبطريقة تبعد كثيراً عن مناهج البحث العلمي : فمن ذلك بعض نظرات في أصوات اللغة (الفونيتيك) وردت في مؤلف لكورديموا Cordemoy ظهر عام ١٦٦٨ ؛ وبعض ملاحظات وتجارب على الصوت قامت بها المدارس المنشأة في القرن الثامن عشر لتعليم الصم البكم ؛ وبعض آراء لسانت أوجيستان Saint Augustin بصدت تطور اللغة ؛ وبعض آراء في أصول الكلمات الفرنسية والاطالية والاسبانية (إيتيمولوجيا)^(٢) لكلود فوشيه Claud Fauchet وجوشيم بيرون Joachin Périon وهنري إستيان Henri Estienne وميناج Ménage (الذي ألف سنة ١٦٥٠ معجماً في أصول الكلمات الفرنسية) وأودان Oudin وابنه ؛ وبعض بحوث لغوية عامة وخاصة قامت بها الأكاديميات (المجامع اللغوية) التي أنشئت في صدر العصور الحديثة كالأكاديمية الفرنسية والأكاديمية الاسبانية وأكاديمية فلورنسا (أكاديمية كروسكا Crusca) وغيرها وقام بها مؤلفو المعاجم الكبيرة ودوائر المعارف في هذا العصر .

وتمت مظهر آخر لضيق البحوث اللغوية في هذه المرحلة ، وذلك أنها كانت مقصورة على اللغتين الإغريقية واللاتينية وبعض اللغات الأوربية الفصحى . فلم يكن للهجات الشعبية ولا لغير اللغات الأوربية

(١) انظر صفحات ٧ - ١٠ .

(٢) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ١٠ رقم ٥ .

في هذه المرحلة الطويلة حظ ما من الدراسة (١) .

وفي أواخر القرن الثامن عشر حدث هذا الصدد نهضة كبيرة يرجع معظم الفضل فيها إلى كشف اللغة السنسكريتية Sanscrit وخل رموزها ، فقد أزاح هذا الكشف الستار عما بين اللغات الهندية والإيرانية من جهة واللغات الإغريقية واللاتينية والجرمانية من جهة أخرى من تشابه وصلات قرابة وروابط وثيقة ، ومهد السبيل لإنشاء علوم القواعد التاريخية والمقارنة (٢) ، ووسع بذلك نطاق الدراسات اللغوية .

وكان من أشهر من افتتح هذه السبيل العلامة الألماني شليجيل Schlegel . فقد نبه أذهان العلماء إلى صلات التشابه الكثيرة التي تربط اللغات الأوروبية والهندية والآرية بعضها ببعض : تلك اللغات التي رجعها العلماء من بعده إلى فصيلة واحدة سموها «الفصيلة الهندية - الأوروبية» كما سيأتي بيان ذلك (٣) .

ومن ذلك الحين أخذ العلماء يدرسون هذه الفصيلة دراسة علمية عميقة ويكشفون عما بين أفرادها من تشابه في أصول الكلمات وفي قواعد الصرف والاشتقاق والتنظيم ، فبلغوا بعلم «القواعد المقارن» شأواً راقياً . وكان من أنه أفراد هذه الحلبة ذكراً وأجلهم أثراً في هذه النهضة عالمان ألمانيان هما بوب Franz Bopp (٤) وجريم Jacques Louis Grimm (٥) .

(١) بل إن هذه اللهجات كانت محاربة ومعدودة من مصادر الخطر على الأدب . وقد بلغ العداء لهذه اللهجات مبلغاً كبيراً في فرنسا ، فقد عمدت الجمعية الوطنية Convention Nationale التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية إلى إلاب جريجوار (أحد أعضائها) عام ١٧٩٤ أن يقدم تقريراً عما ينبغي اتخاذه للقضاء على اللهجات الصعيدية الفرنسية وتعميم اللغة الفصحى .

(٢) انظر صفحات ٧ - ٩ .

(٣) انظر فصل « فصول اللغات » .

(٤) ولد بباينس Mayence عام ١٧٩١ وتوفي عام ١٨٦٧ . - ومن أشهر مؤلفاته كتاب « القواعد المقارنة للغات الهندية - الأوروبية » . -

(٥) هو أول من كتب في الفيلولوجيا الجرمانية ولد عام ١٧٨٥ وتوفي عام ١٨٦٣ .

وقد مهدت بحوث علم القواعد المقارن « السبيل إلى بحوث « علم القواعد التاريخي ». فانتقل العلماء من الموازنة بين اللغات الهندية الأوروبية إلى الموازنة بين مظاهر كل لغة منها في مراحلها المختلفة ، ومن البحث في تفرع هذه اللغات بعضها من بعض وتفرعها عن أصل واحد إلى البحث في الطريقة التي تسلكها كل لغة منها على حدتها في تطورها وارتقائها من جميع نواحيها وبخاصة من ناحية قواعدها . - وكان من أشهر من افتتح هذا السبيل جاك لويس جريم السابق ذكره وديز Friedrich Diez^(١) وبراشيه August Brachet^(٢) . - وقد استمدت هذه الدراسات اللغوية بعض موادها من بحوث في آداب اللغات الأوروبية بالعصور الوسطى ، قام بها قبيل ذلك العصر وفي أثنائه جماعة من مؤرخي الأدب ، من أشهرهم پولان باريس Paulan Paris^(٣) ورينوآر François Reynouar^(٤) .

ثم انتقل البحث من هذه الدائرة الخاصة المقصورة على اللغات الهندية - الأوروبية إلى دائرة عامة ترمى إلى كشف القوانين التي تخضع لها كل لغة إنسانية في تطورها وارتقائها من حيث أصواتها وقواعد تصريفها ... وما إلى ذلك . وقد افتتح هذه الحلقة العلامة الألماني ماكس

- (١) فردريك ديز من أشهر علماء الفيلولوجيا الألمان ، ولد عام ١٧٩٤ وتوفي عام ١٨٧٦ . -
ومن أشهر مؤلفاته « معجم في أصول مفردات اللغات الرومانية » و « قواعد اللغات الرومانية »
(واللغات الرومانية Languss Romanes هي اللغات المتفرعة من اللاتينية) .
- (٢) ولد بتور من أعمال فرنسا سنة ١٨٤٤ وتوفي بها سنة ١٨٩٨ . وكان أستاذاً للفيلولوجيا بمعهد الدراسات العليا بفرنسا . ومن أشهر مؤلفاته : « بحث في القواعد التاريخية للغة الفرنسية » و « معجم في أصول كلمات اللغة الفرنسية » .
- (٣) ولد عام ١٨٠٠ وتوفي عام ١٨٨١ - وله مؤلفات جليلة في آداب اللغة الفرنسية بالصور الوسطى .
- (٤) ولد عام ١٧٦١ وتوفي عام ١٨٣٦ - وله بحوث قيمة في آداب اللغة الفرنسية بالصور الوسطى .

مولر Max Muller ^(١) وتبعه كثيرون من أشهرهم العلامة الإنجليزي سيس Archibald - Henry Sayce ^(٢) .

وقد كان لزاماً أن يصل العلماء في تعقبهم لأصول اللغات ومراحل ارتقائها إلى أقدم مرحلة للتعبير الإنساني، وأن يحاولوا الكشف عن منشأ اللغة في الفصيلة الإنسانية وعن الأسس الأولى التي قام عليها التخاطب بالأصوات ذات الدلالات الوضعية. وقد استأثرت هذه المشكلة بتمسك كبير من نشاطهم في منتصف القرن التاسع عشر، وانقسموا بصدد هذا إلى فرق كثيرة سيأتي الكلام عنها في الفصل الأول من هذا الكتاب. - ومن أشهر من عرض لهذا الموضوع الفيكونت دو بونالد Vicomte de Bonald ^(٣) وماكس مولر، وسيس-ورينان Renan ^(٤).

(١) ولد ببلدة ديسو Dessau من أعمال ألمانيا عام ١٨٢٣ وتوفي باكسفورد عام ١٩٠٠ . وهو ابن الشاعر غايوم مولر ، تخرج من جامعة ليزج وبرلين ، ثم رحل إلى باريس حيث حضر دروس الأستاذ بورنوف Burnouf في اللغة السنسكريتية . ثم ذهب إلى إنجلترا واستقر باكسفورد حيث عين أستاذاً بجامعة الآداب واللغات الحديثة ثم أستاذاً للقواعد المقارنة . ومن أشهر مؤلفاته «دروس في علم اللغة» ظهر عام ١٨٦١ و «دروس حديثة في علم اللغة» ظهر عام ١٨٦٤ . وكان لهذين الكتابين شأن كبير في القرن السابق . وله كذلك مؤلفات كثيرة في الأديان وتاريخها .

(٢) ولد ببلدة شيرهمتون Shirehpton بجوار مدينة بريستول Bristol عام ١٨٤٦ . وقد خلف ماكس مولر في تدريس القواعد المقارنة بجامعة أكسفورد . وله نظريات ومؤلفات كثيرة في هذا العلم من أشهرها : «أصول الفيلولوجيا المقارنة» و «مقدمة في علم اللغة» . - وقد كانت كذلك من شهيرى المستشرقين ، وله عدة مؤلفات في كثير من اللغات السامية وبخاصة اللغة الآشورية القديمة .

(٣) اسمه لويس جيرائيل امبرواز Louis - Gabriel - Ambroise ولد بمدينة ميلو Millau من أعمال فرنسا عام ١٧٥٤ وتوفي بها عام ١٨٤٠ . وله مؤلفات كثيرة في السياسة والفلسفة . وكان من أكبر أنصار الحكومة الملكية الخاضعة للنفوذ الديني الكاثوليكي .

(٤) ارنست رينان Ernest Renan من أشهر المؤرخين والفلاسفة وعلماء اللغة الفرنسيين في القرن التاسع عشر ، ولد ببلدة تريجيه Tréguier عام ١٨٢٣ وتوفي بباريس عام ١٨٩٠ . درس اللاهوت واللغات العبرية واليونانية والفلسفة والآداب ، وتولى تدريس اللاهوت واللغة العبرية والتاريخ والفلسفة في كثير من المعاهد ، وعين عضواً بالأكاديمية الفرنسية ومديراً لكلية دو فرانس Collège de France وله نحو خمسين مؤلفاً كبيراً في التاريخ العام وتاريخ الديانات وفي اللغات والأخلاق والفلسفة واللاهوت والسياسة وغيرها . وقد كان لمؤلفاته أكبر أثر في الثقافة الفرنسية بالقرن التاسع عشر . ومن أشهر كتبه في اللغات : «تاريخ اللغات السامية» و «منشأ اللغة» .

وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهر عند المشتغلين بالبحوث اللغوية اتجاهان هامان كان لكل منهما أثر كبير في النهوض بهذا العلم:

(الاتجاه الأول) جعل البحوث اللغوية بحوثاً علمية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، وذلك بإخضاعها لمناهج البحث العلمي، وتوجيهها إلى نفس الأغراض التي ترمى إليها العلوم، وجعل غايتها الأساسية الوصول إلى كشف القوانين الخاضعة لها الظواهر اللغوية^(١)، وتخليصها من جميع المسائل الفلسفية التي لا يتفق منهج البحث فيها مع ما ينبغي أن تكون عليه مناهج البحث في العلوم والتي لا يمكن الوصول فيها إلا إلى فروض وآراء ظنية لا تسمو إلى درجة اليقين ولا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمي.

وقد كان لهذا الاتجاه آثار جليلة في مختلف فروع هذا العلم. فبفضله وضحت حدود كل فرع منها ومناهجه، وهذبت أساليبه وطرق دراسته واجتذب إليه عدداً كبيراً من أعلام الباحثين؛ فكثر الإنتاج ورقى نوعه. وكان من آثاره كذلك أن انصرف العلماء عن البحث في موضوع نشأة اللغة وتركوا دراسته للفلاسفة والميتافيزيقيين (الباحثون فيما وراء الطبيعة)^(٢).

ويرجع الفضل في توكيد هذا الاتجاه إلى مدرسة ألمانية الأصل أطلق على أفرادها اسم «المحدثين من علماء القواعد Néo-grammariens». فقد ذهبت هذه المدرسة إلى «جبرية» الظواهر اللغوية، فقررت أن هذه الظواهر لا تسير وفقاً لإرادة الأفراد والمجتمعات أو تبعاً للاهواء والمصادفات، وإنما تسير وفقاً لقوانين لا يستطيع الفرد ولا الجماعة إلى تعويقها أو تغييرها سبيلاً، ولا تقل في ثباتها وصرامتها واطرادها

(١) انظر صفحات ١٦، ١٧، ٢٠، ٢٨.

(٢) انظر صفحتي ٦٠٥.

وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك والطبيعة (١)؛ وأن واجب الباحث في هذه الظواهر ينبغي أن ينحصر في تحليلها لكشف القوانين الخاضعة لها. ومن أشهر أفراد هذه المدرسة ليسكين Leskien وبروجمان Brugmann وأستوف Ostoff وهرمان بول Hermann Paul ودلبريك Delbrück .

وقد لقي مذهبهم هذا في مبدأ أمره مقاومة كبيرة من طوائف كثيرة وبخاصة من ثلاث طوائف :

أحداها « المدرسة الإيطالية » التي كان العلامة أسكولي Ascoli من أبرز أعضائها ، فقد ذهبت هذه المدرسة في تحليل كثير من الظواهر اللغوية مذهباً يختلف عن آراء المحدثين من علماء القواعد ؛ ولا يتفق في بعض مظاهره مع القول بجبرية الظواهر اللغوية .

وثانيها « المدرسة الإنجليزية » التي كان الاستاذان سيس Sayce وسويت Sweet الإنجليزيان والعلامة جيسپرسن Jespersen الدانيمركي من أظهر ممثليها . فقد أنكرت هذه المدرسة جبرية الظواهر اللغوية وذهبت إلى أن جميع هذه الظواهر بما في ذلك التطورات الصوتية نفسها ترجع أهم أسبابها إلى أمور يقوم بها بعض الأفراد وتنتشر عن طريق التقليد (٢) . - ولعل هذه المدرسة قد تأثرت فيما ذهبت إليه بنظرية العلامة الفرنسي جبرائيل تارد Tard الذي يذهب إلى أن جميع الظواهر

(١) انظر توضيح ذلك بصفحات ١٩ - ٢٣ .

(٢) انظر كتاب الاستاذ سيس Sayce « أصول الفيلولوجيا المقارنة » Principles of Comparative Philology وكتابي سويت Sweet « تاريخ اصوات اللغة الإنجليزية » An History of English Sounds و « الدراسة العملية للغة » The Practical Study of Language ، وكتابي جيسپرسن Jespersen : « تطور اللغة » The progress of Language و « اللغة : طبيعتها وتطورها ومنشؤها » .Language : its nature, development and origin .

الاجتماعية فردية المنشأ وتصبح اجتماعية عن طريق التقليد (١) .
 وثالثها طائفة يمثلها العلامة الفرنسي بريال Bréal . فقد سلمت
 هذه الطائفة ، مع شيء من التحفظ ، بمذهب « الجذرية » فيما يتعلق
 بظواهر الصوت (موضوع الفونيتيك) . ولكنها خالفت هذا المذهب
 فيما يتعلق بظواهر الدلالة (موضوع السيمينتيك) ، فذهبت الى أن كل
 التغييرات التي تحدث في مدلولات اللغة هي عبارة عن إصلاحات
 مقصودة أو شبه مقصودة تعتمد على جهود يقوم بها الناطقون بهذه
 اللغة وتسير بها دائما إلى حيث الكمال ، وأن من أهم هذه الجهود ما يبذله
 الادباء والكتاب في كل عصر للنهوض باللغة (٢) .

(والأجاء الثاني) التخصص في دراسة فرع واحد أو بعض
 مسائل من فرع من بحوث اللغة . ولذلك انصرف المحدثون من
 علماء اللغة عما كان يحاوله القدامى من معالجة جميع المسائل ، وآثر كل
 منهم التفرغ لناحية من البحوث اللغوية . وكان لهذا الاتجاه فضل كبير في
 النهوض بمختلف شعب هذا العلم .

ومن بين هذه الشعب خمس اتسع نطاق البحث فيها اتساعا كبيرا في
 هذا العصر ، وتخصص في دراستها كثير من العلماء ، واستأثرت بقسط
 وافر من نشاطهم ، فوصلت إلى شأو عظيم في النضج والكمال بعد أن لم
 تكن شيئا مذكورا في المراحل السابقة . وهي « الفونيتيك » Phonétique
 أو دراسة الأصوات (٣) ، و« الدياليكتولوجيا » Dialectologie أو دراسة

(١) انظر كتابه قوانين التقليد Lois de L' Imitation .

(٢) انظر كتاب الاستاذ بريال : « بحث في السيمينتيك » Essais de Sémantique والاذ
 بريال هو أول من سمي هذه الشعبة باسم السيمينتيك . - وسنقدم هذه النظريات جميعها بتفصيل في
 مؤلفنا .

(٣) انظر صفحت ٦ (رقم ٣) ، ٢٢٠ (رقم ٥) ، ٣٩ - ٤٨ . - وسنقف فصلا خاصا
 على دراسة هذه الشعبة .

اللغات الشعبية العامية^(١)، و«السيكولوجيا اللغوية» Psychologie Linguistique أو علم النفس اللغوي، وهو دراسة العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها وبيان أثر كل منها في الآخر^(٢)؛ و«السيمنتيك» Sémantique، أو دراسة اللغة من ناحية الدلالة^(٣)، و«السوسولوجيا اللغوية» Sociologie Linguistique أو علم الاجتماع اللغوي، وهو دراسة العلاقة بين اللغة والظواهر الاجتماعية وبيان أثر المجتمع ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته.. في مختلف الظواهر اللغوية^(٤).

١- أما شعبة «الفونيتيك» فيرجع الفضل في النهوض بها إلى طائفة كبيرة من العلماء في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وخاصة مدرسة «المحدثين» من علماء القواعد «Néo grammeriens» التي سبقت الإشارة إليها^(٥). فقد وجد أعضاء هذه المدرسة في مسائل «الفونيتيك» ما يؤيد مذهبهم في «جبرية الظواهر اللغوية»^(٦)؛ فخصوا هذه الشعبة بعنايتهم ووجهوا نحوها قسطاً كبيراً من جهودهم، فبلغوا بها شأواً راقياً وكشفوا عن الأسباب الصحيحة التي يرجع إليها تطور الأصوات اللغوية. - ومن أشهر المبرزين في هذه الحلقة من أعضاء هذه المدرسة وغيرهم:

ليسكين Leskien وبروجمان Brugmann وأستوف Ostoff وهرمان-بول Hermann - Paul وأربعتهم من أقدم الأعضاء الألمان لمدرسة

(١) انظر صفحتك ٦ (رقم ٢) ١٩٠٤٨٠ - وستعرض لهذا الموضوع بتفصيل في فصل «الدلالة».

(٢) انظر ص ١٣ (رقم ٧) ٣١٠.

(٣) انظر صفحات ٧ - ١٠، ٢٢، ٢٣، ٤٨، ٤٩.

(٤) انظر صفحات ١١ (رقم ٦) ١٢٠، ١٣٠، ٢٧، ٢٨، ٣٠.

(٥) انظر صفحات ٥٨ وتوابعها.

(٦) انظر صفحات ٢٠ - ٢٣ - ٥٨ - ٦٠.

« المحدثين من علماء القواعد » . وإلى رابعهم يرجع النصيب الأكبر من الفضل في توجيه الأنظار إلى أثر التغيرات الجسمية الخاصة بأعضاء النطق في تطور اللغة من ناحيتها الصوتية . وقد مهد بذلك السبيل إلى علم الفونيتيك التجريبي الذي أشرنا إليه فيما سبق (١) .

وجاستون باريس Gaston Paris . وهو أول فرنسي فكر في إنشاء معمل للتجارب المتعلقة بدراسة الأصوات (وقد أنشأه بالكرايج دو فرانس Collège de France) . وإلى جهوده الجبارة في دراسة تطور الأصوات في اللغات الرومانية (وهي اللغات المتفرعة من اللاتينية) يرجع أكبر قسط من الفضل في النهوض بهذه الشعبة وفي تأييد نظرية « المحدثين من علماء القواعد » .

وبول باسى Paul Passy الذي تعد بحوثه في التطورات الصوتية وعواملها من أجل ما ألف في هذه الشعبة (٢) .

وروسلو Rousselot . وهو أول من استخدم الآلات في دراسة الصوت ، وأنشأ بذلك الشعبة الشهيرة التي سماها « الفونيتيك التجريبي » (٣) . - ويرجع الفضل في توجيه روسلو هذا الاتجاه الجديد إلى الاساتذة ماري Marey وهرمان بول Herman - Paul وجاستون باريس Gaston Paris كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٤) .

٢- أما الديالكتولوجيا، أو دراسة اللهجات الشعبية واللغات العامية،

(١) انظر صفحات ٤٣ - ٤٦ .

(٢) من أشهر مؤلفاته في ذلك بحث في « دراسة التطورات الصوتية في اللغة » Etudes sur les changements phonétiques وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٨٩٠ .

(٣) انظر صفحات ٤٣ - ٤٦ .

(٤) انظر صفحات ٤٦ ، ٦١ ، ٦٢ . هنا ، ومن أشهر مؤلفات روسلو كتابه في « التغيرات الصوتية باللغة » Les Modifications Phonétiques du Langage الذي كان له أكبر أثر في النهوض بهذه الشعبة .

فقد كان مهملًا كل الإهمال قبل أواخر القرن التاسع عشر لأسباب كثيرة؛ منها أن العلماء كانوا يحاربون اللغات العامية ويرون فيها مصدر خطر على الأدب كما سبقت الإشارة إلى ذلك^(١).؛ ومنها أنهم وجدوا في اللغات الفصيحة وفي اللغات القديمة مجالًا واسعًا للبحث استأثر بكل نشاطهم؛ ومنها أن دراسة اللغات الشعبية والعامية كانت تتطلب الأسفار والرحلات والاختلاط بسكان الريف، وعلماء اللغة في ذلك العصر كانوا يؤثرون الدراسة الهادئة في المكاتب والتقيب في بطون المؤلفات. ولم تبد العناية بهذه الشعبة إلا منذ عهد قريب؛ ولكنها خلت في هذا الأمد الوجيز خطوات واسعة حتى كادت تلحق الفروع الأخرى بل سبقت بعضها. ويرجع الفضل في النهوض بها إلى طائفة من أعلام الباحثين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من أشهرهم:

«جاستون باريس» الذي سبقت الإشارة إليه بين المبرزين من علماء الفونيتيك. وهو أول فرنسي نادى بوجوب دراسة اللهجات الشعبية واللغات العامية. وقد أنشأ بمعهد الدراسات العالية بفرنسا Ecole pratique des Hautes Etudes قسماً خاصاً لهذه الشعبة. وإليه يرجع الفضل في تمهيد الطريق لدراسة كثير من اللغات الشعبية الفرنسية. والإيطاليان «كورنو» و«أسكولي» Cornu et Ascoli اللذان تعد مؤلفاتهما في هذه الشعبة من أجلّ البحوث.

والأساتذة الفرنسيون «تورتولون» Tourtoulon و«برنجيه» Bringuet و«أنطوان توماس» Antoine Tomas و«ألبرت دوزا» Albert Dauzat، الذين كان لجهودهم المشكورة في دراسة اللغات الشعبية الأوروبية، وبخاصة اللغات الرومانية (المتفرعة من اللاتينية) واللهجات

(١) انظر آخر صفحة ٤، وأول صفحة ٥٥ والتعليق الأول بها.

الفرنسية ، أثر كبير في النهوض بهذه الشعبة (١) .
 وأشهر هؤلاء جميعا عالمان اقتسما بينهما دراسة « الديالكتولوجيا » :
 فعنى أحدهما بناحيثها الصوتية (الفونيتيكية) ، وهو الأب روسلو الذي
 سبقت الإشارة إليه أكثر من مرة ، وعنى ثانيهما بناحيثها الدلالية
 (السيمينتيكية) وهو العلامة جيليرون Gillieron .
 ثم انتشر الاشتغال بهذه الشعبة بين جميع علماء « الفونيتيك » وجميع
 علماء « السيمينتيك » ، وذلك لما تبين لهم من أهميتها في دراساتهم .
 وقد أصبح الآن من المتعذر أن يدرس أى موضوع لغوى بدون
 الاستعانة بهذه الشعبة .

٣ - وأما علم النفس اللغوى Psychologie Linguistique فقد تضافر
 على النهوض به عوامل كثيرة أهمها اتساع البحوث المتعلقة بكسب
 الطفل للغة ، وارتقاء الدراسات الخاصة بأمراض اللغة (الأفازيا Aphasie) :
 فقد كثرت الاصابات بهذه الامراض في أثناء الحرب العظمى بين الجنود
 وغيرهم ، فأتاح هذا فرصا واسعة للبحوث والتجارب في هذه السبيل .
 وقد ظهر للعلماء على ضوء هذه الدراسات قوة الصلة التي تربط مظاهر اللغة
 بمختلف المظاهر العقلية ، وتبين لهم أن كل دراسة لغوية لا تقوم على
 دراسة القوى النفسية ، وكل دراسة نفسية لا تقوم على دراسة اللغة
 تكون ناقصة مبتورة قليلة الجدوى فاسدة النتائج . فعكف علماء النفس
 وعلماء اللغة على دراسة « علم النفس اللغوى » ، وجعله كل فريق منهم

(١) من أشهر مؤلفات « أنطوان توماس » : « بحث في الفيلولوجيا الفرنسية »
 Essais de Philologie Française و « بحوث في الايتمولوجيا (أصول الكلمات) الفرنسية » ،
 Mélanges d'étymologie Française ظهر أولها عام ١٨٩٧ وثانيهما عام ١٩٠٢ .
 أشهر مؤلفات العلامة « دوزا » في هذه الشعبة كتابه « اللغات العامية » Les patois .
 أما الاستاذ « تورتولون » و « برنجيه » فقد قضيا شطرا كبيرا من حياتهما في دراسة بعض اللهجات
 الفرنسية .

شعبة مستقلة من بحوث علمه ، وتوفر على دراسته عدد كبير من أعلامهم فبلغوا به شأواً راقياً في النضج والسكال . ومن أشهر من برزوا فيه الأساتذة : ريبو^(١) Ribot وبالي^(٢) Bally وبولان^(٣) Paulhan وبوردون^(٤) Bourdon وبرونو^(٥) Brunot وجويوم^(٦) Guillaum وفان جيديكين^(٧) Van Ginneken وپاولوفيتش^(٨) Pavlovitch وپياجيه^(٩) Piaget وسان - بول^(١٠) Saint-Paul وسيجلاس^(١١) Seglas والعلامة الإيطالي فردريك جارلاندا^(١٢) Frédéric Garlanda وأستاذي المرحوم العلامة هنري دولاكروا Henri Delacroix عميد كلية الآداب بجامعة السربون وأستاذ علم النفس بها سابقاً : فقد وقف قسطاً كبيراً من جهوده العلمية على هذه الشعبة وقام فيها ببحوث قيمة ، ألقى بعضها علينا في جامعة السربون ، ونشر بعضها بكثير من المجلات العلمية النفسية والفلسفية ، وضمن كثيراً منها كتابه الشهير : « اللغة والتفكير »

(١) أنظر على الاخص الفصل الثاني من كتابه تطور المعاني الكلية Evolution des Idées

• générales

(٢) أنظر على الاخص كتابيه بالفرنسية : « اللغة والحياة » و « بحث في علم الاسلوب » .

(٣) أنظر على الاخص كتابه بالفرنسية : « الوظيفة المزدوجة للغة » Double Fonction du

• Langage

(٤) انظر كتابه بالفرنسية : « التعبير الطبيعي عن العواطف واتجاهات اللغة » .

(٥) من أشهر مؤلفاته بهذا الصدد كتابه بالفرنسية : « اللغة والتفكير » .

(٦) انظر كتابه بالفرنسية : « التقليد عند الطفل » وعلى الاخص القسم الثاني الذي وقفه على

التقليد في اللغة .

(٧) انظر كتابه بالفرنسية : « أصول علم اللغة النفسي » .

(٨) انظر كتابه بالفرنسية : « لغة الطفل » .

(٩) انظر كتابه بالفرنسية : « التفكير واللغة عند الطفل » .

(١٠) انظر كتابه بالفرنسية : « الكلام النفسي » .

(١١) انظر كتابه بالفرنسية : « أمراض اللغة » .

(١٢) انظر كتابه بالاطالية : « فلسفة اللغة » .

Le Langage et La Pensée (١).

٤ - وأما « السيمتيك » (أى دراسة اللغة من ناحية الدلالة) فقد كان لنهضة الشعب الثلاثة السابقة أثر كبير فى الارتقاء به من ناحيتى الطريقة والمادة . فقد تهذبت طريقته تحت تأثير « الفونيتيك » ، واتسعت مادته وكثر إنتاجه بفضل دراسات « الديالينكتولوجيا » و « علم النفس اللغوى » .

وذلك أن علماءه قد أعجبوا بالاتجاه العلمى الذى نحا إليه زملاؤهم علماء « الفونيتيك » ، والذى أشرنا إليه فيما سبق (٢) ، فأخذوا يسرون على غرارهم ويحتطون لأنفسهم فى علاج مسائل الدلالة خططاً جديدة أدنى إلى الكمال وأقرب إلى مناهج البحث العلمى . فأهملوا كل الطرق التى يسيطر عليها النظر الفلسفى ولا تودى إلى نتائج يقينية ، واستخدموا ، زيادة عن طريقة الملاحظة التى كان يقتصر عليها كثير من القدامى ، طرقاً حديثة أخرى كطريقة التجارب وقياس الغابر على الحاضر والموازنة والاستنباط (٣) ، واتخذوا فى جميع هذه الطرق من وسائل الحيلة ما يكفل عصمتها من الزلل ويبعد بها عن مظان الانحراف . فأتىح بذلك لمناهج البحث السيمتيكى ما أتىح لمناهج البحث الفونيتيكي من وسائل الرقى والتهديب .

وكما ارتقت طريقة الدراسة فى هذه الشعبة ، اتسعت مادتها وكثر إنتاجها ؛ وكان ذلك بفضل بحوث « الديالينكتولوجيا » (دراسة اللهجات العامية) وبحوث « علم النفس اللغوى » . فقد قدمت « الديالينكتولوجيا » ، مادة وفيرة لعلماء السيمتيك وكشفت لهم عن مناطق

(١) انظر كذلك ما كتبه فى الجزء الثانى من كتاب علم النفس Traité de Psychologie

. Par Dumas et collaborateurs

(٢) أنظر صفحة ٦١ (رقم ١) وصفحة ٦٢ . (٣) أنظر صفحات ٤٦ - ٥٢ .

واسعة كانت مجهولة من قبل، وحلت لهم كثيراً من المشا كل التي استعصى حلها على القدامى منهم. وقد تبين لهم على ضوء «علم النفس اللغوي» أن أهم العوامل التي تتأثر بها اللغة من ناحية الدلالة ترجع إلى أمور نفسية، وأن كشف القوانين الخاضعة لها ظواهر شعبتهم يتوقف على الإلمام بمختلف العلاقات التي تربط الظواهر اللغوية بظواهر علم النفس؛ فاتجهوا إلى هذا العلم يستمدون منه المعونة من جهة ويعملون على تهذيبه وتكامله وربط مسأله ببحوث شعبتهم من جهة أخرى، فأفاد من جهودهم أيمافائدة، وأصابت شعبتهم بفضلها حظاً كبيراً من النهوض والكمال.

هذا، ومن أظهر علماء السيمينتيك أثراً في هذه النهضة من الانجليز العلامة «وتني» Withney^(١)، ومن الفرنسيين «دارمستيتير» Arsène Darmesteter^(٢)، و«بريال» Michel Bréal^(٣)، وألير دوزا Albert Dauzat^(٤)، ومن الإيطاليين «كروس» Croce، ومن الألمان فونت Wundt وThumb ومارب Marbe.

٥ - وأما «علم الاجتماع اللغوي» Sociologie Linguistique فقد تضافر على النهوض به «أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية Ecoles Sociologique Française التي أنشأها العلامة دوركايم Durkheim في أوائل القرن الحاضر^(٥)، وطائفة من أئمة علماء اللغة انضمت إلى

(١) من أشهر مؤلفاته: «حياة اللغة» (ظهر عام ١٨٧٥) و«اللغة ودراساتها» (ظهر سنة ١٨٦٧).

(٢) من أشهر مؤلفاته: «حياة الكلمات» La Vie des mots.

(٣) سبقت الإشارة إلى العلامة بريال وكتبه وذهب في السيمينتيك بهفحة ٦٠.

(٤) سبقت الإشارة إلى العلامة دوزا بآخر صفحة ٦٣ وتعليق صفحة ٦٤، ومن أشهر مؤلفاته

التي عرض فيها للسيمينتيك كتابه: «فلسفة اللغة» و«حياة اللغة».

(٥) من أشهر أعضاء هذه المدرسة الاساتذة ليفي برون Levy Bruhl وموس Mauss وبوجليه

هذه المدرسة واعتنقت مذهبها ؛ ومن أشهرهم الأساتذة دوسوسور De Saussure ومييه Meillet وفندريس Vendryes .

وترى هذه البحوث كما تقدم (١) إلى بيان العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية وأثر المجتمع ومدنيته ونظامه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية في مختلف الظواهر اللغوية .

وإلى هذه الشعبة تحتاج جميع الشعب الأخرى من علم اللغة .. وذلك أن نشأة اللغة الإنسانية والأدوار التي اجتازتها ، وحياة كل لغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر وقوة وضعف وسعة وضيق ، وانقسامها إلى فنون وإلى لهجات ، وما تقوم به من صراع مع غيرها ، وما ينجم عن هذا الصراع ، والتطورات التي تحدث في أصواتها ومعانيها وأساليبها وقواعدها ... كل أولئك وما إليه ترجع أهم عوامله إلى ظواهر اجتماعية . فموضوعات البحوث التي نحن بصددتها تمتاز بجميع فروع علم اللغة وتفسر ظواهرها .

غير أن علماء الاجتماع الذين أشرنا إليهم ومن نهج نهجهم قد أخذوا على قدامى الباحثين من علماء اللغة وعلى أعضاء مدرسة « المحدثين من علماء القواعد » (٢) تقصيرهم في بيان العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية ، وانحرافهم أحياناً عن جادة الصواب في هذه السبيل ، وتفسيرهم لكثير من ظواهر اللغة ، وخاصة الظواهر الصوتية ، تفسيراً

Bouglé والمرحوم فوكويه Fauconnet (أستاذ الاجتماع بالسربون سابقاً) وهلباكس Halbwachs (أستاذ علم الاجتماع بالسربون الآن) ودافى Davy . - وقد كان لي شرف التلمذة على الأربعة الأول من هؤلاء بجامعة السربون وبالكوليج دوفرانس وشرف الاشتراك مع المرحوم فوكويه في طائفة من البحوث الاجتماعية ، وبعض مؤلفاتي باللغة الفرنسية مصدره مقدمة منه .

(١) أنظر صفحة ١١ (رقم ٦) و صفحة ١٢ .

(٢) انظر الفقرة الأخيرة ، من صفحة ٥٨ .

خاطباً يبعد بها عن المجتمع وشئونه . فعملوا على سد هذا النقص وإصلاح هذه الأخطاء ، فأنشئوا فرعاً خاصاً سموه « علم الاجتماع اللغوي » أو « السوسولوجيا اللغوية » Sociologie linguistique توفروا فيه على كشف العلاقات التي تربط بين الظواهر اللغوية ومختلف الظواهر الاجتماعية ، فنهضوا بالدراسات اللغوية نهضة مشكورة . وقد زادهم قوة انضمام عدد كبير من أئمة علماء اللغة إليهم « كفيرديناند دوسوسور » Ferdinand De Saussure الذي وقف قسطاً كبيراً من جهوده العلمية على هذه البحوث ^(١) ، والاستاذ « فندريس » Vendryes الذي نشر رسائل قيمة في هذا الفرع بكثير من المجلات العلمية وعرج في مؤلفاته على كثير من مسائله ^(٢) ، والعلامة « ميهيه » Meillet الذي تعد مؤلفاته من أهم مراجع علم اللغة في العصر الحاضر ومن أوسعها نطاقاً وأدقها بحثاً ^(٣) .

(١) قد جمع تلاميذ العلامة دوسوسور بعد وفاته طائفة من بحوثه القيمة في كتاب سموه « دروس في علم اللغة » Cours de Linguistique Générale ، طبع بلوزان عام ١٩١٦ .
(٢) من أشهر مؤلفاته : « اللغة » Le Langage و « مقتطفات من بحوث ميهيه » Mélanges Meillet . ومن رسائله بحث نشر بصحيفة علم النفس Journal de Psychologie عنوانه : « اللغات وصفاتها الاجتماعية ومذهب دوسوسور » .

(٣) العلامة ميهيه من تلاميذ المرحوم فريديناند دوسوسور وهو أستاذ في « الكوليج دو فرانس » ومدير « معهد الدراسات العليا » بباريس ورئيس « جمعية علم اللغة بباريس » وهو من أكثر علماء اللغة مؤلفات وأوسعهم اتجاهاً . وقد كتب أكثر من عشرين مجلداً ضخماً في مختلف بحوث هذا العلم ، منها : « علم اللغة التاريخي وعلم اللغة العام » و « اللغات الهندية - الأوربية » و « تاريخ اللغة اليونانية » و « الصفات العامة للغات الجرمانية » ، و « اللغات في أوروبا الحديثة » و « لغات العالم » (وهذا الكتاب كان بالاشتراك مع الاستاذ مرسل كوشان Marcel Cochen وآخرين) . وقد اشترك مع العلامة دوركايم وأعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية في إصدار « التقويم الاجتماعي » Année Sociologique الذي يعد أهم مجلة أوروبية في علم الاجتماع في العصر الحاضر (ظهر منه نحو خمسة عشر مجلداً يبلغ متوسط كل منها حوالي ستائة صفحة من القطع الكبير) . - وللاستاذ ميهيه في معظم أجزاء هذا التقويم بحوث قيمة في علم اللغة ، من أهمها بحث ظهر في المجلد التاسع عام ١٩٠٦ ، تحت عنوان « كيف تتغير معاني الكلمات » .

وقد جرت العادة أن يطلق على هذه الطائفة من اللغويين اسم « علماء اللغة المحدثين » Néo Linguistes .

وقد أوغل بعض أفراد هذه الطائفة في الانتصار لنظريتهم حتى كاد ينكر أن لغير العوامل الاجتماعية أثراً في شؤون اللغة ، فانبرى للعلماء عليهم طائفة من الباحثين في « علم النفس اللغوي » على رأسها أستاذ المرحوم دولا كروا Delacroix^(١) وطائفة من « علماء اللغة » على رأس العلامة دوزا Dauzat^(٢) . فعادت هذه المناقشات على علم اللغة بأحد النتائج واطيب الثمرات^(٣) .

تاريخ البحوث اللغوية في الثقافة العربية

ترجع أهم البحوث اللغوية في الثقافة العربية الى الفروع الآتية:

١ - النحو والصرف : أما النحو فكان الغرض الأساسي منه إيراد مبدأ الأمر ضبط القواعد التي يسير عليها إعراب المفردات ليس تعلمها وتعليمها واحتداؤها في الحديث والكتابة ، ولتعصم الناس من اللحن الذي أخذ يتفشى منذ صدر الإسلام من جراء اختلاط العجم بالعجم . ثم أخذ نطاق هذا العلم يتسع قليلاً قليلاً وأخذ علماءه يعرضون لكثير من الموضوعات المتصلة بأجزاء الجملة وترتيبها ، وأثر كل جزء منها في الآخر ، وعلاقة هذه الأجزاء بعضها ببعض ، وطريقة ربطها وأنواع الجمل ، وعلاقة الجمل التي تتألف منها العبارة بعضها ببعض وأقسام الكلمة ، وأنواع كل قسم منها ، ووظيفته في الدلالة . . . ، حتى شمل جميع البحوث التي يطلق الفرنجة على مثلها اسم « السنتكس التعليمي

(١) أنظر الفصل الثاني من الكتاب الأول من مؤلفه « اللغة والفكر » . - فقد وقتنا الفصل جميعه على نقد نظرية دوسوسور .

(٢) أنظر صفحات ١٨٢ - ١٩٥ من كتابه « فلسفة اللغة » .

(٣) سنعالج هذا الموضوع من جميع وجوهه في فصل « اللغة والمجتمع » .

أى « علم التنظيم التعليمى » (١) . - وأما الصرف فموضوعه ضبط القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات العربية وتصريفها وتغيير أبنيتها بتغيير المعنى وما يتصل بذلك من البحوث التى يطلق الفرنجة على مثلها اسم «المورفولوجيا التعليمية» أى « علم البنية التعليمى » (٢) .

وقد كانت العناية فى المبدأ مقصورة على البحوث النحوية ، وظل الأمر كذلك حتى أواخر القرن الأول الهجرى . ثم أخذ العلماء يعالجون بعض مسائل الصرف استطرادا وفى خلال دراستهم لمسائل النحو . ثم أخذت مسائل الصرف تنفصل شيئا فشيئا عن مسائل النحو ، وتدرس على حدة ، حتى تكون منها علم متميز . غير أن هذا العلم لم يستقل تمام الاستقلال عن النحو . فلا تزال طائفة كبيرة من مسائله ممزجة بالنحو ؛ ولم ينفك الباحثون ، إلى عهد قريب ، ينظرون إلى الشعبتين نظرتهما إلى علم واحد ويعالجون مسائلهما فى مؤلفات واحدة (٣) .

ويرجع الفضل فى النهوض بهاتين الشعبتين إلى عدد كبير من أعلام الباحثين بالبصرة والكوفة وبغداد ومصر وغيرها فى العصرين الأموى والعباسى ، من أشهرهم أبو الأسود الدؤلى (واضع النحو بإرشاد الإمام على بن أبى طالب) وعنبسة الفيل ، وعبد الرحمن بن هرون الأعرج ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وميمون الأقرن ، وعبد الله بن اسحق ، وعبد الله بن أسماء الحضرمى ، والآنخفش الأكبر ، وأبو عمرو ابن العلاء (وجميع هؤلاء من قدامى الباحثين من البصريين ، ولم يصلنا شئ يعتد به من مؤلفاتهم) - وعيسى بن عمر الثقفى (وكان على رأس جماعة يرجع إليها الفضل فى نقل هذا العلم إلى الكوفة ، ويقال إنه ألف فى

(١) انظر صفحة ٨ (رقم -) و صفحة ٩ .

(٢) انظر صفحة ٧ (رقم ب) و صفحة ٨ .

(٣) ولكن جرت عادة معظمهم أن يفرد لكل منهما أبوابا على حدة .

نحو البصريين أكثر من سبعين مجلدا منها كتابا «الجامع» و«الإكمال»، ولكن لم يصلنا شيء يعتد به من مؤلفاته) - وأبو جعفر الرؤاسي صاحب كتاب «الفيصل» في نحو الكوفيين، وأبو مسلم معاذ الهراء (وكلاهما من قدامى الباحثين من الكوفيين) - والخليل بن أحمد الذي يرجع إلى جهوده الجبارة ومؤلفاته الجليلة وعبقريته النادرة أكبر قسط من الفضل في النهوض بهاتين الشعبتين وغيرهما من شعب البحوث اللسانية - وأعضاء مدرسة المحدثين من البصريين الذين كان على رأسهم سيديويه (أشهر أئمة النحو وصاحب «الكتاب»، الذي صار إماما لكل الباحثين من بعده)، ثم الأخفش الأوسط (شارح «كتاب» سيديويه)، ثم أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج (وقد كتب كل منهما كتابا مختصرة للتعلمين يحذون فيها حذو سيديويه)، ثم المازني والسجستاني، ثم المبرد - ومدرسة المحدثين من الكوفيين الذين كان على رأسهم الكسائي، ثم الفراء (صاحب كتاب الحدود)، ثم ابن السكيت وابن سلام، ثم ثعلب (وقد حدث بين هذه المدرسة ومدرسة المحدثين من البصريين خلاف في طائفة كبيرة من المسائل وفي إعراب كثير من آي القرآن، ونشأت بينهما مساجلات طريفة فاضت بها كتب الأخبار) - وابن خالويه (صاحب «كتاب ليس»، و«رسالة في إعراب ثلاثين سورة من القرآن»)، وابن جنى (صاحب كتب «سر الصناعة» في النحو و«شرح تصريف المازني»، و«اللمع» في النحو و«المحتسب» في إعراب الشواذ، و«علل الثنية»... وغيرها) - وجماعة المتأخرين الذين جاءوا بمذهبهم في الاختصار والاستيعاب لجميع أبواب العلم، فوضعوا أهم كتب النحو والصرف وأكملها وأدقها وأكثرها تهدينا وتنقيحا، ومن أشهرهم الزمخشري (صاحب «المفصل» في النحو)، وابن الحاجب (صاحب كتب «المقدمة»، و«الكافية»، و«الشافية» في النحو والصرف)، وابن

معطى (صاحب ألفيه في النحو) ، وابن مالك (صاحب كتاب «التسهيل» ، و«الألفية» الشهيرة) ، وعز الدين الزنجاني (صاحب كتاب «تصريف العزى») ، والسكاكي (صاحب كتاب «مفتاح العلوم» في النحو والصرف والبلاغة والعروض) ، وابن هشام (صاحب كتب «القطر» و«التوضيح» و«الشدور» و«المغنى»... وغيرها ، وهو أكثر المتأخرين مؤلفات وأدقهم بحثاً^(١) .

٢ - علوم البلاغة ، التي تشمل ثلاثة بحوث : المعاني وموضوعه بيان ما ينبغي أن يكون عليه الأسلوب العربي ايطابق مقتضى الحال وليعبر عن المراد أبلغ تعبير ؛ والبيان وموضوعه شرح المناهج التي يسلكها الأسلوب العربي في استخدام التشبيه والمجاز والكناية ؛ والبديع وموضوعه دراسة المحسنات المعنوية واللفظية التي يحتملها الأسلوب العربي . - فموضوعات البحوث الثلاثة ترجع إلى ما يسميه المحدثون من علماء الفرنجة «الستيليستيك التعليمي»^(٢) ، أي «علم الأسلوب التعليمي» .

وقد كتب المتقدمون بعض بحوث في هذه العلوم . فمن ذلك «مجاز القرآن» ، لأبي عبيدة ، و«إعجاز القرآن» للجاحظ . و«البديع» لابن المعتز^(٣) ، وبعض آراء للبردي في الأغراض البلاغية لتوكيد الكلام ،

(١) وقد شهد بذلك العلامة ابن خلدون في مقدمته إذ يقول بصدده كتابه المغنى : «استوفى فيه أحكام الأعراب بجملة ومفصلة وتكلم عن الحروف والمفردات والجملة وحذف ما في الصناعة من المنكر في أكثر أبوابها ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها . . . فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها . . . وقوة ملكته وإطلاعه . . .»

(٢) أنظر صفحتي ٩ (رقم د) ، ١٠٠ .

(٣) جمع ابن المعتز نحو سبعة عشر نوعاً من المحسنات سماها البديع . ولم تكن جميعها ، في الواقع ، من المحسنات البديعية ، بل كان من بينها بعض مسائل البيان كالاستهارة والكناية .

وبعض بحوث لقدامة بن جعفر عقب بها على بديع ابن المعتز وحاول فيها تكملته . - ولكن أول من تصدى لاستيعاب هذه البحوث الثلاثة في مؤلف مستقل هو أبو هلال العسكري في كتابه « الصناعتين » . ثم جاء من بعده عبد القاهر الجرجاني ، فميز بحوث المعاني من بحوث البيان ، ورد مسائل كل منهما إلى قواعد مضبوطة سهلة المأخذ ؛ فكان بذلك المنشئ الحقيقي لهذين العليين (١) . ثم خلف من بعده خلف من الأعاجم كتبوا في هذه العلوم بأساليب ركيكة فلسفية أساءت إلى البلاغة أكثر مما أحسنت إليها . ومن هؤلاء السكاكي الذي وقف قسما كبيرا من كتابه « مفتاح العلوم » على المعاني والبيان والبديع ؛ والخطيب القزويني الذي لخص هذا القسم في كتابه « تلخيص المفتاح » .

٣ - علوم القراءات . - وموضوعها بيان الوجوه التي قرئت بها آي الذكر الحكيم . وقد ظلت موضوعات هذه البحوث يأخذها الناس عن القراء عن طريق التلقين ، حتى جاء العصر العباسي ، فعكف العلماء على تدوينها ، وضبط قواعدها ، ونقد أسانيدها ، فقطعوا بها شوطا كبيرا في سبيل الكمال . - وأهمية هذه البحوث من الناحية اللغوية ترجع إلى الأمرين الآتين :

(أولا) انها تقفنا على كثير من نواحي اللهجات العربية في صدر الإسلام . وذلك أن اختلاف القراءات يرجع أهم أسبابه إلى اختلاف العرب في لهجاتها ، وإلى أن القرآن لم يأت كله بلغة قريش بل جاء فيه كثير من المفردات والتراكيب بلغة غيرها ، وإلى أن الرسول عليه السلام كان يقرؤه لكل قبيلة بالطريقة التي تتفق مع لهجتها .

(ثانيا) أن معظم المؤلفات في القراءات قد اشتملت على بحوث

(١) كتب عبد القاهر كتابه : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » وقد وقف معظم فصول

الأول على المعاني ومعظم فصول الثاني على البيان .

دقيقة قيمة في أصوات اللغة العربية وطبيعتها وصفاتها وأنواعها ومخارجها ، والمد وأحكامه ومدته ، والغن وضروبه ، وتأثر أصوات الكلمة أو الكلمات المتجاورة بعضها ببعض... وما إلى ذلك من مسائل « الفونيتيك (١) » الخاصة باللغة العربية .

٤ - أدب اللغة وتاريخ الأدب والنقد الأدبي . - نهضت هذه الفروع نهضة كبيرة في العصر العباسي ؛ ولم تنفك ، منذ ذلك العهد إلى الآن ، موضع عناية الباحثين من العرب وغيرهم ؛ حتى أصبحت المكتبة العربية من أغنى مكاتب العالم في هذه الناحية ، وأصبحت مراجع هذه الفروع من أكبر المراجع عدداً ، وأوسعها نطاقاً ، وأجلها قيمة (٢) .

٥ - متن اللغة . - وتنقسم مؤلفاته ثلاثة أقسام :-

(١) معاجم ترمى إلى شرح معاني المفردات ، فترتب الكلمات ترتيباً خاصاً ليسهل على من يريد الوقوف على معنى أى كلمة الرجوع إليها في موطنها . وأول من عمل على تدوين معجم شامل من هذا القبيل هو الخليل بن أحمد . فقد وضع كتابه « العين » ، ورتب كلماته حسب ترتيبها في مخارج أول حروفها ، مبتدئاً بأقصى الحلق (ولذلك بدأه بحرف العين الذي سمي الكتاب باسمه) ومنتهاً بالشففتين . غير أنه يظهر أن المنون قد عاجلته قبل إتمامه ، فأكماله جماعة بعد وفاته بأكثر من نصف قرن . وظهر بعد ذلك معجم « الجهرة » لابن دريد ؛ وقد جمع مواده من كتاب العين ومن كتب أخرى للأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما ، ورتب مفرداته حسب ترتيب حروف الهجاء من الهمزة إلى الياء . وألف أبو منصور محمد بن أحمد معجمه « التهذيب » على ترتيب الخليل

(١) أنظر معنى هذه الكلمة بصفحتي ٦ (رقم ٣) ، ٧٠ .

(٢) لضعف العلاقة التي تربط هذه البحوث بموضوعنا لم نر كبير حاجة للكلام عن تاريخها وأشهر

المؤلفين فيها كما فعلنا في الفروع السابقة .

لكتابه العين في عشر مجلدات . وألف الصاحب بن عباد معجمه « المحيط » في سبع مجلدات ؛ وأحمد بن فارس « المجمل » ؛ والجوهري « الصحاح » الذي جمع فيه أربعين ألف مادة ؛ والفيروز آبادي « القاموس المحيط » ؛ والزمخشري « أساس البلاغة » ؛ والصغاني « تكملة الصحاح » و « العباب » ثم جمعها في كتاب واحد سماه « مجمع البحرين » ؛ وابن منظور المصري « لسان العرب » الذي ضمنه معظم ما كتب قبله في هذا الباب ؛ والمقري « المصباح المنير » ؛ والرازي « مختار الصحاح » الذي اختصر فيه صحاح الجوهري ... وغير ذلك كثير .

وهذا النوع من المعاجم قليل الفائدة للباحث في علم اللغة . وذلك أن مؤلفيها قد وجهوا كل عنايتهم إلى ذكر معاني الكلمات والاستشهاد عليها أحيانا بالقرآن والحديث والمأثور من كلام العرب ؛ ولكنهم أغفلوا إغفالا تاما تعقب معاني كل كلمة في مراحل حياتها ، وشرح تطورها في مختلف العصور ، وبيان الأصول التي انحدرت منها وما إلى ذلك من مسائل « الليكسيكولوجيا » و « الايتيمولوجيا » (١) التي تشغل الآن أكبر حيز في المعاجم الأفرنجية الحديثة ، وتهم كثيرا طوائف الباحثين في علم اللغة . .. هذا إلى أن معظم هذه المعاجم العربية لم يتبع نظاما معيناً في ترتيب معاني الكلمة ، فخلط بين الحقيقي منها والمجازي ، والقديم والحديث ، كما خلط بين المعاني في مختلف لهجات العرب ؛ فأصبح البحث فيها شاقا ، وجاءت مضللة في مواطن كثيرة .

(ب) معاجم ترمى إلى بيان المفردات الموضوعة لمختلف المعاني . فترتب المعاني بطريقة خاصة وتذكر الألفاظ التي تقال للتعبير عن كل معنى منها . فتجد أبوابها مرتبة على مثل هذا الوضع : خلق الإنسان ، الحمل والولادة ، الرضاع والقطام ، الغذاء السلي للولد ، أسنان الأولاد

(١) أظن صفحة ٧ (رقم ١) ، و صفحة ١٠ (رقم ٥) .

وتسميتها في المراحل المختلفة ، شخص الإنسان وقامته وصورته ، صفات الرأس ، قلة الشعر وتفرقه في الرأس ... وهلم جرا . وتذكر في كل باب المفردات التي تعبر عن موضوعه ، مرتبة ترتيبا خاصا ، ومبينة مدلولاتها ومواطن استعمال كل منها .

فالقسم الأول من المعاجم يحتاج إليه من يعرف اللفظ ويرغب في الوقوف على معناه ؛ على حين أن هذا القسم يحتاج إليه من يعرف المعنى ويرغب في الوقوف على الألفاظ الموضوعه له .

ومن أحسن ما ألف من معاجم هذا القسم ثلاثة كتب : أحدها « كتاب الألفاظ » لابن السكيت وهو أقدم ما ألف من هذا النوع (١) ؛ وثانيها « فقه اللغة » للثعالبي في مجلد واحد صغير (٢) ؛ وثالثها « المختص » لابن سيده (٣) في سبعة عشر جزءا ، وهو أدقها دراسة ، وأحسنها تنسيقا ، وأكثرها استيعابا لمسائل البحث .

وقد تناول كلا السكتين الأخيرين ، في أثناء دراسته لمسائله

(١) هو العلامة أبو يوسف يعقوب بن اسحق السكيت ، توفي عام ٢٤٣ هـ أو ٢٤٦ هـ في خلافة المتوكل . - وقد راجع « كتاب الألفاظ » ونقحه وشرح شواهد وكلماتها وعلق عليه الخطيب التبريزي غارح ديوان الحماسة ، وضمن هذا كله كتابا سماه « كنز الحفاظ في تهذيب الألفاظ » ، أي في تهذيب « كتاب الألفاظ » لابن السكيت . وقد عثر بمكتبة ليدن على نسخة خطية من هذا الكتاب الأخير ، فأشرف على طبعها بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت جماعة من الآباء اليسوعيين على رأسهم الأب لويس شيخو ، بعد أن أضافوا إليها كثيرا من التعليقات اللغوية الهامة وذيلوها بشروح وإصلاحات وفوائد وفهارس كبيرة القيمة .

(٢) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ولد في نيسابور عام ٣٥٠ هـ وتوفي عام ٤٢٩ هـ هجرية ، وله مؤلفات كثيرة قيمة في مختلف فروع العلوم اللسانية . - وفي تسمية كتابه هذا بفقه اللغة شيء كثير من التجوز ، وذلك أنه ليس فيه ما يصح تسميته بفقه اللغة بالمعنى الذي شرحناه في الفقرة الأولى من كتابنا إلا نحو خمس عشرة صفحة (الباب التاسع والدمرون) ؛ أما ما عدا ذلك فمن لغة مرتب حسب فصول المعاني .

(٣) هو أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي المتوفى عام ٤٥٨ هـ .

الأساسية ، بعض بحوث من فصيلة أخرى سنعرض لها عند كلامنا عن بحوث فقه اللغة^(١) .

(ح) رسائل في طوائف خاصة من الألفاظ أو المعاني : ككتاب أبي حنيفة في الأنواء والنبات ؛ وكتب يعقوب في النبات والأصوات والفرق ؛ وكتب أبي حاتم في الأزمنة والحشرات والطيور ؛ وكتب الأصمعي في السلاح والإبل والخيل ؛ وكتاب أبي زيد في الغرائز والجرائم^(٢) ؛ وشرح غريب الحديث للجزري ؛ وكتاب الأضداد في اللغة للأنباري^(٣) ؛ وكتاب تحفة الراءد في المترادف والمتوارد^(٤) .

وهذا النوع من المعاجم كان أسبق في الظهور من النوعين السابقين . فقد ظهر بعض كتب منه في صدر العصر العباسي .

٦ - بحوث في « فقه اللغة العربية » وبعض مسائل من « علم اللغة » العام^(٥) :

فن ذلك دراسة الأصمعي للاشتقاق في اللغة العربية ؛ ومعظم البحوث التي ضمنها ابن فارس^(٦) كتابه « الصحاح » في

(١) أنظر ص ٨٠ .

(٢) ذكر هذه الكتب صاحب المخصص من بين الكتب التي رجع إليها في مؤلفه (أنظر الجزء الأول من المخصص صفحتي ١١ ، ١٢) .

(٣) هو محمد بن القاسم محمد بن بشار الأنباري ، جمع في كتابه هذا طائفة كبيرة من الألفاظ التي يطاق كل منها على المعنى وضده في آن واحد وشرحها شرحا وافيا مستشهدا بما ورد بهندما في كلام العرب شعره ونثره .

(٤) كتاب حديث للشيخ إبراهيم اليازجي اللبناني ، ضمنه طائفة من الألفاظ المترادفة في مختلف الشؤون وطبع في طبعة المعارف عام ١٩٠٤ .

(٥) أنظر المعنى الذي نقصده من « فقه اللغة العربية » ، و« علم اللغة » العام بصفتي ١٤ (آخر فقرة فيها) ، ١٥ .

(٦) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني ، من أشهر أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري .

فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، : كبحته في نشأة اللغة العربية (١) ،
 وخصائص اللسان العربي ، واختلاف لغات العرب ، ولغات العامة
 من العرب ، والقياس والاشتقاق في اللغة العربية ، وآثار الإسلام في
 اللغة العربية ، وأسماء الأشخاص وماخذها ، والمترادف ، وحروف
 الهجاء العربية ، وحروف المعنى ، وسنن العرب في حقائق الكلام والمجاز
 والنحت ، والاشتراك . . . وهلم جرا ؛

والبحوث التي ضمنها ابن جنى (٢) كتابه «الخصائص» : كبحته
 في أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح (٣) ، والقول في هذه اللغة أنى وقت
 واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط ، والاطراد والشذوذ ،
 ومقاييس العربية ، والألفاظ والمعاني في اللغة العربية ، وتعليل ظواهر
 اللغة ومدى قصد العرب لهذه العلل ، والقياس في كلام العرب ،
 وتركب اللغات ، واختلاف اللهجات ، واتفاق اللفظين واختلاف
 المعنيين ، والاشتقاق الأكبر ، وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني (٤) ،
 وإساس الألفاظ أشباه المعاني (٥) . . . وهلم جرا ؛

(١) درس ابن فارس هذا الموضوع من وجهة نظر ضيقة . فتساءل هل اللغة العربية توقيف أم
 اصطلاح ، وذهب إلى أنها توقيف بدليل قوله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها . وهو بذلك يظن أن اللغة
 العربية نشأت مع الانسان الأول . وجميع من عرضوا لهذا الموضوع من مؤلفي العرب لم يتجاوز بحسبهم
 هذا النطاق الساذج ما عدا ابن جنى ومن نهج نهجه كما سنذكر ذلك .

(٢) هو أبو الفتح عثمان بن جنى ولد عام ٣٣٠ وتوفي عام ٣٩٢ هـ وهو من أشهر علماء النحو
 واللغة وأدقهم بحثاً وأكثرهم إنتاجاً .

(٣) عرض ابن جنى مختلف الآراء بهذا الصدد ومنها آراء ذهب إلى مثلها كثير من علماء الفريجية في
 العصور الحديثة وناقمها مناقمة متزنة حكيمة تشهد بسعة اطلاعه وقوة تفكيره .

(٤) عرض هذا الباب لموضوع هام في فقه اللغة وهو دلالة الحروف في لفظ ما على أصل معنوي كيفما
 اختلف ترتيبها .

(٥) يعرض هذا الفصل لموضوع هام في فقه اللغة وهو العلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها . .

وبعض البحوث التي عرض لها ابن سيده في مقدمة كتابه المخصص كالبحث في نشأة اللغة العربية^(١)، والتي عرض لها في الأجزاء الأخيرة من هذا الكتاب كالبحوث المتعلقة بالتضاد، والترادف، والاشتراك، والاشتقاق، والتعريب، والمجاز، والممدود والمقصور، والتذكير والتأنيث، وإبدال الحروف بعضها من بعض... وهلم جرا؛

وبعض بحوث قليلة ضمنها الثعالبي كتابه «فقه اللغة»، كالبحث فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية: أسماء فارسيتهامية وعربيتهامية محكية مستعملة، أسماء عربية يتعذر وجود فارسية أكثرها، أسماء قائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحد، أسماء تفردت بها الفرس دون العرب فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هي، ما نسبته بعض الأئمة إلى اللغة الرومية^(٢)؛

والبحوث التي ضمنها أبو منصور الجواليقي^(٣) كتابه «المعرب من الكلام الأعجمي»، ودرس فيها نشأة التعريب وشروطه، وذكر معظم الألفاظ المعربة مرتبة على حسب حروف الهجاء؛

والبحوث القيمة التي ضمنها السيوطي^(٤) كتابه «المزهر»: كالبحث في نشأة اللغات، والمصنوع والفصيح، والحوشي والغرائب والشوارد والنوادر، والمستعمل والمهمل، وتداخل اللغات، وتوافق اللغات، والمعرب، والمولد، وخصائص اللغة، والاشتقاق، والمشارك،

(١) أنظر الجزء الأول صفحات ٣ - ٦ .

(٢) تشغل هذه البحوث نحو خمس عشرة صفحة فقط من الباب التاسع والعشرين كما سبقت الإشارة إلى ذلك بالتعليق الثاني بصفحة ٧٧ .

(٣) من علماء القرن السادس الهجري .

(٤) جلال الدين السيوطي أسمى من أن يعرف به، فهو من أشهر مؤلفي العرب في جميع العلوم، ولد عام ٨٤٩ هـ . وكتاب المزهر من أجل ما ألف في فقه اللغة العربية وهو في جزئين كبيرين .

والترادف ، والتضاد ، والحقيقة والمجاز ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والإبدال ، والقلب ، والنحت ، وما اختلفت فيه لغة الحجاز ولغة تميم ، والتصحيف والتحريف ، والاسماء والكنى والألقاب . . . وهلم جرا ؛

والبحوث التي ضمنها شهاب الدين الحفاجي (١) كتابه «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل» ؛

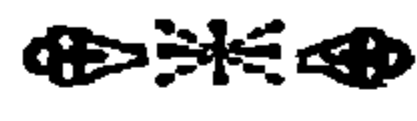
والبحوث التي ضمنها أحمد فارس الشدياق (٢) كتابه «سر الليلك في القلب والإبدال ، وخاصة ماورد فيه بصدد العلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها ، ودلالة الحروف في لفظ ما على أصل معنوي كيفما اختلف ترتيبها ، ورجع الكلمات إلى أصولها . . . وما إلى ذلك .



(١) من علماء القرن الحادي عشر الهجري .
(٢) من علماء القرن الثالث عشر الهجري .

الفصل الأول

نشأة اللغة الإنسانية و تطورها



- ١ -

أنواع التعبير الإنساني

للتعبير الإنساني طرق كثيرة يرجع أهمها إلى قسمين رئيسيين :
(القسم الأول) التعبير الطبيعي عن الانفعالات . . ويشمل جميع
الأمور الفطرية غير المقصودة التي تصحب مختلف الانفعالات السارة
والآلية : كالصراخ ، والضحك ، والبكاء ، وتفتح الأسارير وانقباضها ،
واتساع الحدقة ، وإغماض العينين ، واحمرار الوجه واصفراره ،
ووقوف شعر الرأس ، وارتعاد الجسم . . . وما إلى ذلك من الظواهر
الفطرية التي تبدو بشكل غير إرادي في حالات الفرح والحزن والألم
والخوف والحنج والاشمئزاز . . . وما إليها ، والتي تعبر عن قيام
حالة وجدانية خاصة بالشخص الصادرة عنه .

وتنقسم هذه التعبيرات من حيث الحاسة التي ندركها عن طريقها
إلى نوعين :

١ - تعبيرات نظرية ، أي تصل عن طريق حاسة النظر ، كالجمرة
والصفرة والرعشة وانقباض الأسارير وانبساطها واتساع الحدقة
وإغماض العين ووقوف شعر الرأس والعدو . . . وما إلى ذلك من
الظواهر الجسمية التي تصحب مختلف الانفعالات .

٢ - تعبيرات سمعية ، أي تصل عن طريق حاسة السمع ، كالضحك

والبكاء والصراخ... وما إلى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التي تصحب حالات الفرح والألم والحزن والسرور... وهلم جرا. ويتألف هذا النوع من أصوات مبهمة (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (حروف مد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع (حروف ساكنة).

وقد تكفلت بحوث علم النفس بدراسة هذا القسم بنوعيه، وشرح مظاهره، ومنشأ كل منها، والقوانين التي تشرف عليه ويخضع لها في مختلف نواحيه، ووسائل إدراكه، وفهم ما يعبر عنه... وهلم جرا^(١). (القسم الثاني) التعبير الوضعي الإرادي. ويشمل جميع الوسائل الإرادية التي يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن المعاني التي يود وقوف غيره عليها.

وتنقسم هذه الوسائل من حيث الحاسة التي ندركها عن طريقها إلى نوعين مشبهين لنوعى القسم الأول: أحدهما التعبيرات الإرادية النظرية؛ وثانيهما التعبيرات الإرادية السمعية:

١- أما التعبيرات الإرادية النظرية، فهي التي تصل عن طريق حاسة النظر، وتشمل جميع الإشارات الحسية التي تستخدم بقصد الدلالة. وهي على ضربين:

(أحدهما) إشارات مساعدة ونائبة، أي تساعد لغة الكلام وتنوب عنها في حالات خاصة أو لضرورة ما: كالأشارات البحرية وهي التي يستخدمها عن بعد بحارة سفينة مع بحارة سفينة أخرى^(٢)؛ وإشارات

(١) أنظر مؤلفات علم النفس، وبخاصة البحث الجليل الذي كتبه أساذنا العلامة دوما Dumas في الجزء الأول من كتاب «علم النفس» Traité de Psychologie الطبعة الأولى صفحات ٦٠٦ - ٧٣٣.

(٢) هذه الاشارات دولية ومعروفة لجميع البحارة، وتدرس في مدارس البحرية.

الصيد وهي التي يستخدمها الصيادون بعضهم مع بعض عن بعد حتى لا يسمع صوتهم الحيوان المطارد، والحركات اليدوية والجسمية التي يستخدمها الصم البكم للتعبير عما يجول بخواطرهم؛ والتي يلجأ إليها الفرد أحيانا للتعبير إذا كان المخاطب لا يفهم لفته؛ والتي جرت العادة في بعض الأمم الأولية أن يستخدمها أفراد العشائر المختلفة اللهجات بعضهم مع بعض^(١)؛ والتي تستخدم في بعض الشعوب في حالات الصيام الديني عن الكلام^(٢)؛ والتي يستعين بها في أثناء حديثهم أهل اللغات الساذجة الناقصة لتكملة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة^(٣)؛ والتي تصحب حديثنا نحن لتوكيد المعاني أو لتمثيل الحقائق أو لزيادة التوضيح؛ والتي نستخدمها وحدها للدلالة على الإيجاب والنفي والاستحسان وما إلى ذلك: كالأيماء بالرأس للتعبير عن القبول، وتحريك السبابة حركة

(١) عثر علماء الاتوجرافيا على هذه الظاهرة عند كثير من قبائل السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا، وعند بعض العشائر الأفريقية. وقد روى الاستاذ كوهل Kohl أنه إذا التقى أحد الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) بآخر من غير عشيرته، اختلف عنه في لفته، فاهما يلجآن في تعبيرهما إلى لغة الاشارات التي تعتبر عند هذه العشائر بمثابة لغة دولية. وقد مر الهنود الحمر في هذه اللغة أيما مهارة. ففي إمكان المتخاطبين أن يظلا يوما كاملا يتحدثان عن طريق الاشارات باليد والاصابع والرجلين، وأن يفص كل منهما على الآخر كل ما يورد قصه عليه. - أنظر ليفي برول: الوظائف العقلية في الأمم الأولية» ١٧٨ وتوابها. Levy Bruhl : Fonctions Mentales ... etc.

(٢) يوجد الصيام الديني عن الكلام عند كثير من الأمم الأولية وبخاصة عند سكان أستراليا وأمريكا. فقد ذكر الأستاذان سينر وجيلين في كتابهما عن سكان أستراليا الوسطي حالات كثيرة من هذا القبيل، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة، تبلغ أحيانا طما كاملا، صائمة عن الكلام. - ويظهر أن شيئا من هذا كان موجودا في ديانة اليهود، بدليل قوله تعالى عن لسان مريم: «إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا... فأشارت إليه... الخ».

(٣) لوحظ هذا في كثير من الأمم الأولية. فقد روى عن البوشيمان Boschimans (عشائر متوحشة تسكن أفريقيا الوسطى) أنهم إذا أرادوا المعاهدة ليلا يضطرون إلى إشعال النار ليتمكنوا من رؤية الاشارات اليدوية التي تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتحدد مدلولاته. - أنظر ريبو: «تطور العماني الكلية» ص ٧٨ وتوابها. Ribot : Evolution des Idées ... etc.

مستعرضة للتعبير عن الرفض أو النفي ، ومد الشفتين ووضع السبابة عليهما للأمر بالسكوت . . . وهلم جرا .

(وثانيهما) إشارات أصيلة عامة ، وهي التي يتكون منها لغة كاملة مستقلة تستخدم وحدها في جميع الشئون والظروف . - وقد استخدم هذا النوع من اللغات عند بعض الجماعات الإنسانية ولا يزال مستعملا في بعض العشائر . فقد عثر في الأمم الأولية على جماعات كثيرة لا تكاد تستخدم في تعبيرها غير الإشارات اليدوية والجسمية . ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا وبعض العشائر بأفريقيا الوسطى . ويطلق على هذا الضرب من التعبير اسم « لغة الإشارات » أو « الإشارات التحليلية » Gestes Analytiques^(١) وقد عني بدارسته عدد كبير من علماء الأنتوجرافيا من أشهرهم الكولونل مولري Mallery^(٢) وتيلور Taylor^(٣) ورومان Romanes^(٤) ، وليبوك Lubock^(٥) ، وسبنسر وجيلين Spencer and Gillen^(٦) ، وليفي برونل Levy Bruhl^(٧) ، وريبو Ribot^(٨) ، والدكتور فيشر الألماني Fischer^(٩)

(١) صاحب هذه التسمية هو الملامة ريبو Ribot (أنظر كتابه : « تطور المعاني الكلية ») .

(٢) أنظر بحثه بالإنجليزية : « لغة الإشارات بين هنود أمريكا الشمالية . وقد ظهر في تقرير

مكتب الأنتولوجيا بواشنطن عام ١٨٨١ - Sign - Language among the North -

Américan - Indians

(٣) أنظر كتابه بالإنجليزية : « تاريخ النوع الإنساني في عصوره الأولى Early History of

« Mankind

(٤) أنظر كتابه بالإنجليزية : « التطور العقلي في الفصيلة الإنسانية Mental Evolution In Man »

(٥) أنظر كتابه بالإنجليزية : « أصول المدنية The Origin of Civilisation »

(٦) أنظر كتابيهما بالإنجليزية : « العشائر الأصلية بأستراليا الوسطى » و « العشائر الشمالية

بأستراليا الوسطى » .

(٧) أنظر كتابه بالفرنسية : « الوظائف العقلية عند الأمم الأولية » صفحات ١٧٥ - ٣٠٤ .

(٨) أنظر كتابه بالفرنسية . « تطور المعاني الكلية » صفحات ٥٨ - ٦٤ .

(٩) عني الدكتور فيشر في بحوث كثيرة بدراسة هذا النوع من اللغات عند عشائر أفريقيا الوسطى ،

وعند السكان الأصليين لأمريكا .

وروث Roth (١) .

وقد صور الدكتور فيشر هذا النوع من اللغات وقرّبه إلى الأذهان

إذ يقول :

إذا التقيتُ بأحد الهنود الحمر وأردت أن أخاطبه بلغة الإشارات لأسأله هل رأى ست عربات يجرها ثيران ويصحبها ستة سائقين منهم ثلاثة مكسيكيون وثلاثة أمريكيون وواحد ممتط صهوة جواده ، فإني أشير إلى شخصه يبدى للدلالة على كلمة « أنت » ، ثم أشير إلى عينيه للدلالة على فعل « الرؤية » ؛ ثم أبسط أصابع يدي اليمنى وسبابة يدي اليسرى للدلالة على عدد « ستة » ، ثم أكون صورة دائرة بالصاق نهائتي السبابتين والإبهامين إحداهما بالأخرى وأمد يديّ إلى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العربة وهي تسير للدلالة على « العربة » ، ثم أضع الكفين عمودتين بجانب الجبهة ممثلا قرن حيوان للدلالة على « الثور » ، ثم أمد ثلاثة أصابع من يدي اليسرى وأضع يدي اليمنى تحت شفتي السفلى وأنحدر بها إلى صدرى ممثلا اللحية للدلالة على « ثلاثة مكسيكيين » ، ثم أمد مرة ثانية ثلاثة أصابع وأمسح جبتي يدي من اليمنى إلى الشمال ممثلا وجها شاحبا للدلالة على « ثلاثة أمريكيين » ، ثم أرفع إصبعي واحدا وأضع بعد ذلك سبابة اليسرى بين سبابة اليمنى ووسطاها ممثلا الراكب للدلالة على « رجل واحد راكب حصانا » . . . وأضاف إلى ذلك أن الوقت الذي يقضيه أحد المتكلمين بهذه اللغة في أداء هذه الحركات لا يزيد كثيرا عن الوقت الذي يستغرقه تعبيرنا نحن باللغة الكلامية عن هذا المعنى .

وقرر الأستاذ تيلور ، بصدد هذه اللغة ، أن لها قواعد إشارية لربط

(١) أنظر كتابه بالانجليزية : « دراسات اتنولوجيكية للسكان الأصليين بالقسم الشمال الغربي

بكينسلاند » .

أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها؛ وأنها في مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التي تستخدمها، فهي من هذه الناحية أشبه شيء بلغة دولية؛ وأنه يمكن أحيانا التعبير بها عن حقائق دقيقة كمعطيات وضرب أمثال وقص حكايات؛ وأنها في جملتها ومعظم تفاصيلها تشبه لغة الصم - البكم. فقد جمع الكولونيل مولرى بين رجل أصم - أبكم وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الإشارات، فأخذ الأصم - الأبكم يقص عليهم بالإشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة، وعقب على هذه القصة بتعليقات من عنده، فلم يفهم فهم أى حركة من حركاته، لاتحادها مع حركاتهم اللغوية.

وذهب العلامة ريبو إلى أنها قابلة للإصلاح والتهديب، وأنه لو طال استخدام الشعوب الإنسانية لها لسارت في سبيل الارتقاء، ولأصابها كثير من أسباب التثقيح تحت تأثير الرقى العقلى، ومطالب الحياة الاجتماعية، واتساع حاجات الإنسان، وأعمال المخترعين والعلماء... وما إلى ذلك.

غير أنه مهما ينلها من التهديب فإن تخلو من مثالبها الذاتية. فهي تستأثر باليد، فتحول دون القيام بأى عمل آخر في أثناء التعبير. ويتوقف إدراكها على النظر، فلا يمكن التعبير بها عن بعد ولا في الظلام. وهي قائمة على تقليد الأشياء المحسوسة، فلا تكاد تقوى على التعبير عن المعانى الكلية أو وصف الشاعر والوجدان. هذا إلى أنها عارية عن الدقة في كثير من مظاهرها وأنها تقتضى إسرافا كبيرا في الوقت والمجهود.

٢ - وأما التعبيرات الإرادية السمعية، فهي التي تصل عن طريق حاسة السمع. وهي الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات.

وهذا النوع هو الذى تنصرف إليه كلمة «اللغة»، إذا أطلقت. وهو

وحده الذي يهمننا في بحثنا . وإنما ذكرنا الأنواع الأخرى لاستيفاء مظاهر التعبير من جهة ، ولأننا قد نحتاج إليها من جهة أخرى في بيان نشأة هذا النوع ، أو في ضرب الأمثال ، أو الموازنة ، أو مناقشة النظريات وتوضيحها .

- ٢ -

اختصاص الإنسان باللغة ومراكرها

تشارك معظم فصائل الحيوان مع الإنسان في القسم الأول من قسمي التعبير السابق ذكرها ، وهو التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، سواء في ذلك التعبير الطبيعي النظري والتعبير الطبيعي السمعي . فانفعالات الحيوان جسميها ونفسيها ، كالجوع والعطش والسرور والفرح والخوف والاطمئنان والحزن والاشمئزاز والغضب .. وما إلى ذلك ، يثير كل منها لدى المتلبس به طائفة خاصة من الحركات الفطرية غير المقصودة . وهذه الحركات بعضها نظري ، أي يصل عن طريق حاسة النظر : كاتساع الحدقة وضيقتها ، وبسط الأذنين وخفضهما ، والتكشير عن الناب ، ووقوف الشعر ، وافتخاج الجسم والأوداج ، والهرب ، والاختفاء ... وما إلى ذلك ؛ وبعضها سمعي ، أي يتمثل في صوت يصل عن طريق الأذن : لرغاء الناقة وبغامها ، وصهيل الفرس ، وقبعه ^(١) عند نفوره من شيء ، وحميمته عند الجوع أو الاستئناس ، وشحيج البغل ، ونهيق الحمار ، وخوار البقر ، وثناء الغنم ، وزئير الأسد ، وعواء الذئب وتلعلعه عند جوعه ، ونباح الكلب وضغائه إذا جاع ووقوقته إذا خاف وهريره إذا أنكر شيئاً

(١) صوت يردده الفرس من منخره إلى حلقه عند نفوره من شيء .

أو كرهه ، وضباح الثعلب ، ومواء الهرة ، وضحك القردة ، وصر صرة البازي ، وقعقة الصقر ، وهدير الحمام ، وسجع القمري ، وزقزقة العصفور ، ونعيق الغراب ، وفحيح الحيات وكشيشها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت ، ونعيق الضفدع . . . وهلم جرا (١).

وتشترك كذلك بعض فصائل الحيوان مع الإنسان في التعبير الإرادي النظري ، وهو التعبير بالإشارة . ويبدو هذا على الأخص لدى الحيوانات التي تعيش جماعات كالنحل والنمل والقردة والبقر والغنم والوعول وما إليها . - فقد ثبت أن كثيرا من هذه الفصائل وغيرها تستخدم أحيانا بعض إشارات جسمية للتعبير بها بشكل مقصود عن بعض شئونها . ففحل الأوعال (الأيل) يستخدم في أثناء قيادة قطيعه بعض إشارات برأسه وقرونه للوقوف فيقف جميع أفراد القطيع ؛ وبعض إشارات للسير فيسير جميع أفراد القطيع ؛ ويستحث المتخلفات بأن ينطح كلا منها نطحا خفيفا . ويستخدم الأذكياء من الكلاب مع أفراد فصيلتها ومع الأدميين بعض إشارات بالرأس وغيرها للتعبير بطريق إرادي عن أمور خاصة ، كأن تمر بأظافرها على الباب ليفطن أصحابها إلى وجودها فيفتحوا لها ، أو تدفع إناء طعامها برأسها للتعبير عن حاجتها إلى الغذاء . . . وهلم جرا . وتستخدم كذلك فصائل القردة ، وبخاصة الفصائل العليا منها (الغوريلا ، الشمبزيه ، الجيون ، الأورانج - أوتانج) وفصائل النحل والنمل بعض إشارات من هذا القبيل . فقد كشف العلامة كوهلر Kœhler عن ظواهر كثيرة من هذا النوع عند فصائل القردة العليا ، منها ما يعمله الشمبزيه حينما يريد أن يرافقه آخر في طريقه ، أو يرغب أن يعطيه أحد زملائه شيئا مما في يده ، أو يطلب نداءه عن بعد : فإنه في الحالة الأولى يحتك به بخفة ويجذبه من ذراعه محذقا

(١) أنظر في هذه الأصوات وغيرها « فقه اللغة » للعالبي صفحات ٢٠٩ - ٢١٢ طبعه بيروت .

فيه ومتقدما بعض خطوات في الطريق التي يود أن يسلكها معا؛ وفي الحالة الثانية يمدّ يده إلى زميله مد الاستجداء؛ وفي الحالة الثالثة يمد يده ويقبض كفه ويبسطها كما نفعل نحن في مثل هذه المناسبة^(١). وقرر الأساتذة كيربي وسبنسر وبورميستر وهوير وفرانكلين Kirby , Spencer , Burmeister , Huber , Franklin أن كثيراً من طوائف النحل والنمل يستخدم أفرادها، بعضها مع بعض، إشارات مقصودة للتعبير بها عن بعض شئونها، وأن هذه الإشارات تتمثل في احتكاك بعض أعضاء المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المخاطب بطريقة خاصة. وقام العلامة لوبوك Lubbock بهذا الصدد بطائفة كبيرة من التجارب، فبين له صدق ما ذهب إليه هؤلاء الأساتذة^(٢).

وأما النوع الأخير من أنواع التعبير التي ذكرناها في الفقرة السابقة وهو اللغة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة، أي الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات، فيظهر أن الإنسان قد اختص بها من بين سائر الفصائل الحيوانية.

حقاً أن بعض طوائف الحيوان تصدر عنه أصوات شبيهة في

(١) أنظر كوهلر : « ذكاء الفصائل العليا من القردة » صفحة ٢٩٤ وتوابعها .

Kœhler : Intelligence des Singes Supérieurs.

(٢) أنظر ريبو : « تطور المعاني الكلية » صفحتي ٦٦ ، ٦٧ . - وانظر كذلك لوبوك :

« النمل والنحل والزناير » « Ants , Bees , and Wasps » : Lubbock . - وانظر

كذلك رومان : « النكاه الحيواني » « Romanes : Animal Intelligence »

هذا وقد أنكر بعض العلماء وجود الإشارات ذات الدلالة المقصودة عند الحيوان . ومن هؤلاء العلامة

وآسمان Wasmann الذي يرى أن كل الإشارات الحيوانية التي يخيّل للإنسان أنها من هذا النوع

هي في الحقيقة فطرية ، وأنها لا تدل المخاطب على شيء معين بل تقتصر على إثارة نشاطه في ناحية يحددها

العمل التي سيتلو الإشارة . - وتابعه في هذا استاذي العلامة دولاكروا . أنظر دولاكروا :

« اللغة والفكر » صفحة ٧٥ وتوابعها .

ظاها بهذا النوع من التعبير . ولكن بالتأمل في هذه الأصوات يتبين أنها عارية عن خصائص اللغة في صورتها الصحيحة ، وأنها ترجع إلى فصيلة أخرى من فصائل الأصوات . وسنعرض فيما يلي لأهم ما يبدو عند الحيوان من هذا القبيل ، معقبن على كل مظهر منها بما يبين وجوه الفرق بينه وبين اللغة الصوتية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

يرجع أهم ما يلفظه الحيوان من هذه الأصوات إلى ثلاث طوائف :
(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستخدمها الحيوان قاصداً بها التعبير عن بعض شئونه : كالحممة التي يرددها الفرس بشكل إرادى عند رؤية صاحبه للتعبير عن حاجته إلى العلف ، والمواء الذى يلجأ إليه الهر لئيبىء به عن جوعه ، والنباح الذى يلفظه الكلب قاصداً به إيقاظ أهل المنزل أو إرشادهم إلى أن شخصا يحوم حول البيت . . . وهلم جرا .

وهذه الطائفة ليست ، فى الواقع ، من اللغة الصوتية فى شىء ، وإن أشبهتها فى ظاهرها ووظيفتها . وذلك أنها أصوات مبهمه عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الكلام كما لا يخفى اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض . - هذا إلى أنها فى الأصل أصوات فطرية تصعب الانفعالات ، وأن كل ما يعمله الحيوان حياها فى هذه الحالة أن يرددها هى نفسها بشكل إرادى للدلالة على نفس الانفعالات التى تعبر عنها فى شكلها الفطرى أو للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها (الجوع ، العطش ، الخوف . . . الخ) . وأصوات هذا شأنها لا يصح عدداً كلاماً ؛ لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعة للدلالة وأنه يعبر عن معان.

لا عن انفعالات (١) .

(الطائفة الثانية) أصوات متنوعة تلفظها القردة في اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها وسائل تعبير إرادى ، وأن أفراد القردة تتجاذب بها الحديث بعضها مع بعض . - وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح فى الفصائل العليا من القردة وبخاصة « الجيون » .
وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء وإن أشبهتها فى ظاهرها ومناسبات استخدامها . فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعى عن الانفعال ، وبعضها مجرد ترديد إرادى لهذا التعبير (٢) ، وبعضها من ظواهر التداعى الآلى (٣) أو العدوى الصوتية (٤) أو تقليد الحيوان بطريق فطرى غير إرادى لأصوات نفسه أو أصوات غيره (٥) . - هذا إلى أنها - على الرغم من تنوعها ، وعلى الرغم من تشابه أعضاء النطق عند فصائل القردة بأعضاء النطق الإنسانية - أصوات مهمة بسيطة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . وقد تقدم (٦) أن من أهم خصائص الكلام اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره

-
- (١) يبدو كذلك هذا النوع من الأصوات عند الطفل الانسانى فى شهوره الأولى كما سنذكر ذلك فى الفصل الثانى . وقد رأينا تسمية هذا النوع عند الطفل « بالأصوات الوجدانية الإرادية » . - وقد يلجا الكبار أنفسهم أحيانا لهذا النوع من التعبير فيضحكون مثلا متكلفين الضحك للتعبير عن السرور .
(٢) أى من الأصوات التى سبق ذكرها فى الطائفة الأولى .
(٣) وذلك أن يرتبط الصوت بىء آخر بطريقة يجعله يظهر بشكل منعكس غير إرادى كما ظهر هذا الشئ . وسيأتى بيان ذلك بتفصيل فى الطائفة الثالثة .
(٤) تبدو ظاهرة العدوى الصوتية عند كثير من أنواع الحيوانات ، وتبدو كذلك عند الأطفال إذا ضمهم مكان واحد : يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات الآخرين ويكسى أحدهم فيبكي لبيكاته الباقون (أنظر تفصيل هنا بكتابى « فى التربية » صفحة ٧٠ وتوايها) .
(٥) سيأتى شرح هذا فى الطائفة الثالثة .
(٦) أنظر آخر صفحة ٨٧ ، و صفحة ٩١ .

بعضها من بعض (١) .

(الطائفة الثالثة) أصوات مركبة ذات مقاطع تلفظها بعض الطيور كالبيغاء وما إليها من الفصائل التي امتازت أعضاء صوتها بخصائص طبيعية تتيح لها إخراج هذا النوع .

وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء وإن أشبهتها في الظاهر . وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير . فهي تصدر عنه في ثلاث حالات ، كلها فطرية آلية عارية بتاتا عن هذا القصد :

(الحالة الاولى) حينما يكون الطائر متلبسا بانفعال جسمي أو نفسي . وهي في هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعي عن الانفعالات : تصدر عن غير قصد ، ويشيرها بشكل آلي الانفعال المتلبس به الطائر . وإثارها مؤسسة على الروابط الطبيعية الفطرية التي تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل آلي أو منعكس وتلفظ أصواتا مركبة ذات مقاطع عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها . فهي حينئذ من قبيل الضحك والبكاء وما إليهما من مظاهر « التعبير الطبيعي السمعي » . وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعي السمعي يبدو عند الحيوانات الأخرى في صورة أصوات بسيطة مبهمه ، ويبدو عند هذه الطيور أحيانا في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع .

(١) أنظر في هذا الموضوع بحوث الأستاذ Pfunst الذي درس أكثر من مائتي فرد في حديقة الحيوانات بـ برلين ؛ وبحوث Bouton الذي لاحظ في أثناء خمس سنوات أدوار نمو فرد من فصيلة الجيرون ؛ وبحوث كوهلر الذي كتب كثيرا في القرود وبخاصة القرود العليا التي ألف فيها كتابه الشهير : « ذكاء القرود العليا » . وأنظر كذلك ما كتبه أستاذي العلامة دولاكروا بهذا الصدد في كتابه « اللغة والتفكير » ص ٧٧ وتوابعا .

(والحالة الثانية) حينما تكون محاكاة لصوت إنسانى سمعه الطائر .
وهى فى هذه الحالة كذلك تصدر بشكل آلىّ عار عن قصد التعبير بل
عن قصد المحاكاة نفسها . وذلك أن هذه الفصائل مزودة بروابط
طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثانى
تتحرك وحدها وتلفظ بشكل آلىّ نفس الأصوات التى يحسها الجهاز
الأول : فكلما وصل صوت إلى سمعها انبعث صدها من أفواهها (١) .

(والحالة الثالثة) قد تسمع البيغاء أحيانا كلمات أو أصواتا فى
مناسبة ما فتكررها كلما حدثت هذه المناسبة أو مناسبة أخرى تشبهها
بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها تقصد بها التعبير عن أمر معين : فقد
تسمع مثلا أصحابها ينادون طفلا باسمه ، فتكرر هذا الاسم كلما رأت
الطفل أو رأت دميته أو متاعا من أمتهته (٢) .

وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة فى شىء وإن التبتت بها فى
بإدى النظر . وذلك أن الطائر لا يقصد بها ، فى الواقع ، التعبير عن
أمر ما ؛ وإنما تصدر منه بشكل غير إرادى على الصورة التى تصدر فيها
ظواهر « التداعى الآلىّ » . فمن كثرة تكرار الكلمة أمام الطائر بحضرة
الشخص أو الشىء الذى تدل عليه ، يرتبط صوتها بصورة مدلولها ،
فينبعث الصوت من الطائر بشكل آلىّ كلما ظهر أمامه المدلول أو
ما يتصل به (٣) .

(١) أنظر تفصيل هذا الموضوع بمؤلفى : « فى التربية » ، صفحات ٦٩ - ٧٠ .

(٢) من أهم الملاحظات هنا الصدد ما دونه الدكتور ولكس عضو الجمعية الملكية بصحيفة

العلوم العقلية عدد يولية سنة ١٨٧٩ Dr, Wilks, Journal of Mental Science

(٣) أنظر فى هذا الموضوع كتابى الأستاذ رومان : « الذكاء الحيوانى » و « الارتقاء العقلى

للإنسان » . - وانظر بجزء هذا الصدد للعلامة ولكس فى المجلة الفلسفية لسنة ١٨٨٠

Revue Philosophique . - وانظر كذلك ما كتبه أستاذى المرحوم دولاكروا فى

كتابته « اللثة والفصكر » ص ٧٨ .

هذا، ولا يمتاز الإنسان بهذا الصدد عن بقية فصائل الحيوان باللغة الصوتية فحسب، بل يمتاز عنها كذلك بطائفة من المراكز المخية التي تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز إصدار الألفاظ، مركز حفظ الكلمات المسموعة... وهلم جرا). فقد ثبت أن هذه المراكز لا يوجد لها نظير في مخ أى فصيلة حيوانية، حتى الفصائل العليا من القرود نفسها.

فالبحث فى نشأة اللغة يتطلب إذن دراسة موضوعين اثنين: أولهما نشأة الكلام فى الفصيلة الإنسانية؛ وثانيهما نشأة مراكز اللغة فى المخ الإنسانى. - وسنعقد لكل منهما فقرة خاصة، ثم نكمل بحوث هذا الفصل بفقرة ثالثة فى تطور اللغة الإنسانية.

- ٣ -

نشأة الكلام

أشرنا أكثر من مرة إلى أن البحث فى نشأة اللغة ليس من البحوث العلمية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. وذلك أن كل ما يذهب إليه الباحثون بصدده يتألف من آراء ظنية تعتمد فى بعض نواحيها على الحدس والتخمين وفى نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمى؛ وهكذا شأن البحوث التى تعرض لأصول النظم الإنسانية^(١). هذا، وأهم ما قيل بهذا الصدد يرجع إلى أربع نظريات: (النظرية الأولى) تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهى هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء. وقد ذهب

(١) انظر صفحات ٥٨، ٦٠، ٥٨٠.

إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراكليت Héraclite^(١) ، وفي العصور الوسطى بعض الباحثين في فقه اللغة العربية كابن فارس في كتابه الصحاح^(٢) ، وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الأب لامي Lami في كتابه « فن الكلام ، Li Art de Parler^(٣) والفيلسوف دوبونالد De Bonald في كتابه التشريع القديم Législation primitive^(٤) .

ولا يكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدي مذهبهم ، دليلاً عقلياً يعتد به^(٥) . أما أدلتهم العقلية فبعضها يحتمل التأويل وبعضها يكاد يكون دليلاً عليهم لا لهم . فالمؤيدون لهذا الرأي من باحثي العرب يعتمدون على قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » . وهذا النص ، كما ترى ، ليس صريحاً فيما يدعون . إذ يحتمل أن يكون معناه - كما ذكر ذلك ابن جنى في كتابه الخصائص وذهب إليه كثير من أئمة المفسرين -

(١) فيلسوف إغريقي من المدرسة اليونانية ولد بإفريقيا عام ٤٧٦ وتوفي عام ٤٨٠ ق م . ونسبة هذا الرأي له ليست يقينية .

(٢) أنظر الصحاح صفحات ٥ - ٧ . وقد مال إلى هذا الرأي كذلك ابن جنى في كتابه الخصائص أنظر ص ٤٥ ، وإن كان قد رد في أول الفصل على ما يعتمد عليه القائلون به ذاهباً إلى أنه لا يهض دليلاً لهم .

(٣) هو دوم فرنسوا لامي Dom François Lami ولد بمتيريو Montireau من أعمال فرنسا سنة ١٦٣٦ وتوفي بسان دنيي Saint Denis سنة ١٧١١ . وقد قام بتدريس الفلسفة بكثير من المعاهد الدينية . وإليه يرجع الفضل في نشر آراء الفيلسوف ديكارت بينهم المعاهد .

(٤) انظر ترجمة دوبونالد بالتعليق الثالث صفحة ٥٧ .

(٥) سنين فساد الأدلة العقلية التي ذكرها بعض المنصبين لهذه النظرية عند مناقشتنا للنظرية الثالثة التي لا تختلف كثيراً في جوهرها عن هذه النظرية .

أن الله تعالى أقدر الإنسان على وضع الألفاظ . أما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة ، فيعتمدون على ما ورد بهذا الصدد في سفر التكوين إذ يقول : « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان . فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول ^(١) » . وهذا النص ، كما ترى ، لا يدل على شيء مما يقول به أصحاب هذه النظرية ؛ بل يكاد يكون دليلاً عليهم . - ومهما يكن من شيء ، فلا صلة للدليل النقلى بمقام البحث العلى .

(النظرية الثانية) تقرر أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالاً . وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليونانى ديموكريت Démocrite (من فلاسفة القرن الخامس ق م) ، وفى العصور الوسطى كثير من الباحثين فى فقه اللغة العربية ، وفى العصور الحديثة الفلاسفة الانجليز آدم سميث Adam Smith وريد Reid ودجلد ستوارت Dugald Stewart .

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو نقلى أو تاريخى . بل إن ما تقرره يتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية . فبعدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً ولا تتخلق خلقاً ، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . - هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف فى كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون ^(٢) . فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأً للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل ^(٣) .

(١) انظر الآيتين ١٩ ، ٢٠ من الجزء الثانى بسفر التكوين .

(٢) سيأتى توضيح هذا فى النظرية الثالثة (انظر آخر صفحة ٩٩ وأول صفحة ١٠٠) .

(٣) انظر كذلك فى الرد على هذه النظرية ، رينان « أصل اللغة » صفحة ٧٦ وتوابها

Renan : L' Origine du Langage .

فلسنا هنا بصدد نظرية جديدة بالمناقشة ، بل بصدد تخمين خيالي وفرض عقيم يحمل في طيه آية بطلانه . وقد ذهب المتعصبون له في تصوير منشأ اللغة مذاهب ساذجة غريبة تدل أبلغ دلالة على مبلغ انحرافه عن جادة الصواب ونطاق المعقول . وإليك نبذة مما يقوله بعضهم بهذا الصدد : « إن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة . وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء ، فيضعوا لكل منها سمة ولفظاً يدل عليه ويعنى عن إحضاره أمام البصر ، وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلاً على شخص ويومثوا إليه قائلين : إنسان ، إنسان ، إنسان ، فتصبح هذه الكلمة اسماً له . وإن أرادوا سمة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه أشاروا إلى العضو وقالوا يد ، عين ، رأس ، قدم . . . ، ويسيرون على هذه الوتيرة في أسماء بقية الأشياء وفي الأفعال والحروف وفي المعاني الكلية والأمور المعنوية نفسها^(١) . وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلاً . ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم أن يضعوا كلمة « مرء » بدل إنسان ، وكلمة « سر » بدل رأس . . . وهكذا ، فتنشأ اللغة الفارسية . . .^(٢) » .

(النظرية الثالثة) تقرر أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زُود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني ؛ وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة به ، كما أن غريزة « التعبير الطبيعي عن الانفعالات » تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة (انقباض الأسارير وانبساطها ، وقوف شعر الرأس ، الضحك ، البكاء ، . . . الخ) كلما قامت به حالة

(١) لم يبين القائلون بهذه النظرية بوضوح كيف أمكن التواضع على الكلمات الدالة على الأفعال والحروف والمعاني الكلية ، مع أن هذه الأمور ليس لها في الخارج مدلول حسي يثير إليه المتواضعون .

(٢) نقل عن ابن جنى بتصرف : الخصائص صفتي ٤٢ - ٤٣ .

انفعالية معينة (الغضب ، الخوف ، الحزن ، السرور . . . الخ) ؛ وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها؛ وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم ؛ وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً حتى تلاشت كما انقرض لهذا السبب كثير من الغرائز الإنسانية القديمة . ومن أشهر من ذهب هذا المذهب العلامة الألماني مكس مولر Max Muler^(١) والعلامة الفرنسي رينان Renan^(٢) .

وقد اعتمد مكس مولر في تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث في أصول الكلمات في اللغات الهندية الأوروبية^(٣) . فقد ظهر له أن مفردات هذه اللغات جميعها ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك ؛ وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأولى التي انشعبت منها هذه الفصيلة ، فهي لذلك تمثل اللغة الإنسانية في أقدم عهودها . وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معان كلية ؛ وأنه لا تشابه مطلقاً بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة .

ففي دلالاتها على معان كلية برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق ، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الثانية السابق ذكرها . لأن التواضع ، فضلاً عن تعارضه مع طبيعة النظم الاجتماعية كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، يتوقف هو نفسه على وسيلة يتفاهم بها المتواضعون . وهذه الوسيلة لا يعقل أن تكون اللغة الصوتية ،

(١) انظر ترجمته بالتعليق الأول بصفحة ٥٧ .

(٢) انظر ترجمته بالتعليق الرابع بصفحة ٥٧ .

(٣) هي إحدى الفصائل الثلاث التي ترجع إليها اللغات الإنسانية كما سيأتي الكلام عن ذلك بتفصيل

في « فصائل اللغات » .

لأن المفروض أن المتواضع عليه هو أول ما نطق به الإنسان من هذه اللغة ؛ ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الإشارة ، لأننا بصدد ألفاظ تدل على معان كلية أى على أمور معنوية يتعذر استخدام الإشارة الحسية فيها .

وفي عدم وجود تشابه بين أصواتها وما تدل عليه برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية لم تنشأ من محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات) وأصوات الحيوانات والأشياء ، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الرابعة التي سنتكلم عنها قريبا .

وإذا بطل أن اللغة الإنسانية كانت نتيجة تواضع واتفاق ؛ وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية وأصوات الحيوانات والأشياء ؛ لم يبق إذن تفسير معقول لهذه الظاهرة غير التفسير السابق ذكره : وهو أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زود بها الإنسان في الأصل للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع ، كما زود باستعداد فطري للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة (١) .

وهذه النظرية - على ما فيها من دقة وطرافة وعمق في البحث - فاسدة من عدة وجوه :

١ - فهي لا تحل شيئا من المشكلة التي نحن بصدد حلها بل تكتفي بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضا وهي مشكلة « الغريزة الكلامية » .

٢ - هذا إلى أن ما تقرره يعتبر - من بعض الوجوه - من قبيل تفسير الشيء بنفسه . فكل ما تقوله يمكن تلخيصه في العبارة الآتية : « إن الإنسان قد لفظ أصواتا مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة

(١) انظر Max Muler: Science du Langage 9e Leçon

لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الأصوات . وهذا ، كما لا يخفى ، مجرد تقرير للمشكلة نفسها في صيغة أخرى .

٣ - على أن قدرة الإنسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ هذا النوع من الأصوات ليست موضوع البحث . وإنما الذى يهمنا هو الوقوف على أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها فى تكوين الكلام الإنسانى ؛ أى البحث عن الأسلوب الذى سار عليه الإنسان فى مبدأ الأمر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، والكشف عن العوامل التى وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره .

٤ - ولكن أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أن الأصول الخمسة السابقة ذكرها تمثل اللغة الإنسانية الأولى . - فهذه الأصول ، كما تقدم ، تدل على معان كلية . ومن الواضح أن إدراك المعانى الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية لا يتصور وجود مثلها فى فاتحة النشأة الإنسانية . وها هى ذى الأمم الأولى التى تعد أصدق ممثل للإنسانية الأولى تؤيد ما نقول . فقد أجمع علماء الاتنوجرافيا الذين قاموا بدراسة هذه الأمم بأمريكا وأستراليا وأفريقيا وغيرها على ضعف عقليتهم بهذا الصدد وعجزها عن إدراك المعانى الكلية فى كثير من مظاهرها . وقد كان لهذه العقلية صدى كبير فى لغاتهم . فلا نكاد نجد فى كثير منها لفظا يدل على معنى كلى . ففى لغة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء . . . وهكذا ؛ ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم (١) . وفى لغة الهورونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ؛

(١) انظر Ribot : Evolution des Idées Générales P. 110 .

ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل في حالة تعلقه بالخبز ، ولفظ آخر للتعبير عنه في حالة تعلقه باللحم ، وثالث في حالة تعلقه بالزبد ، ورابع في حالة تعلقه بالموز . . . وهكذا ؛ ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل في زمن ما (١) . ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا (تاسمانيا) (بقرب استراليا) ، لا يوجد من بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة ؛ فإذا أرادوا وصف شيء لجثوا إلى تشبيهه بأخر مشتمل على الصفة المقصودة ؛ فيقولون مثلا «فلان كشجرة كذا» ، إذا أرادوا وصفه بالطول (٢) .

ولذلك يرى المحدثون من علماء اللغة أن الأصول الخمسة السابقة ذكرها لا تمثل في شيء اللغة الإنسانية الأولى كما يذهب إلى ذلك مكس مولر ؛ بل إنها بقايا لغة حديثة قطعت شوطا كبيرا في سبيل الرقي والكمال ولم تصل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن ارتقت عقلياتها ونهض تفكيرها . ويذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فيقرر أنها مجرد أصول نظرية وأنها لم تكن يوما ما موضوع لغة إنسانية (٣) .

(النظرية الرابعة) تقرر أن اللغة الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية (التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة) وسارت في سبيل الرقي شيئا فشيئا تبعا لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الإنسان . . . وما إلى ذلك . . . وقد ذهب إلى هذا الرأي معظم

(١) انظر Ribot, op. cit. 173 , 174 .

(٢) انظر Ribot, op. cit. 204 et suiv .

(٣) هذا هو رأي الأستاذين سيس وبريال Sayce , Bréal انظر في ذلك Ribot, op . cit.

المحدثين من علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة وتي Whitney^(١) . وذهب إلى مثله من قبل هؤلاء كثير من فلاسفة العصور القديمة ومن مؤلفي العرب بالعصور الوسطى . فقد تحدث عنه ابن جنى (المتوفى عام ٣٩٢ ، أى من نحو ألف سنة) بكتابه الخصائص فى أسلوب يدل على قدمه وكثرة القائلين به من قبله^(٢) .

فبحسب هذه النظرية ، يكون الإنسان قد افتتح هذه السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية التى تعبر عن الانفعالات كأصوات الفرح والحزن والرعب... وما إليها ، ومحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحنيف الشجر وجعجة الرحى وقعقة الشنان وصرير الباب وصوت القطع والضرب... وهلم جرا . وكان يقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشيء الذى يصدر عنه الصوت المحاكى أو عما يلازمه أو يصاحبه من حالات وشئون . واستخدم فى هذه المحاكاة ما زُود به من قدرة على لفظ أصوات مركبة ذات مقاطع . وكانت لغته فى مبدأ أمرها محدودة الألفاظ ، قليلة التنوع قريبة الشبه بالأصوات الطبيعية التى أخذت عنها ، قاصرة عن الدلالة على المقصود . ولذلك كان لا بد لها من مساعد يصحبها فيوضح مدلولاتها ويعين على إدراك ما ترمى إليه . وقد وجد الإنسان خير مساعد لها فى الإشارات اليدوية والحركات الجسمية . وهذا المساعد الإرادى قد نشأ هو نفسه عن الحركات الفطرية التى تصحب الانفعالات ؛ فكان فى مبدأ أمره مجرد محاكاة إرادية لهذه

(١) انظر ترجمته ومؤلفاته ، بصفحة ٦٧ والتعليق الأول من تعليقاتها .

(٢) انظر الخصائص صفحتي ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ : « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ومذهب مقبل » .

الحركات ، ثم توسع الإنسان في استخدامه فحأ كى به أشكال الأشياء وحجومها وصفاتها . . . وما إلى ذلك ، فازدادت أهميته في الحديث ، وسد فراغا كبيرا في اللغة الصوتية . ثم أخذت هذه اللغة يتسع نطاقها تبعاً لارتقاء التفكير واتساع حاجات الإنسان ومظاهر حضارته ، وتستغنى شيئاً فشيئاً عن مساعدة الإشارات ، وتبعد عن أصولها الأولى تحت تأثير عوامل كثيرة كالتطورات الطبيعية التي تعتور الصوت وأعضاء النطق الإنساني وكملاقات المجاورة والمشابهة التي تعتور الدلالات . . . وما إلى ذلك من الأمور التي سنعرض لها بتفصيل في الفصول الآتية .

وهذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة ، وأقربها إلى المعقول ، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية . ولم يقم أى دليل يقينى على خطئها . ولكن لم يقم كذلك أى دليل يقينى على صحتها . وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها وإنما يقرب تصورها ويرجح الأخذ بها . ومن أهم أدلتها أن المراحل التي تقررها بصدد اللغة الإنسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوى عند الطفل . فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام ، يلجأ في تعبيره الإرادى إلى محاكاة الأصوات الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة والأشياء . . . الخ) فيحاكى الصوت قاصداً التعبير عن مصدره أو عن أمر يتصل به ؛ وثبت كذلك أنه ، في هذه المرحلة وفي مبدأ مرحلة الكلام ، يعتمد اعتماداً جوهرياً في توضيح تعبيره الصوتى على الإشارات اليدوية والجسمية . - ومن المقرر أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل

المراحل التي اجتازها النوع الإنساني في هذا المظهر^(١).
ومن أدلتها كذلك أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية
في مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات في الأمم
الأولية. ففي هذه اللغات تكثر المفردات التي تشبه أصواتها أصوات
ما تدل عليه؛ ولنقص هذه اللغات وسذاجتها وإبهامها وعدم كفايتها
للتعبير لا يجد المتكلمون بها مناصا من الاستعانة بالإشارات اليدوية
والجسمية في أثناء حديثهم لتكملة ما يفتقر إليه من عناصر وما يعوزه
من دلالة^(٢). -- ومن المقرر أن هذه الأمم، لبعدها عن تيارات الحضارة
وبقاءها بمعزل عن أسباب النهضات الاجتماعية، تمثل إلى حد كبير النظم
الإنسانية في عهودها الأولى.

- ٤ -

نشأة مرا كز اللغة

تقدم أن الإنسان لا يمتاز عن الفصائل الحيوانية الأخرى باللغة
الصوتية فحسب، بل يمتاز عنها كذلك باشتغال مخه على مرا كز تشرف
على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز الكلام، مركز حفظ الأصوات،
مركز الكلمات المرئية... الخ)^(٣).

(١) يطلق على هذه النظرية اسم « نظرية هيكل Haeckel » أو « نظرية التلخيص العام »
وقد تكلمنا عنها بتفصيل في كتابنا: « في التربية » صفحة ١٥ وتوابها .
هذا ، وسندرس بتفصيل في الفصل الثاني نشأة اللغة عند الطفل وتطورها ومبلغ تمثيلها لمراحل اللغة
الإنسانية .

(٢) انظر صفحة ٨٤ والتعليق الثالث من تعليقاتنا .

(٣) انظر ص ٩٥ . - هذا ولا يتسع المقام للكلام عن هذه المراكز ووظائفها وطريقة أدائها
لها؛ على أن هذا من بحوث علم النفس والفيزيولوجيا لا من بحوث علم اللغة .

وقد اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في نشأة هذه المراكز في
الفصيلة الإنسانية .

فالقائلون باستقلال النوع الإنساني في نشأته عن الأنواع الحيوانية
الأخرى يذهبون إلى أنه قد خلق مزوداً بهذه المراكز كما خلق مزوداً
بخصائصه الأخرى كاعتدال القامة وإدراك المعاني الكلية... وما إلى
ذلك . ويرون أن هذه المراكز كانت في مبدأ الخلق ساذجة قاصرة؛
ثم ارتقت في بعض الشعوب حتى وصلت إلى شأو كبير في الدقة والنضج؛
على حين أنها جمدت في شعوب أخرى فلم تزحزح كثيراً عن الحالة
الساذجة التي خلقت عليها . ويرجع الفضل في ارتقائها إلى عوامل
كثيرة منها كثرة استخدامها في وظائفها وما تمرن عليه من عادات
مكتسبة واتساع الحضارة الإنسانية وارتقاء التفكير... وهلم جرا.
فمراكز اللغة شأنها في ذلك شأن أعضاء الحس وأعضاء الحركة في
الجسم الإنساني : تخلق مزودة بالقدرة على القيام بوظائفها ، وتظل
قابلة للارتقاء في هذه الناحية ما أتاحت لها الوسائل المواتية ، فإن لم يتح
لها ذلك قصرت عن القيام بوظائفها أو جمدت على الحالة التي كانت عليها
في نشأتها الأولى .

وأما القائلون بمذهب النشوء والارتقاء وتفرع الإنسان عن غيره
من الفصائل الحيوانية ، فيرون أن الفضل في نشأة هذه المراكز عند
الإنسان يرجع إلى الظروف التي أحاطت به في مبدأ نشأته وإلى الأمور
التي ألجأته إليها مقتضيات حياته وبخاصة ما يتصل منها بشئون دفاعه عن
نفسه . وقد اختلفوا في تصوير هذه النشأة على الرغم من اتفاقهم على
الأسس السابق ذكرها . وأشهر نظرياتهم بهذا الصدد نظرية دارون التي
تتلخص في أن الإنسان كان في الأصل من الفصائل المتسلقة الأشجار؛
ثم اضطرت ظروف قاهرة إلى العيش على الأرض حيث تعرض لإغارة

الحيوانات القوية وسطوها عليه . فاستخدم في مبدأ الامر في مقاومتها أنيابه وأعضاء جسمه كما كان يفعل من قبل وكما تفعل أفراد فصيلته . ولكن هذه الوسيلة كانت تضطره إلى الارتقاء في أحضان عدوه فتعرض حياته للخطر . فهدته غريزة المحافظة على الحياة إلى وسيلة أخرى تدفع عنه عدوان الحيوان بدون أن تضطره إلى الاصطدام به . وذلك بأن يقذف عليه عن بعد قطعاً من حجارة أو خشب أو معدن...، أو بأن يمسك بطرف عصا ويدفعه عنه أو يضربه بطرفها الآخر . وقد كان لهذا الأسلوب الجديد أثران كبيران في حياة الإنسان :

أحدهما أنه يضطره إلى الوقوف على رجلين اثنين في أثناء دفاعه عن نفسه . ومن تكرار هذه الوقفة أخذت قامته تعتدل شيئاً فشيئاً حتى استوى القسم الأعلى من جسمه مع أطرافه السفلى ، وأخذت عادة المشي على أربع تضعف بالتدريج حتى انقرضت (وإن كانت تظهر في بعض مراحل الطفولة الإنسانية وفقاً لقوانين الوراثة النوعية التي تقضي بأن يجتاز الطفل في سبيله من الطنؤولة إلى الرجولة نفس المراحل التي اجتازها النوع في سبيله من الحيوانية إلى الإنسانية ومن الوحشية إلى الحضارة) .

وثانيهما (وهو الذي يهمننا في موضوعنا) أن هذا الأسلوب الدفاعي قد أعنى الإنسان من استخدام فكّه وأسنانه في الدفاع عن نفسه ؛ فاعتطلت هذه الأعضاء عن القيام بجزء كبير من وظيفتها ؛ ونجم عن ذلك تقاص العضلات والعظام الصدغية التي تتحرك مع الفم ؛ وترتب على هذا التقلص أن اتسع مجال النمو للججمة فزاد حجمها عما كان عليه ؛ وبتوسع حجم الججمة اتسع مجال النمو للمخ فزاد حجمه ونشأت به مرا كز جديدة لم تكن به من قبل ، من أهمها مرا كز اللغة التي نحن بصدد الكلام عنها .

ولتأيد هذا الأثر الأخير ، قام العلامة أتوني Anthony بتجربة على عدد من الجراء (الكلاب الصغيرة) . وذلك بأن استأصل جزءاً من عضلاتها وعظامها الصدغية ، وتبع نمو جماجمها بعد هذه العملية ؛ فبين له أنها أخذت تتسع أكثر من المعتاد .

وقد تصدى كثير من العلماء المحدثين للتحري عن هذه الحقائق ، فثبت لهم فسادها من نواح كثيرة لا يهمنها الآن إلا الناحية المتعلقة بنشأة مراكز اللغة . فقد ظهر لهم بهذا الصدد أن تعطيل الفك والأسنان ، وإن نجم عنه اتساع في الجمجمة ، لا يترتب عليه مطلقاً اتساع في حجم المخ أو اختلاف في تعاريفه وشكل تكوينه . والتجربة التي قام بها أتوني تدل هي نفسها على صحة ذلك . فقد ظهر له أن جماجم الجراء قد انحسرت عن أمخاخها ، بدليل أن الآثار التي تنطبع عليها من ملاصقتها للمخ قد انمحت . فاتساع الجمجمة الناجم عن تقلص عضلات الصدغ وعظامه لا يتبعه إذن اتساع في حجم المخ أو نشأة مراكز جديدة كما يزعم دارون .

وكثيراً ما تتسع الجمجمة عند بعض الناس اتساعاً غير عادي لسبب آخر غير تقلص عضلات الصدغ وعظامه . ولكن لم يحدث مطلقاً في حالة من حالات هذا الاتساع أن زاد حجم المخ أو تغيرت صورته . وعلى العكس من ذلك نمو المخ نفسه . فإنه يرغم الجمجمة على الاتساع ويشكلها بالشكل الذي يتفق مع نموه . فإن قاومته ، بأن كان عظم اليافوخ (١) قد اشتد قبل أوائه ، تغلب على مقاومتها ، وشق لنفسه طريقاً على أي وجه : فأحياناً يدفعها إلى الأمام فينشأ الشخص بارز الجبهة ؛ وأحياناً يدفعها إلى الخلف فينشأ الشخص أحدب الرأس ؛ وأحياناً يدفعها إلى أعلى فينشأ مسنم الرأس ؛ وأحياناً يدفعها من ناحيتين أو

(١) حيث يلتقي عظم مقدم الرأس بعظم مؤخره وهو الذي يكون لنا في الصبي .

أكثر فينشأ مدنح الرأس (١) ... وهكذا . - فالطريق الطبيعي للارتقاء ، إن كان تمت ارتقاء ، هو أن يتسع المخ أولاً وتوجد فيه مراكز لم تكن موجودة من قبل ويتبع ذلك اتساع في الجمجمة ، لا أن تتسع الجمجمة أولاً ويتبعها اتساع المخ كما يقول دارون ومن نما نحوه .

على أن الارتقائين لم يكونوا في حاجة إلى هذه الفروض التعسفية لتعليل نشأة مراكز اللغة بطريقة تتفق مع مبادئهم . فقد كان في إمكانهم أن يذهبوا إلى أن هذه المراكز لم تنشأ من العدم ، بل كانت نتيجة تطور لمراكز قديمة أو لأجزاء من مراكز قديمة . كان في إمكانهم مثلاً أن يذهبوا إلى أن جزءاً من مراكز الحركة الخاصة بعضلات الوجه Centres des Mouvements des Muscles de La Face قد تخصص في حركة أعضاء النطق . ومع تقادم الزمن وكثرة مزاولته لهذه الوظيفة تشكل بالشكل الذي يتفق معها واستقل عن غيره وأخذ يسير في سبيل الارتقاء حتى وصل إلى الحالة التي هو عليها الآن . كان في إمكانهم أن يقولوا هذا بصدد مراكز الكلام ويقولوا مثله بصدد المراكز اللغوية الأخرى ، فيتقوا معظم ما وجه إلى فروضهم السابقة من اعتراضات ، ويكون مذهبهم أدنى إلى القبول وأكثر اتفاقاً مع حقائق الأمور . وذلك أنه بالموازنة بين مخ الإنسان وأمنخاخ الحيوانات القريبة منه ، يظهر أن مراكزه اللغوية - على فرض أنها لم تكن موجودة في أصل خلقته - كانت نتيجة تشكيل جديد لبعض المراكز الموجودة في أمنخاخ هذه الحيوانات .



(١) « رجل مدنح الرأس أي في رأسه ارتفاع وانخفاض » الخمص لابن سيده جز أول ص ٦٢ .

والعامه قول شخص برأسين ، أوبروس .

- ٥ -

تطور اللغة الإنسانية

أو المراحل الأولى التي اجتازتها اللغة الإنسانية

تقدم أن اللغة الإنسانية قد نشأت ناقصة ساذجة مبهمّة في نواحي أصواتها ومدلولاتها وقواعدها، ثم سارت بالتدريج في سبيل الارتقاء^(١). وقد اختلف الباحثون اختلافا كبيرا في بيان المراحل التي اجتازتها في هذا السبيل .

فبعضهم نظر إلى الموضوع من الناحية الصوتية ، فحاول أن يكشف عما كانت عليه أصوات اللغة الإنسانية في مبدأ نشأتها وعن مراحل ارتقائها . - وقد ذهب معظم هؤلاء، إلى أن اللغة قد سارت بهذا الصدد في ثلاث مراحل :

(المرحلة الأولى) مرحلة الصراخ Le Cri . - وفي هذه المرحلة لم يكن في أصوات اللغة الإنسانية أصوات مد (وهي الأصوات التي نرّمز إليها بحروف اللين) ولأ أصوات ساكنة (وهي الأصوات التي نرّمز إليها بالحروف الساكنة) ؛ وإنما كانت مؤلفة من أصوات مبهمّة تشبه أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعال كالضحك والبكاء والصراخ ، وأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر وجعجة الرحي وصوت القطع والضرب... وهلم جرا .

(والمرحلة الثانية) مرحلة المد Vocalisation ، وفيها ظهرت أصوات

(١) أنظر آخر صفحة ١٠٢ وصفحات ١٠٣ - ١٠٥ .

اللين في اللغة الإنسانية .

(والمرحلة الثالثة) مرحلة المقاطع Articulation ، وفيها ظهرت الأصوات الساكنة في اللغة الإنسانية (الباء ، التاء ، الثاء ... الخ) . ويعتمد أصحاب هذه النظرية في تأييدها على أمور مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم الأولية .

أما فيما يتعلق بالطفل فقد ظهر أن أصواته تجتاز نفس المراحل التي ذكرها أصحاب هذه النظرية . فأصواته في المبدأ يتألف معظمها من الصراخ والأصوات المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ، وظهر الطبيعة ، ثم تكثر لديه في المرحلة التالية أصوات المد ، وفي آخر مرحلة يجتازها قبل أن يظهر لديه التقليد اللغوي ، وهي المرحلة التي يسميها علماء النفس بمرحلة « التمرينات النطقية » ، تكثر في نطقه الأصوات الساكنة (١) . وقد أشرنا فيما سبق إلى أن كثيراً من العلماء يرى أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنساني في هذا المظهر (٢) .

وأما فيما يتعلق بلغات الأمم الأولية فقد لوحظ في كثير منها أن الأصوات المبهمة وأصوات المد تفوق كثيراً الأصوات الساكنة في كميتهما وأهميتها في الدلالة (٣) . وقد تقدم أن هذه الأمم - لبعدها عن

(١) ستكلم عن هذا الموضوع بتفصيل في الفصل الثاني .

(٢) انظر آخر صفحة ١٠٤ وأول صفحة ١٠٥ وتليقها الأول .

(٣) ففي لغات النيجيين والموتوتوت وقبائل أخرى من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية تكثر الأصوات

المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة V. Ribot, op. cit. p 78 .

وفي لغات السياميين والصينيين مثلاً نرى أن معظم ظواهر الدلالة تتصل بحروف المد . فكلما « ما » مثلاً

معناها البحث في لغة السياميين ، فإذا مدت ألفها قليلاً وفتح الهم في نطقها أصبح معناها الوبا . وإذا

مدت قليلاً بدون فتح الهم أصبح معناها حمة .

تيارات الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب النهضات الاجتماعية - تمثل إلى حد كبير الأساليب الإنسانية في عموها الأولى (١).
وليس من بين هذه الأدلة ما يمكن عده برهاناً قاطعاً على صحة هذه النظرية . بل إن معظم المحدثين من علماء اللغة يقطعون بفسادها . وحثهم في ذلك أنه لا يوجد من بين اللغات الإنسانية المعروفة - سواء في ذلك اللغات الحية والميتة ، والراقية والسادجة - لغة خالية من أصوات اللين أو من الأصوات الساكنة ، وأنه من المتعذر تصور لغة إنسانية عارية عن أحد هذين النوعين . هذا إلى أن ظهور الأصوات ذات المقاطع (الأصوات الساكنة) في لغة الإنسان لم يكن ليتوقف على ارتقاء في لغته أو على تطور صوتي أو على مراحل يجتازها في هذا السبيل كما يزعم أصحاب هذه النظرية . لأن الأصوات ذات المقاطع توجد عند كثير من فصائل الحيوانات نفسها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٢) .

وبعضهم نظر إلى الموضوع من ناحية مفردات اللغة ودلالة بعضها على معان جزئية وبعضها الآخر على معان كلية ، وحاول أن يبين أي القسمين كان أسبق ظهوراً من الآخر .

وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم وانقسموا إلى فريقين :
الفريق الأول - وعلى رأسه مكس مولر - يرى أن اللغة الإنسانية قد بدأت بالفاظ دالة على معان كلية ، ثم انشعبت عن هذه الفاظ الكلمات الدالة على المعاني الجزئية . - ودليلهم على هذا أن الأصول المشتركة التي ترجع إليها المفردات في جميع اللغات الهندية - الأوروبية ، والتي تمثل في نظرم اللغة الإنسانية في أقدم عصورها ، تدل على معان

(١) انظر صفحة ١٠٥ . (٢) انظر صفحة ٩٣ وتوابعها .

كلية كما سبقت الإشارة إلى ذلك (١) .

وقد ناقشنا هذه النظرية فيما تقدم فتبين فسادها ، وظهر أن هذه الأصول لا تمثل اللغة الإنسانية في عهودها الأولى ، وأنها بقايا من لغة راقية لم تصل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن اجتازت في حياتها اللغوية مراحل طويلة ، وأن بعض الباحثين يذهب إلى أبعد من هذا فيقرر أننا بصدد أصول نظرية لم تكن يوماً ما لغة كلام (٢) .

والفريق الثالث يرى أن اللغة الإنسانية بدأت بالفاظ دالة على معان جزئية . - وهذا الرأي أدنى إلى الصحة ، وأقرب إلى المعقول ، وتؤيده حالة اللغة عند الطفل وعند الأمم الأولية كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٣) .

وبعضهم يبحث في هذا التطور من ناحية ثالثة قريبة من بعض الوجوه من الناحية السابقة ، فيتساءل عن المراحل التي ظهر فيها كل من الاسم والصفة والفعل والحرف في الكلام الإنساني . وأشهر نظرية بهذا الصدد هي نظرية العلامة ريبو Ribot التي تقرر أن الصفة هي أول ما ظهر في اللغة الإنسانية ، ثم تلتها أسماء المعاني وأسماء الذوات ، ثم ظهرت الأفعال (وبظهور الأفعال دخلت اللغة الإنسانية في أهم مرحلة من مراحل رقيها ، فلا يخفى أهمية الأفعال في الحديث وكثرة وظائفها في الدلالة) ، ثم اختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف (٤) .

وقد اعتمدت في تأييد نظريته هذه على أدلة كثيرة بعضها يرجع إلى لغة الطفل ولغات الأمم الأولية ، وبعضها يرجع إلى بحوث إيتيمولوجية (دراسة أصوات الكلمات) أو نفسية . فمن ذلك أن الأصول الهندية

(١) أنظر ص ٩٩ . (٢) أنظر صفحتي ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) أنظر صفحتي ١٠١ ، ١٠٢ . (٤) أنظر Ribot, op. cit, 88 - 96 .

الأوروبية التي كشفها « مكس مولر » يتألف معظمها من كلمات دالة على صفات ، وفي هذا دليل على أن الصفات كانت أسبق الكلمات ظهوراً في اللغة الإنسانية ؛ - وأن معظم أسماء المعاني وأسماء الذوات مشتقة في كثير من اللغات من كلمات دالة على صفات (grand, grandeur; free, freedom ... etc) ، وفي هذا دليل على أن الأسماء لم تظهر في اللغة الإنسانية إلا بعد ظهور الصفات ؛ - وأن معظم الأفعال في اللغات الهندية الأوروبية مأخوذة من كلمات دالة على صفات أو أسماء مضاف إليها بعض حروف من ضمائر ، وفي هذا دليل على أن الأفعال قد ظهرت بعد ظهور الصفات والأسماء ؛ - وأن كثيراً من لغات الأمم الأولية مجردة من الحروف ^(١) ، وأن لغة الطفل لا تظهر فيها الحروف إلا في آخر مرحلة من مراحلها ، ففي المراحل الأولى ينطق الطفل بأجزاء الجملة عارية عن الحروف وعن علامات الربط ^(٢) ، وفي خلو اللغات الأولية ولغة الطفل في مراحلها الأولى من الكلمات الدالة على الحروف دليل على أنها كانت آخر ما ظهر في اللغات الإنسانية .

وليس من بين هذه الأدلة ما ينهض برهاناً قاطعاً على صحة هذه النظرية . بل إنها ظاهرة الخطأ في بعض نواحيها ، وخاصة إذ تقرر أن الصفات كانت أسبق ظهوراً في اللغة الإنسانية من أسماء الذوات . ففي هذه الناحية يوجه إليها نفس المآخذ التي وجهناها إلى نظرية مكس مولر ^(٣) .

وبعضهم يبحث في هذا التطور من ناحية رابعة تتعلق بقواعد الصرف والتنظيم (المورفولوجيا والسنتكس ^(٤)) .

(١) سيأتي الكلام عن ذلك في اللغات غير العصرية (أظن آخر ص ١١٦ و ص ١١٧) .

(٢) سيأتي الكلام عن ذلك بتفصيل في الفصل الثاني .

(٣) أظن صفحتي ١٠١ ، ١٠٢ . (٤) أظن صفحات ٧ - ٩ .

وأشهر نظرية بهذا الصدد هي النظرية التي قال بها العلامة شليجل Schlegel وتابعه فيها جمهرة كبيرة من علماء اللغة . وهي تقسم اللغات الإنسانية من هذه الناحية إلى ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) اللغات « المتصرفة » ، Flexionnelles, ou, à Flexion ، أو التحليلية Analytiques . . - ويمتاز هذا القسم من ناحية «المورفولوجيا» بأن كلماته تتغير معانيها بتغير أبنيتها ، ومن ناحية «الستكس» ، بأن أجزاء الجملة يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة تدل على مختلف العلاقات . - وذلك كاللغة العربية . فان كلماتها تتغير معانيها بتغير بنيتها : فتقول علم للدلالة على المصدر ، وعلم للدلالة على الفعل في الماضي ، وعلم للدلالة على تعدى الفعل ، وأعلم للدلالة على الأمر ، والعلوم للدلالة على جمع العلم ، والمعلوم للدلالة على ما وقع عليه العلم ، والعلامة للدلالة على وسيلة العلم . . . وهلم جرا . هذا من ناحية الصرف ؛ أما من ناحية التنظيم فان عناصر جملها يتصل بعضها ببعض عن طريق روابط مستقلة تشير إلى مختلف العلاقات : فتقول مثلا ذهب محمد وعلى من المنزل إلى الجامعة ، فتأتي بالوار للدلالة على عطف عنصر من عناصر الجملة على آخر ، وبين للدلالة على الابتداء ، وبإلى للدلالة على الانتهاء . - وما قيل في اللغة العربية يقال مثله في بقية اللغات السامية وفي اللغات الهندية - الأوروبية .

وسميت هذه الطائفة من اللغات « بالمتصرفة » لتغير أبنيتها بتغير المعاني ؛ « وبالتحليلية » لما تتخذ حيا لجملة من تحليل أجزائها وربطها بعضها ببعض بروابط تدل على العلاقات .

(القسم الثاني) اللغات « اللصقية » أو « الوصلية » ، Agglutinantes , ou, Agglomérantes, ou, Synthétique . - ويمتاز هذا القسم من ناحيتي المورفولوجيا والستكس بأن تغير معنى الأصل وعلاقته بما عداه من

أجزاء الجملة يشار إليهما بحروف تلصق به . وتوضع هذه الحروف أحيانا قبل الأصل فتسمى « سابقة » Préfixes وأحيانا بعده فتسمى « لاحقة » Suffixes^(١) . وبعض هذه الحروف ليس له دلالة مستقلة؛ ولكن معظمها كان في الأصل كلمات ذات دلالة ثم فقدت معانيها وأصبحت لا تستخدم إلا مساعدة للدلالة على تغير معنى الأصل الذي تلصق به أو للإشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة . ومن أشهر لغات هذه الفصيلة اللغة اليابانية واللغة التركية وبعض لغات الامم الأولية كلغة الأيروكويين Iroquois^(٢) والبتويين Bantous^(٣) .

وسميت هذه اللغات « باللصقية » أو « الوصلية » للطريقة التي تتبعها حيال الأصل إذ تلصق به حروفا زائدة عن حروفه لتوضيح المعنى المقصود منه أو للإشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة .

(القسم الثالث) اللغات « غير المتصرفة » Monosyllabiques أو

(١) يختلف هذا الأسلوب باختلاف اللغات . فبعض اللغات اللصقية تستخدم الحروف « السابقة » كاللغة البتوية ، وبعضها يستخدم الحروف « اللاحقة » كالتركية ، فنزل في التركية مثلا يقال له إو Ew ، فاذا أردت أن تقول خارج المنزل ألصقت بآخره دالا مكسورة ونونا للدلالة على المجاوزة فتقول إودن Ewden ، وإذا أردت جمعه ألصقت بآخره لا ما مكسورة وراء فتقول إولر Ewler ، وإذا أردت أن تقول خارج المنزل ألصقت بالجمع الدال والنون الدالتين على المجاوزة فتقول إولردن Ewlerden .

وقد يجتمع الطريقتان في لغة واحدة فتستخدم أحيانا الحروف السابقة وأحيانا الحروف اللاحقة .

(٢) عشائر من المنود الجر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) . - وقد يلحق بالأصل الواحد في لغتهم عدد كبير من هذه الحروف للدلالة على كثير من العلاقات والمعاني ، فتصبح الكلمة الواحدة كثيرة الأصوات كبيرة المدلول . وقد روى العلامة ريبو أنه توجد في لغتهم كلمة واحدة تدل على ما يأتي: « أطلب تقودا من هؤلاء الذين جاؤوا ليشتروا مني الأقمشة » . ويكثر كذلك هذا النوع من الكلمات الطويلة بلغة الاسكيمو . V. Ribot, op. cit. 86 .

(٣) يطلق هذا الاسم على سكان القسم الجنوبي بأفريقيا الاستوائية (ما عدا قبليتي الهوتانتوت والبوشيان Hottentots, Bochimans) . - وترجع لغاتهم إلى فصيلة واحدة على الرغم من اختلاف أصولهم الشعبية .

« العازلة » Isolantes . - ويمتاز هذا القسم من ناحية « المورفولوجيا » بأن كلماته غير قابلة للتصرف لا عن طريق تغيير البنية ولا عن طريق لصق حروف بالأصل . فكل كلمة تلازم شكلا واحدا وتدل على معنى ثابت لا يتغير . ويمتاز من ناحية « السنكس » بعدم وجود روابط بين أجزاء الجملة للدلالة على وظيفة كل منها وعلاقته بما عداه ، بل توضع هذه الأجزاء بعضها بجانب بعض ، واستفاد وظائفها وعلاقاتها من ترتيبها أو من سياق الكلام . - ويدخل في هذا القسم اللغة الصينية وكثير من لغات الأمم الأولية .

وسميت هذه اللغات « بغير المتصرفة » لأن كلماتها لا تتصرف ولا يتغير معناها ، و « بالعازلة » لأنها تعزل أجزاء الجملة بعضها عن بعض ولا تصرح بما يربطها من علاقات .

ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الإنسانية في مبدأ نشأتها كانت من النوع الثالث (اللغات غير المتصرفة) ؛ ثم ارتقت إلى النوع الثاني (اللغات اللصقية) ؛ ولم تصل إلى حالة النوع الأول (اللغات المتصرفة) إلا في آخر مرحلة قطعتها في هذا السيل . - غير أن بعض اللغات الإنسانية قد وقفت في نموها فلم تتجاوز المرحلة الأولى كاللغة الصينية ، أو لم تتجاوز المرحلة الثانية كاليابانية والتركية .

ويستدلون على صحة هذه النظرية بأدلة مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم الأولية ، على النحو الذي تقدم شرحه في النظريات السابقة . ولكن ليس من بين أدلتها ما ينهض برهاننا قاطعا على صحتها . بل قامت أدلة كثيرة على خطئها . فمن ذلك أن الأساليب الثلاثة التي تعرض لها (التصرف واللصق والعزل) توجد مجتمعة في كل لغة إنسانية ، وأنه من المتعذر أن نعثر على لغة عارية عن أسلوب منها . فاللغة العربية ، كما يوجد بها مظاهر من أسلوب التصرف والتحليل

كما تقدم، يوجد بها مظاهر كثيرة من الأسلوبين الآخرين. فهي تسير على طريقة اللصق بالحروف « اللاحقة » و « السابقة » في حالات كثيرة كجمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم والتعدى بالهمزة (قائم، قائمون - زينب، زينبات - قام على، وأقام على الصلاة) ... وهلم جرا. وتسير كذلك على طريقة العزل في كثير من التراكيب: فجملة المبتدأ والخبر مثلا لا يرتبط عنصراها غالبا بأى رابط ملفوظ، وإنما تفهم العلاقة بينهما من ترتيبهما أو من السياق (محمد القائم، والقائم محمد ... الخ). وكذلك جميع اللغات الهندية - الأوروبية. فالإنجليزية والفرنسية مثلا تسيران أحيانا على طريقة التصريف والتحليل: je vois, je voyais, je vis, nous voyons, voir, la vue. - Vous voyez que La Linguistique est une science sociale .

I see, I saw, I have seen, to see, the sight. - you see that the science of Languages is a social one.

وتسيران أحيانا على طريقة اللصق: J'ajoute, J'ajouterai, tigre, tigresse .

I care, I cared - careful, carefulness .

Pierre bat Paul. - وتسيران أحيانا على طريقة العزل:

(ففي هذه الجملة لا يميز الفاعل من المفعول إلا مجرد ترتيبه) Tom beats Dick.

ومثل هذا يقال في جميع اللغات الإنسانية. - فلسنا إذن بصدد

فصائل لغوية متميزة، بل بصدد أساليب مستخدمة في جميع اللغات.



الفصل الثاني

لغة الطفل ومراحلها

ومبلغ تمثيلها لذشاة اللغة الانسانية وتطورها



- ١ -

أنواع الأصوات فى الطفولة وأساس كل منها

يرجع أهم ما يلفظه الطفل من أصوات إلى الأنواع الآتية :

١ - « الأصوات الوجدانية ، أو « أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات ، . وهى الأصوات الفطرية التى تصدر من الطفل فى أثناء تلبسه بحالة انفعالية . كالأصوات التى تصدر منه فى حالات الخوف والالم والجوع والفرح والغضب والسرور والدهشة ، كالبكاء والضحك ومختلف أنواع الصراخ الوجدانى .

وهذا النوع فطرى عند الطفل ، يصدر منه بشكل غير إرادى وبدون سابق تجربة وتعليم ، وتثيره الحالات الجسمية والنفسية أليها وسارها . وهذه الإثارة قائمة على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بالحالات الجسمية والنفسية بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلى وتلفظ أصواتا معينة عند وجود حالة من هذه الحالات . فالطفل إذ يلفظ هذه الأصوات تحت تأثير الحالة الجسمية أو النفسية أشبه شىء بساعة الحائط إذ تدق أجراسها بشكل آلى حينما تصل مشيراتها (عقاربها) إلى نقط خاصة ، وتختلف دقاتها نوعا وكمية باختلاف هذه النقط .

ويتألف هذا النوع من أصوات مبهمه (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهي التي نرزم إليها بحروف المد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع (وهي التي نرزم إليها بالحروف الساكنة) .

هذا ، ويصحب انفعالات الطفل كذلك طائفة من المظاهر الجسمية المرئية كصفرة الوجه وحمرة ووقوف شعر الرأس وضيق الحدة واتساعها وفتح الفم وانقباض عضلات الوجه وانبساطها وفتح الأسارير وانكاشها ... وهلم جرا . وهذه المظاهر قائمة على نفس الأسس الطبيعية القائمة عليها الأصوات الوجدانية . فهي فطرية غريزية تصدر من الطفل بدون سابق تجربة وتعليم ويثيرها بطريقة آلية ما يتلبس به الطفل من انفعال .

٢- « الأصوات الوجدانية الإرادية » . - وهي أصوات النوع السابق حينما يستعملها الطفل استعمالاً إرادياً . وذلك أن الأصوات الوجدانية الفطرية التي تقدمت الإشارة إليها يدرك المحيطون بالطفل مصادرها ومثيراتها فيعملون على وقفها بتحقيق ما يعوز الطفل وقضاء ما يحتاج إليه . ومن تكرار سلوكهم هذا ، يدرك الطفل أن هذه الأصوات من شأنها أن ترغم الكبار على تحقيق رغباته . فيلفظها أحياناً بشكل إرادى قاصداً بها التعبير عن حالة قائمة به أو عن مطلب من مطالبه . فتراه مثلاً يتعمد البكاء أو الصراخ أو يتنادى فيهما بشكل إرادى حتى تحمله مريته أو ترضعه أو تبعد عنه هنة لا يريدتها ... وهلم جرا . - وتسمى حينئذ هذه الأصوات « بالأصوات الوجدانية الإرادية » .

وما يتخذة حيال الأصوات يتخذة أحيانا حيال الحركات الجسمية المعبرة عن الانفعالات . فقد يقوم ببعض هذه الحركات بشكل إرادى .

قاصدا بها التعبير عما يساوره من انفعال أو يبغى تحقيقه من رغبة .
فقد يعتمد مثلا تقطيب وجهه أو تحريك يديه حركات عنيفة للتعبير
بشكل إرادي عن غضبه ، وقد يعتمد قبض عضلات الوجه للتعبير عن
كراهته لشيء أو اشمئزازه منه ... وهلم جرا .

وهو في الحالين (حالة الصوت الإرادي وحالة الحركات الإرادية)
يحاكي نفسه في حالتها الطبيعية الفطرية ، فيمثل بشكل إرادي ما يصدر
عنه عادة بشكل آلي فطري .

٣ - « أصوات الإثارة السمعية » . - وهي أصوات فطرية غير
تقليدية تصدر من الطفل في شهوره الأولى حينما يسمع بعض الأصوات .
ففي هذه المرحلة نرى أن سماع الطفل لبعض الأصوات (وبخاصة
الأصوات المرتفعة) يثير أعضاء صوته ويجعلها تلفظ بشكل آلي
أصواتا غير تقليدية (أي لا تحاكي الأصوات المسموعة) شبيهة بأصواته
الوجدانية التي أشرنا إليها فيما سبق . - ويحدث هذا عند سماعه أحد
المحيطين به يناغيه أو يتحدث بصوت عال أو عند سماعه صوت حيوان
أو آلة موسيقية ... وهلم جرا (١) .

ويتألف هذا النوع ، كما يتألف النوعان السابقان ، من أصوات
مبهمة (تشبه أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهي
التي نرزم إليها بحروف المد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع
(وهي التي نرزم إليها بالحروف الساكنة) .

وقد ثبت أن هذه الأصوات ليست إرادية ولا تقليدية ، بل فطرية
آلية تصدر بدون تدخل إرادة الطفل ولا تتجه إلى محاكاة أمر ما .
وهي قائمة على أسس طبيعية شبيهة بالأسس القائمة عليها الأصوات
الوجدانية فكما أن تلبس الطفل بحالة انفعالية يثير أعضاء صوته ،

(١) انظر تفصيل هذا بكتابي « في التربية » ص ٧٠ .

فتتحرك بشكل آليّ وتلفظ الأصوات الوجدانية السابق ذكرها ؛ كذلك سماع الطفل في هذه المرحلة لبعض الأصوات ؛ فإنه يثير أعضاء لفظه فتتحرك بشكل آليّ وتلفظ الأصوات التي نحن بصدد الكلام عنها . فكلما النوعين فطريّ آليّ قائم على روابط طبيعية . وكل ما بينهما من فرق ينحصر في أن الأول مؤسس على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آليّ وتلفظ أصواتا خاصة عند وجود حالة من هذه الحالات ؛ على حين أن الثاني قائم على روابط طبيعية تربط جهاز السمع بجهاز الصوت بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثاني تتحرك بشكل آليّ وتلفظ أصواتا مبهمّة عند وصول أصوات إلى الجهاز الأول .

٤ - « أصوات التمرينات النطقية » Exercices vocales أو « اللعب

اللفظي » Jeu vocal أو « اللغظ » Babillage .

يظهر لدى الطفل حوالي الشهر الخامس ميل فطريّ إلى اللعب بالأصوات وتمارين أعضاء النطق . فيقضى فترات طويلة من وقته في إخراج أصوات متنوعة عارية عن الدلالة وعن قصد التعبير . - وقد سمى الباحثون هذا النوع من الأصوات بالتمرينات النطقية أو اللعب اللفظي أو اللغظ (١) .

وينتظم هذا النوع جميع الأصوات المدية والمقطعية (حروف اللين والحروف الساكنة) التي يمكن أن تلفظها أعضاء النطق الإنساني . ولذلك كثيراً ما نجد من بينها أصواتا غريبة عن اللغة التي ينطق بها آباء الطفل . فكثيراً ما يرد فيما يلفظه أطفالنا المصريون من هذا النوع

(١) قد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل الشهر الخامس ، فقد لاحظته عند

ابنتي حنا في أول الشهر الثالث (ابتداء ظهوره لديها يوم ٢٧ - ٣ - ٣٤ وقد ولدت يوم ٢٥ -

١ - ٢٤) .

أنواع الأصوات في الطفولة وأساس كل منها ١٢٣

أصوات لا وجود لها في لغتنا كالأصوات التي يرمز إليها في الفرنسية بهذه الحروف: V, p, g, eu .

ولا يرمى الطفل من وراء هذه الأصوات إلى محاكاة أو تعبير . وإنما تدفعه إليها غرائزه دفعا كما تدفعه إلى سائر ألعابه ، ويجدلنة كبيرة في مجرد لفظها كما يجدلنة في القيام بألعابه الأخرى .

ويظهر أن الغرض الذي ترمى إليه الطبيعة من دفع الطفل إلى هذا النوع من الألعاب هو تدريب أعضاء نطقه على القيام بوظائفها العامة وإعداده إعداداً تاماً للرحلة التالية وهي المرحلة التي يأخذ فيها اللغة عن طريق محاكاته لما يسمعه من المحيطين به (١) .

٥ - الأصوات التي يحاكي بها الطفل أصوات الأشياء والحيوانات (هزيز الريح ، حفيف الشجر ، خرير الماء ، جعجعة الرحي ، صرير الباب ، درداب الطبل ، طنطنة الأوتار ، دقات الساعة ، نفير السيارة - صهيل الفرس ، نهيق الحمار ، خوار البقر ، ثغاء الغنم ، نباح الكلب مواء الهر ، صياح الديك ، هديل الحمام ، نعيق الغراب ... وهلم جرا) . وتعتمد هذه الأصوات على استعداد فطري عند الطفل ، وهو غريزه المحاكاة . ولكنها ، مع ذلك ، تصدر بشكل إرادي . ويرمي الطفل من ورائها إلى غايات معينة . فهو يرمى أحياناً إلى مجرد التلذذ بالمحاكاة أو إثبات قدرته على التقليد ، وأحياناً إلى التعبير عن أمور تتصل بالشئ أو الحيوان الذي يحاكي صوته ، كأن يحاكي صوت الكلب للتعبير عن رغبته في رؤيته أو عن قدومه ... وما إلى ذلك .

٦ - الأصوات المركبة ذات المقاطع والدلالات الوضعية التي

(١) أنظر تفصيل هذا الموضوع بكتابي « في التربية » صفحات ٣١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ . - والغرض الذي أشرنا إليه وهو الإعداد للحياة المستقبلية ليس مقصوراً على الألعاب اللفظية بل مشتركاً في جميع الألعاب الانسانية .

تألف منها الكلمات وتتكون منها اللغة .

وهذا النوع من الأصوات يأخذه الطفل عن المحيطين به بطريق التقليد ، ويندفع إليه تحت تأثير ميله الفطري إلى المحاكاة . ولكنه ، مع ذلك ، إرادى فى تكونه وفى استخدامه . أما فيما يتعلق بتكونه ، فهو لا يصدر من الطفل بشكل آلى كما تصدر أصواته الوجدانية مثلاً ؛ بل يبذل الطفل فى إصداره وإصلاح خاطئه وتكملة نقصه وجعله مطابقاً للصوت الذى يحاكيه مجهوداً إرادياً ويشرف على جميع هذه الأمور إشرافاً مقصوداً . وأما فيما يتعلق باستخدامه ، فإن الطفل يلفظه مريداً به التعبير عن المعانى والحقائق التى يدل عليها . وذلك أن هذه الطائفة من الأصوات لا تنتقل إلى الطفل مجردة ، بل تنتقل إليه حاملة معها معانيها . فهو يدرك ما تدل عليه من سياق أعمال المتكلمين بها ومن الحركات اليدوية والجسمية التى تصحبها ومن الإشارة الحسية إلى مدلولاتها وهلم جرا . فيحاكيها متصوراً معانيها تصوراً كاملاً أو ناقصاً تبعاً لمبلغ الدقة فى ملاحظته . وكلما اكتسب لفظاً منها عن هذا الطريق احتفظ به إلى حين الحاجة إليه ؛ فيلفظه كلما أراد التعبير عن مدلوله (١) .



(١) هناك نظريات أخرى كثيرة فى الأساس القائم عليه هذا النوع من الأصوات ، منها نظرية لودانتك التى يقرر عكس ماقررناه ، فيذهب إلى أن هذا النوع آلى فى منفعته وأنه شبيه فى ذلك بأصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات . - وقد درسنا هذه النظريات بتفصيل فى كتابنا فى التربية ٦٨ - ٧٣ . - والنظرة التى اقتصرنا عليها هى النظرية الصحيحة المنفقة مع حقائق الأمور .

أنواع التعبير في الطفولة وأساس كل منها

عرضنا في الفقرة السابقة لجميع أنواع التعبير في الطفولة ما عدا نوعاً واحداً لم تدع إلى الكلام عنه مناسبة ما في الموضوع السابق ، وهو التعبير الإرادى عن المعانى عن طريق الإشارات اليدوية والجسمية . وإلى هذا النوع من التعبير يلجأ الطفل في جميع مراحل طفولته ؛ فيستخدمه أحياناً مستقلاً عن غيره (كأن يمد يده ويفتح كفه للتعبير عن رغبته في الحصول على شيء ما ، أو يمد يده نحو شخص ويقبض أصابعه ويبسطها للتعبير عن رغبته في مجيئه بجانبه ، أو يقبض أصابعه ويقربها من شفثيه محاكياً حركة الشرب للتعبير عن حاجته إلى الماء ، أو يهوى يده بحركة عنيفة للتعبير عن الضرب... وهلم جرا) ؛ وأحياناً يستخدمه مع الكلام لتكملة ما ينقص حديثه ويعوزه من دلالة أو لتوكيد المعانى وتمثيل الحقائق وزيادة التوضيح .

وبإضافة هذا النوع إلى الأنواع التي عرضنا لها في الفقرة السابقة ، يتبين أن مظاهر التعبير في الطفولة ترجع إلى سبعة أقسام :

- ١ - التعبير الطبيعي عن الانفعال عن طريق الأصوات ؛
- ٢ - التعبير الطبيعي عن الانفعال عن طريق الحركات الجسمية ؛
- ٣ - التعبير الإرادى عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الأول ؛
- ٤ - التعبير الإرادى عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الثانى ؛
- ٥ - التعبير عن المعانى عن طريق محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة ؛

٦ - التعبير عن المعانى عن طريق اللغة (الجمل والكلمات) .

٧ - التعبير عن المعاني عن طريق الإشارات اليدوية والجسمية .
 ومجمل هذا أن التعبير في الطفولة لا يخرج عن طائفتين : تعبير عن
 الانفعالات وتعبير عن المعاني
 أما التعبير عن الانفعالات فيكون أحيانا طبيعيا وأحيانا إراديا
 يحاكي فيه التعبير الطبيعي ، وكلاهما يكون عن طريق الصوت أو عن
 طريق الحركة .
 وأما التعبير عن المعاني فلا يكون إلا إراديا ، ويحدث أحيانا عن
 طريق الإشارة اليدوية أو الجسمية ، وأحيانا عن طريق محاكاة أصوات
 الحيوانات والأشياء ، وأحيانا عن طريق اللغة .

- ٣ -

المراحل التي يجتازها الطفل في أصواته وتعبيراته

يجتاز الطفل في هذه السبيل ثلاث مراحل :
 (المرحلة الأولى) من الولادة إلى حوالي الشهر الخامس .
 وفي هذه المرحلة لا يظهر من أنواع الأصوات الستة السابق
 ذكرها إلا الأنواع الثلاثة الأولى (الأصوات الوجدانية ، و الأصوات
 الوجدانية الإرادية ، و أصوات الإثارة السمعية) . (١)
 أما تعبيرات الطفل في هذه المرحلة فتتظم جميع أنواع التعبير
 السابق ذكرها (٢) ما عدا النوعين الخامس والسادس (التعبير عن المعاني
 عن طريق اللغة ، والتعبير عن المعاني عن طريق محاكاة أصوات
 الحيوان والأشياء) .
 فيبدو لديه في هذه المرحلة التعبير الطبيعي عن الانفعال في

(١) انظر صفحات ١١٩ - ١٢٢ . (٢) انظر ص ١٢٥ .

مظهرية الصوتي والحركي (البكاء ، الصراخ ، الضحك - الابتسام ، انقباض الأسارير وانبساطها ، احمرار الوجه ، اصفراره ، ارتعاش الجسم ، وقوف شعر الرأس ... وهلم جرا) . - وتختلف هذه التعبيرات في موعد ظهورها . فأول ما يظهر من أنواعها الصوتية هي الأصوات الدالة على الألم الجسمي وعن الجوع ... وما إلى ذلك ؛ ثم تظهر بعد ذلك (في أواخر الشهر الثاني تقريبا) الأصوات المعبرة عن الألم النفسي كأصوات الحزن والإخفاق وضيق الصدر ... ؛ أما الأصوات المعبرة عن الحالات السارة جسميا ونفسيا كالفرح والطمأنينة والارتواء والشبع فلا تبدو إلا في منتصف هذه المرحلة أو في أواخرها . - وتسير التعبيرات الحركية في مواقيت ظهورها على سنن قريب من سنن التعبيرات الصوتية .

ويبدو لدى الطفل كذلك في هذه المرحلة ، مظاهر التعبير الوجداني الإرادي ، . فكثيراً ما يعتمد الصبي في شهوره الأولى محاكاة تعبيره الطبيعي ليقف المحيطين به على حالة وجدانية متلبس بها أو ليحملهم على تحقيق رغبة من رغباته (يتعمد مثلاً الصراخ أو البكاء ليقضى له مطلب ما) .

ويبدو لديه كذلك بعض مظاهر من التعبير عن المعاني عن طريق الإشارة . فكثيراً ما يلجأ إلى الإشارات اليدوية والجسمية للتعبير عما يهيمه التعبير عنه . كأن يمد يده ويضم أصابع كفه للإشارة إلى شخص بالدنو منه ، وكأن يدفع شخصاً بيده للتعبير عن رغبته في أن يبعد عنه ... وهلم جرا .

(المرحلة الثانية) من الشهر الخامس إلى أواخر السنة الأولى .
وتتماز هذه المرحلة عن المرحلة السابقة من الناحية الصوتية بظهور نوع رابع من الأصوات وهي أصوات « الترينات النطقية » ، أو « اللعب

اللفظي، أو «اللغظ» التي تكلمنا فيما سبق عن طبيعتها ووظائفها وأسسها (١). ويتألف معظمها في المبدأ من أصوات لينتة (حروف مد). ثم تكثر فيها بعد ذلك الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة). أما فيما يتعلق بأنواع التعبير، فلا يظهر منها لدى الطفل في هذه المرحلة أي نوع جديد. ولكن ترقى لديه الأنواع القديمة التي تكلمنا عنها في المرحلة السابقة، وبخاصة الإرادية منها. فتكثر محركاته الإرادية لوسائل التعبير الفطري، وتتهذب طرق تعبيره بالإشارة، ويتسع نطاقه، وتضبط دلالاته.

وفي هذه المرحلة يفهم الطفل كثيراً من الكلمات والجمل التي ينطق بها المحيطون به بدون أن يستطيع محركاتها. ويساعده على فهمها سياق أعمال المتكلمين وما يصدر عنهم في أثناء النطق بها من حركات يدوية وجسمية، وإشارتهم إلى مدلولها... وهلم جرا... فإذا كلف الطفل في هذه المرحلة أمراً ما (اقفل الباب، هات الكوب، ضع عروسك في العربة...) أو طلب إليه الإشارة إلى عضو أو إنسان أو هنة (أين أنفك، فك، ثديك، أبوك، أمك، عمك، سريرك، عروسك...) أجاب بحركات يده وجسمه إجابة صحيحة تدل على فهمه لما سمعه (٢).

(المرحلة الثالثة) مرحلة التقليد اللغوي .

تبدأ هذه المرحلة عند العاديين من الأطفال في أواخر السنة الأولى أو أوائل الثانية؛ وتنتهي في الخامسة أو السادسة أو السابعة. أما غير العاديين من الناحية اللغوية فقد لا تبدأ لديهم إلا في أواخر السنة الثانية

(١) انظر صفحتي ١٢٢، ١٢٣. - وقد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل

الشهر الخامس كما سبقت الإشارة إلى ذلك بالتعليق الأول بصفحة ١٢٢.

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع بكتابي « في التربية » صفحات ٧٦، ٨٨، ٨٩، ٩٠.

أو أوائل الثالثة ، ويتأخر تبعاً لذلك موعد انتهائها .

وفي هذه المرحلة يظهر النوعان الخامس والسادس من أنواع الأصوات السابق ذكرها (محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة بقصد التعبير عن مصادرها أو عن أمور تتصل بها ، ومحاكاة الكلمات بقصد التعبير عن مدلولاتها) .

وبظهور هذين النوعين من الأصوات يظهر نوعان جديدان في تعبير الطفل : التعبير عن المعاني عن طريق محاكاة الأصوات الحيوانية وأصوات الأشياء ، والتعبير عن المعاني عن طريق محاكاة الأصوات اللغوية (أى عن طريق اللغة) .

وتسير المحاكاة في هذه المرحلة على أساليب خاصة بعضها يتعلق بالأصوات وبعضها يتعلق بالدلالة . - وستكلم عن كل منهما على حدة :

(أولاً) الأساليب المتعلقة بالأصوات ؛ ومن أهمها ما يلي :

١ - أن الطفل يحاكي في مبدأ الأمر الكلمات التي يسمعها محاكاة خاطئة ، ولا يزال يصلح من فاسد نطقه شيئاً فشيئاً ، مستعيناً بالتكرار ومعتمداً على مجهوده الإرادى ومستفيداً من تجاربه ، حتى تستقيم له اللغة : ففي أواخر هذه المرحلة لا يكاد يوجد فرق بين لغته ولغة آباءه .^(١) ومظاهر أخطائه في هذه الناحية كثيرة من أهمها ما يلي :

(١) أنه يغير الأصوات فيحل محل الصوت الأصلي صوتاً آخر قريباً منه في المخرج أو بعيداً عنه (ويغلب أن يكون قريباً منه) ؛ فينطق مثلاً الكاف تاء (تاء = كتاب ؛ الستينة = السكينة ... الخ) ، والشين سينا (سحر = شعر ... الخ) ، والفاء باء (يبي = فيبي ... الخ) ،

(١) سيظهر عند كلامنا عن الفونيتيك ومناقشة نظرية روسلو بعض الأصوات أن لغة الخلف لا تكون مطابقة في أصواتها كل المطابقة للغة السلف .

والعين أو الخاء همزة (نثناه = نعاة ؛ نام = نعم ؛ أد = خد) ،
واللام نونا (نمته = نملة) . . . وهلم جرا . وقد ينال هذا التغيير معظم
حروف الكلمة ، فلا يكاد يبقى فيها شيء من أصواتها الأصلية
(ساساته = شو كولاته (١)) .

ويظل هذا النوع من الخطأ ملازماً للطفل حتى أواخر هذه المرحلة .
فقد لازم ابنتي عفاً حتى أوائل سنتها الخامسة ؛ بل لا تزال إلى اليوم
(وسنها الآن خمس سنين وثلاثة أشهر) تجد بعض الصعوبة في النطق
بالشين وتميل إلى قلبها سينا (وكان هذا آخر مظهر لديها من مظاهر
الخطأ الذي نحن بصدده) .

غير أن نوع الحروف التي ينالها التغيير وكميتها . . . كل ذلك
يختلف باختلاف السن .

(ب) أنه يحرف أصوات الكلمة عن مواضعها ، فيجعل اللاحق
منها سابقاً والسابق لاحقاً .

ويلازمه هذا النوع من الخطأ مدة طويلة . فلم تتحرر منه ابنتي
عفاً إلا في أواسط السنة الرابعة . ففي الشهر الخامس من سنتها الرابعة
كانت لا تزال تقول « إمسو » بدل اسمو (اسمه) ، و « جمزة » بدل
جمزة (حذاء) ، و « أحبسو » بدل أحسبو (أحسبه) . . . وهلم جرا .
(ح) لا ينطق بجميع أصوات الكلمة بل يكتفى بلفظ بعضها .
والجزء الذي يناله الحذف هو غالباً الجزء الأخير (تت = تحت ، مد =
منديل ، بس = فستان . . . الخ) .

وترجع هذه الأخطاء الصوتية جميعها إلى ضعف أعضاء النطق عند
الطفل في مبدأ هذه المرحلة ، وضعف ادراكه السمعي وذاكرته السمعية ،
وقلة المران ، وتأثر عناصر الكلمة بعضها ببعض . . . وهلم جرا .

(١) كل هذه الكلمات مأخوذة من لغة ابنتي عفاً في هذا البرود .

وكلما تقدمت به السن واشتدت أعضاء صوته ودقت حاسة سمعه وقويت ذاكرته ، حسن نطقه وقلت أخطاؤه . ويعينه في هذا السبيل ما يبذله المحيطون به من جهود لإصلاح نطقه ، إذ يكررون له الكلمة عدة مرات ، أو ينطقونها على مهل متميزة الحروف ، أو ينطقونها بصوت مرتفع . . . وما إلى ذلك .

وإلى الأخطاء السابقة وما إليها يرجع السبب في صعوبة فهم حديثه على غير المحيطين به . وقد خيل إلى بعض الباحثين أن الطفل يخترع اختراعا بعض كلمات في مبدأ هذا الدور . والحق أن الطفل لا يأتي بمجديد من عنده ، وأن الكلمات التي يظن أنها من اختراعه ترجع جميعها إلى كلمات تقليدية : فبعضها محاكاة محرقة كثرت فيها الأخطاء السابق ذكرها حتى بعدت عن أصلها بعداً كبيراً ؛ وبعضها محاكاة صحيحة لكلمات يتعمد بعض الملازمين للطفل أن ينطقوا بها نطقاً محرفاً يتفق مع طريقة نطقه : فهذه الكلمات هي من اختراع الكبار لا من اختراع الطفل .

٢ - يولع الطفل في مبدأ هذه المرحلة بتكرار المقاطع والكلمات عدة مرات (بابا بابا بابا = بابا أي الوالد ، ماما ماما ماما = ماما أي الأم . . . وهكذا معظم الكلمات) . وهذا راجع إلى أسباب كثيرة : منها أن النشاط الحركي يتجه دائماً إلى الأشكال المتماثلة والأوضاع المتشابهة ، ومنها أن إيقاف الحركة فجأة يتطلب مجهوداً أكبر من المجهود الذي يتطلبه استمرارها ، فالطفل بتكراره هذا يميل بفطرته إلى أخف المجهودين (وإلى هذا يرجع السبب في حدوث هذه الظاهرة نفسها عند الكبار أحياناً وخاصة حينما يتكلمون بسرعة) .

٣ - في مبدأ هذه المرحلة تكثر في لغة الطفل أصوات اللين (حروف المد) وتقل الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة) .

فيحذف من كل كلمة من كلماته عدداً من حروفها الساكنة ويضيف إليها حروفاً لينة ليست فيها (كآبا = كلب ، باتى = برنيطة ... الخ).

٤ - وفي مبدأ هذه المرحلة يسير الطفل ببطء كبير في محادثته ، وقد تمضى أشهر بدون أن يستطيع النطق بأكثر من بضعة كلمات . ثم تنحل عقدة لسانه مرة واحدة ، وحينئذ يسير في هذه السيل بخطى حثيثة لدرجة يصعب معها على من يلاحظه أن يحصى ما يدخل في متن لغته كل يوم من كلمات جديدة . فمن مبدأ هذه المرحلة إلى أوائل الشهر الرابع من السنة الثانية ؛ لم تكن ابنتى عفاف لتستطيع النطق إلا بكلمة واحدة وهي « بابا » ؛ ثم زاد متن لغتها كلمتين أخريين وهما : « بو » = أمبو (أى طلب الشرب) ؛ و « كاني » = تانى (تطلب بذلك تكرار الشيء مرة ثانية) . وفي أوائل الشهر الخامس من السنة الثانية زاد متن لغتها كلمة رابعة وهي « ماما » ؛ وفي أوائل السادس كلمتين وهما « كا كا » (كانت تطلقها على الدجاجة والحمامة سواء أكانتا حيتين أم مطهيتين) و « نأ » = لأ (علامة النفي) ؛ وفي أواخر التاسع كلمتين وهما « ننا » (أى النوم) و « إث » = إرش (أى قرش) ؛ وفي أواخر العاشر ثلاث كلمات وهي « أنناه » = الله ؛ (ما أحسن هذا !) و « توتو » (أى الكلب) ونمنه = نملة ؛ ومن أواخر الحادى عشر من السنة نفسها (السنة الثانية) انحلت عقدة لسانها وأصبح من الصعب متابعتها وإحصاء ما يجدد في متن لغتها من كلمات .

٥ - وفي أواسط هذه المرحلة وأواخرها تصل قوة التقليد اللغوى عند الطفل ، في مهارتها ودقتها ونشاطها وغزارة محصولها وأهميتها وسيطرتها على النفس ، إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه قوة إنسانية .

ففى هذا الدور لا يدع الطفل أى كلمة أو جملة تلقى عليه بدون أن يحاكيها . وإن عاقه طول جملة عن تكرارها جميعها ، حاكى ما يعلق

بذهنه من كلماتها ، وبخاصة آخر كلمات فيها .
ولا يقتصر على تقليد الكلمات والجمل التي يريده المحيطون به على
محاكاتها ، بل يجاكي كذلك من تلقاء نفسه كثيراً من الكلمات التي
ترد في محادثات الكبار على مسمع منه .
ويحرص الطفل كل الحرص على ما يحصل عليه من مفردات ؛ وكثيراً
ما يبلغ به هذا الحرص ان يكررها في خلوته ويؤلف من شتاتها أغاني
وجمل عارية عن الدلالة ولكنها كبيرة الأثر في تثبيتها في ذهنه .
ولا تظهر مهارة الطفل التقليدية في هذا الدور في محاكاة الكلمات
والجمل فحسب ، بل تظهر كذلك في محاكاة الأساليب الصوتية التي
تلقى بها الجمل الإخبارية والاستفهامية والطلبية والتعجبية والزجرية ...
وهلم جرا .
ولمهارة الطفل في التقليد اللغوي في أثناء هذه المرحلة ولشدة ميله
إليه ، يستطيع أن يتعلم بسرعة وسهولة عن طريق المحاكاة أية لغة أجنبية
إذا أتيح له فرصة الاختلاط بالمتكلمين بها ؛ بل يستطيع أن يتعلم بهذه
الوسيلة أكثر من لغة أجنبية واحدة . فالأطفال المصريون مثلاً الذين
يبعث بهم آباؤهم إلى المدارس الأجنبية في هذا الدور يأخذون عن طريق
المحاكاة عن معلمهم ومعلماتهم اللغة التي يتكلمون بها ، ولا يلبثون بعد
أمد قصير أن يجيدوا هذه اللغة لدرجة لا يستطيع معها أكبر خبير في
اللغات أن يميزهم من أهلها . والطفل إذا ولد من أبوين مختلفي اللغات
أخذ عن كل منهما لغته فيصبح ثنائي اللغة Bilingue . - وإذا أتيح للطفل
بصفة دائمة في هذا الدور سماع أكثر من لغتين أخذها جميعها عن طريق
المحاكاة بدون أن يشعر أنه يتعلم ، ووصل في إجادة كل منها إلى نفس
الدرجة التي يبلغها في لغته الأصلية ، فينشأ متعدد اللغات Polyglotte . -
ومن أجل هذا تختار الأسرات الغنية لأولادها في هذا الدور مربيات

مختلفات اللغات حتى تنتقل إليهم بالمحاكاة جميع لغاتهم .
 وفي هذا يختلف الكبار عن الصغار اختلافاً كبيراً . فهما بذل
 الكبار في تعلم لغة أجنبية من جهود ومهما طالت مدة إقامتهم بين أهلها ،
 فلن يصلوا في إجادتها من الناحية الصوتية إلى الدرجة التي يصل إليها
 الصغار في هذا الدور . والسبب في هذا راجع إلى أن الطفل
 يلبي في محاكاته داعي غريزته ، ويسلك بهذا الصدد طريقاً حجباً إليه ،
 ويسير على أسلوب يتفق مع أعبائه ، فيسهل عليه بذل الجهود ويؤتي
 مجهوده أكله . على حين أن الكبير يتعلم اللغة الأجنبية لغاية خارجة
 عنها ، فيصعب عليه بذل الجهود في هذا السبيل . هذا إلى أن الكبار قد
 رسخت لديهم عادات كلامية خاصة وتشكلت أعضاؤهم نطقهم بالشكل
 الذي يلائمها ؛ فيصبح من الصعب عليهم مع هذا اكتساب عادات
 صوتية جديدة مخالفة لعاداتهم الأولى . وليس الأمر كذلك عند الطفل ؛
 فأعضاؤه نطقه في هذا الدور تكون مرنة قابلة للتشكل بمختلف الأشكال .

٦ - ولا يقتصر نشاط الطفل التقليدي في هذه المرحلة على الأصوات
 اللغوية ، بل يمتد كذلك إلى ما عداها من الأصوات ، وبخاصة أصوات
 الحيوان ومظاهر الطبيعة . بل إن اتجاهه إلى محاكاة هذه الأصوات
 يظهر قبل اتجاهه إلى محاكاة الكلمات . فقد كان في استطاعة ابنتي عفاف
 في الشهر الثالث من سنتها الثانية (٩ - ٤ - ٣٥) أن تحاكي صوت
 طائفة كبيرة من الحيوان ؛ مع أنها إذ ذاك لم تكن لتستطيع النطق إلا
 بكلمة واحدة وهي « بابا » .

ويسلك الطفل في تقليده لهذا النوع طريقتين : إحداهما أن يلفظه
 في أصوات مبهمّة مشبهة لأصواته الأصلية ؛ وثانيتها أن يمثله في
 أصوات ذات مقاطع وأصوات مد (« ماء » ، لثغاء الخروف ، « كاك » ،
 لصوت الدجاجة ، « هو هو » ، لنباح الكلب ... وهلم جرا) . - وقد قرر

العلامة تين Taine أن الأطفال في هذه المرحلة أمهر كثيراً من الكبار في محاكاة أصوات الحيوان في صورتها الطبيعية.

(ثانياً) ومن أهم الظواهر المتعلقة بالدلالة في هذه المرحلة الأمور الآتية:

١ - على الرغم من أن فهم الطفل لمعاني الكلمات يبدو لديه في المرحلة السابقة لمرحلة التقليد كما تقدمت الإشارة إلى ذلك (١) ، فإن درجة فهمه تظل مدة طويلة ضعيفة وغير دقيقة .- ويبدو هذا في مظاهر كثيرة منها :

(١) أنه في أوائل هذه المرحلة يستخدم الكلمات القليلة التي يستطيع النطق بها استخداماً واسعاً يدل على عدم دقته في فهم مدلولاتها؛ فيحمل كلاً منها من المعاني أكثر مما يحتمله ، ويعبر بها عن جميع ما يرتبط بمعناها الأصليّ برابطة ما ، وقد يتجاوز هذا كله فيعبر بها عن أمور لا صلة لها مطلقاً بمعناها الأصلي . فيطلق مثلاً « كا كا ، على الدجاجة ، والطبق الذي تقدم فيه ، والطاهى الذي يعدها ، وغرفة الطهى التي تعد فيها ، والسكين الذي تذيب به ، والقفص الذي تحبس فيه ، والبيضة التي تبيضها ...»؛ وقد يتجاوز هذا كله فيطلقها على شيء أجنبي عنها كالمكتب مثلاً لأدنى ملابسة في ذهنه أو لاضطراب معناها لديه .- وقد لاحظت أن ابنتي عفا في أوائل سنتها الثالثة تطلق كلمة « ننا » على النوم وما يشق منه ، وعلى جميع الأمور التي تشبهه أو تمت إليه بصلة ؛ فكانت تطلقها على السرير ، وعلى الاختفاء فتقول « الكا كا ننا » قاصدة التعبير عن اختفاء الدجاجة عن الأنظار ، وعلى البعد والإبعاد فتقول « ماما ننا » معبرة عن رغبتها في أن تبعد أمها عن

(١) انظر صفحة ١٢٨ .

مجلسنا ، وعلى حفظ الشيء بعد الفراغ من استخدامه فتقول « فوطة ناء أى أن المشوش (الفوطة) قد انتهت الحاجة إليه وحفظ في المكان المعتاد حفظه فيه .. وكانت تطلق لفظ إمة = عمة (أى عمامة) على العمامة وعلى الشخص الذى يلبسها .

وهذا التوسع فى الاستعمال لا ترجع أسبابه دائماً إلى ضعف الفهم وعدم الدقة فى إدراك المدلولات ، بل ترجع أحيانا إلى ضآلة محصول الطفل فى الكلمات فى ذلك العهد وحاجته إلى التعبير بأى شكل ، تؤرجع أحيانا إلى السيين مجتمعين .

(ب) أنه فى أوائل هذه المرحلة يطلق اسم الجنس على غير أفراده لأذنى مشابهة . فقد لاحظت أن ابنتى عفافا كانت إلى أواخر السنة الثانية ، تطلق « كا كا ، (ومعناها الاصلى فى لغتها الدجاجة) على الدجاج والحمام والإوز والبط ... وما إليها ؛ وكلمة « ماء » (ومعناها الاصلى فى لغتها الخروف) على الخروف والبقر والحصان والحمار ... وما إليها ؛ و « ماما » على جميع السيدات ؛ و « بابا » على جميع الرجال ... وهلم جرا .

وكلما تقدمت السن بالطفل وكثر محصوله اللغوى ، يدق فهمه وتحدد معانى الكلمات فى ذهنه ، فتخلص من المدلولات الأجنبية التى كانت عالقة بها ، وتميز لديه الأجناس بعضها من بعض ، فيطلق على أفراد كل منها اسمها الخاص بها .

٢ - وفى أوائل هذه المرحلة تبدو لغة الطفل عارية عن الصرف والاشتقاق . فكل كلمة من كلماته تلازم شكلا واحداً ، وتدل فى شكلها هذا على جميع ما يشتق منها ويتصل بها . وبتقدم الطفل فى هذه المرحلة يدرك العلاقة بين تغير بنية الكلمة وتغير معناها أو زمنها ، فتظهر حينئذ عناصر الصرف والاشتقاق فى لغته .

٣- وفي مبدأ ظهور هذه العناصر يميل الطفل إلى القياس والسير على وتيرة واحدة حيال جميع الكلمات . فقرأه مثلا يتبع طريقة واحدة في التأنيث ، فيقول خروف وخروقة وحصان وحصانة كما يقول كلب وكلبة ...

٤- يفتح الطفل هذه المرحلة بالنطق بكلمات مفردة قاصدا بها التعبير عما نعبر عنه بالجل . فيقول مثلا « باب » قاصدا افتح الباب ، و« شباك » قاصدا اقل الشباك ، و« عصا » قاصدا اضرب القط بالعصا ... وهلم جرا . ويفهم غرضه من السياق والظروف المحيطة به والإشارات اليدوية والجسمية التي تصحب كلامه .

ويختار الطفل عادة للتعبير عن الجملة الكلمة التي يجيد النطق بها أو الكلمة التي تسبق غيرها إلى لسانه ، ولو لم تكن ذات أهمية في المعنى الذي يريد تقريره . فمن ذلك أن ابنتي عفافا وسنها ثمانية عشر شهرا وبضعة أيام (٢ - ٨ - ٣٥) كانت تسير القهقري ، فعثرت في طبق كان يوضع فيه اللبن لهرتها وأولادها الصغار ، وكاد يختل توازنها ؛ ولما تبين لها السبب في عثرتها قالت « بو » (بو = أمبو = الشرب) أي إن السبب في ذلك هو الطبق الذي تشرب فيه الهرة وأولادها لبنها .

ثم ترتقى لغة الطفل بهذا الصدد فتصبح ثنائية الكلمات (عفاف في أوائل السنة الثالثة : « ماء مم » أي الحروف يأكل ؛ « مامانا » أي لتغادر ماما هذا المكان) . وبعد ذلك بقليل تصبح لغته ثلاثية الكلمات (عفاف في الشهر الرابع من السنة الثالثة : « ماما أوه إنا » = ماما ألم هنا ، مشيرة إلى رقبة والدتها ، أي إن برقبة أمها ألما أو مرضا) . أما تركيب الجمل تركيبا كاملا فلا يصل إليه الطفل إلا في أواخر هذه المرحلة .

٥- وفي مبدأ ظهور الجمل في لغة الطفل تبدو عارية عن الروابط

والحروف، ويبدو تركيبها ساذجا، وتبدو كلماتها بدون تنسيق ولا ترتيب فيوضع بعضها بجانب بعض كيفما اتفق. ومن نماذج ذلك ما قالته ابنتي عفاف في ٢٠ - ٧ - ٣٦ « أنا نونو دده (وقوست ظهرها لتمثل الحالة التي كانت عليها وهي صغيرة) ماما دز ساه، أي حينما كنت صغيرة على هذه الصورة كانت والدتي ترضعني الشاي في الثدي الصناعي.

وقد يرتب الطفل أحيانا كلمات جملة بشكل يتفق مع ما لكل منها من أهمية في نظره؛ فيبدأ بأكبرها أهمية ويتدرج حتى ينتهي بأقلها شأنًا. فيقول مثلا: «عصايا بابا ضرب محمد»، قاصداً أن أباه قد ضرب محمداً بالعصا. فيقدم العصا لأنها أكبر عناصر الجملة أهمية في نظره، فاتبأه قد تعلق بها أكثر من تعلقه بما عداها، ولأن بيان آلة الضرب هو أهم ما يرمى إليه من جملة؛ ثم يتبعها بالكلمة الدالة على الشخص الذي اتصل بها اتصالاً مباشراً وقام بتحريكها وهو بابا؛ ثم يأتي بالكلمة الدالة على أثر تحريك أيه للعصا وهي ضرب؛ ويختم جملة بمحمد الذي لم يقم بعمل إيجابي في الحادث الذي يريد الطفل التعبير عنه.

٦- وأول كلمات تبدو عند معظم الأطفال هي أسماء الذوات، وتظهر بعدها الأفعال^(١)، ثم الصفات^(٢)، ثم الضمائر (ولعدم وجود

(١) لاحظت أن أول نوع من الأفعال ظهر في لغة ابنتي عفاف كان فعل الأمر. ففي أوائل السنة الثالثة (ابتداء من ٤ - ٣ - ٣٦) نطقت بفعل « تعان » = تعال (أمر بالمجيء) و « استنى » (أمر بالانتظار) وكانت تستعمل هذين الفعلين مستدين للمذكر دائما ولو كان المخاطب مؤنثا؛ و « أدى » = خذي (أمر بالأخذ) و « آني » = هاتي (أمر بالاعطاء) وكانت تستعملهما مستدين للمؤنث دائما ولو كان المخاطب مذكرا. - ولم يظهر المضارع والماضي في لنتها إلا في مرحلة لاحقة لهذه المرحلة.

(٢) قد تظهر الصفات عند بعض الأطفال في مرحلة سابقة لمرحلة ظهور الأفعال؛ بل لاحظ العلامة

المراحل التي يجتازها الطفل في أصواته وتعبيراته ١٣٩

الضماير في لغة الطفل في مبدأ هذه المرحلة نراه يعبر عن نفسه باسمه العلم فيقول مثلا « فيفي مم » (أى فيفي تريد أن تأكل (١)) ، ولا تظهر الحروف وما يشبهها من الظروف والروابط وأسماء الشرط إلا في منتصف هذه المرحلة أو أواخرها (٢) . ولذلك تظهر جمل الطفل في المبدأ عارية عن الروابط والحروف كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٣) .
والسبب في هذا راجع إلى ما سنذكره في الفقرة التالية من أن الطفل

يريد Preyer أن أول كلمة نطق بها ابنه كانت صفة كما سيأتى بيان ذلك في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل . - واتى لاحظته على ابنتي عفاف أن الصفات والأفعال قد ظهرا لديها في وقت واحد ، ولكنهما ظهرا متأخرين عن أسماء الذوات . ففي الوقت الذي كانت تنطق فيه بأفعال الأمر التي تقست الإشارة إليها في التعليق السابق فكانت تنطق ببعض صفات : فن ذلك « دح » بمعنى جميل (٤-٣-٣٦) و « أمح » بمعنى أحمر (وكانت تستعمله في صيغة المذكر دائما ولو كان الموصوف مؤنثا) و « يده » أى يضاء (وكانت تستعملها في صيغة المؤنث دائما ولو كان الموصوف مذكرا) ، وقد ظهرا لديها في ١١-٧-٣٦ .

(١) غير أنى لاحظت على ابنتي عفاف أن ضمير المتكلم المنفصل « أنا » قد ظهر في لنتها يوم ٢٩-١-٣٦ أى قبيل ظهور الصفات والأفعال ، ولاحظت كذلك أنها تستخدمه استخداما صحيحا فلا تعامله معاملة الأعلام كما يفعل بعض الأطفال في هذه المرحلة بل تستعمله حينما تريد الإشارة إلى نفسها . (٢) لم تظهر الحروف وما إليها في صورة واضحة عند ابنتي عفاف إلا في أوائل الشهر الرابع من سنتها الثالثة . ففي ١١-٥-٣٦ ظهرت كلمة « إنا » بكسر الهمزة بمعنى هنا (ماما أره إنا = ماما تشكو ألما هنا مشيرة إلى رقبها) ، وفي ١١-٧-٣٦ ظهر في لنتها « بيد » بمعنى بعد ، و « إيه ده » أى ما هذا و « يا النداء » (إيه ده بابا = ما هذا بابا) .

أما قبل هذا العهد فما كان يوجد في لنتها من هذه التفصيلا إلا كلمتان ظهرا مبكرتين قبل أو انهما : إحداهما « نا » بنون مفتوحة فهمزة ساكنة ، بمعنى لا (أداة النفي) . - وقد ظهرت في الشهر التاسع من سنتها الثانية (وثانيتها « نام » بنون مفتوحة فهمزة ساكنة فميم ، بمعنى نعم) أداة الإيجاب . - وقد ظهرت يوم ٢٠-١٢-٣٥ . - ومن غريب ما لاحظته على ابنتي عفاف بهذا الصدد أن واو العطف ، مع كثرة تكرارها في الكلام ومع فهمها لدلولها قد تاخر ظهورها كثيرا في لنتها . فقد طلب إليها يوم ٢٦-٧-٣٦ أن تقول للخدمة : « إنت كخ وعيطة » فقالت لها : « إنت كخ إنت أيعطة » فكررت الضمير بدلا من واو العطف ؛ ومن الواضح أن تكرارها الضمير دليل على فهمها لدلول واو العطف .

(٣) انظر آخر صفحة ١٣٧ وأول صفحة ١٣٨ .

يسير في ارتقائه اللغوي وفقاً لارتقاء فهمه . فدرجة نموه الفكري في مبدأ هذه المرحلة لا تتيح له أكثر من فهم الكلمات الدالة على أمور حسية يمكن أن يشار إليها ، ولذلك اقتصر متن لغته في هذا الدور على أسماء الذوات ؛ فإذا نما تفكيره أمكنه أن يدرك مدلولات الكلمات المعبرة عن أمور معنوية ، وحينئذ تظهر في لغته الأفعال (الدالة على الحدث والزمان) والصفات (الدالة على معنى كلي تتلبس به الذوات بشكل عارض) وما إليهما ؛ ولما كانت الحروف والروابط أدق أنواع الكلمات مدلولاً ، لم يتح له فهمها إلا في أواسط هذه المرحلة أو أواخرها ، فتأخر ظهورها تبعاً لذلك .

وقد قسم العلامة سترن Stern هذا الطريق إلى ثلاث مراحل : سمي أولها « مرحلة المادة » Stade de la Substance وهي المرحلة التي تظهر فيها أسماء الذوات ؛ وسمي ثانيها « مرحلة العمل » Stade de l'action وهي المرحلة التي تظهر فيها الأفعال ؛ وسمي الثالث « مرحلة العلاقات » Stade des Relations وهي المرحلة التي تظهر فيها الحروف والروابط ^(١) .

٧ - يكثر في لغة الطفل في أوائل هذه المرحلة الكلمات المأخوذة عن أصوات الحيوان والأشياء والتي يقصد بها التعبير عن مصادرها أو عن أمور تتصل بها (ماء للخروف ، وكاكا للدجاجة ، وأأ للضرب ومم للأكل ... وهلم جرا) . . وقد ثبت أن بعض هذه الكلمات يصل إليها الطفل بنفسه بدون تلقين الكبار .

٨ - ويعتمد الطفل في معظم هذه المرحلة اعتماداً كبيراً على الإشارات فيمزجها بلغته الصوتية لتحديد مدلولاتها وتوضيح مبهمة وتكملة نقصها وتمثيل حقائقها ^(٢) . . وقد يستخدمها وحدها في التعبير

(١) V. Delacroix : Langage et Pensée , 304 , 305

(٢) من أوضح النماذج بهذا الصدد ما صدر عن ابني عفاف (يوم ١٣-٣-٣٦) إذ أشرت في

عما يورد التعبير عنه . ويكثر هذا لديه قبل ظهور اللغة ، أى قبل دخوله في مرحلة التقليد ، وفي أوائل هذه المرحلة . ففي أواخر السنة الثانية كانت ابنتي عفاف تقتصر في التعبير عن كثير من حاجاتها على الإشارة اليدوية والجسمية . فمن ذلك أنها في تعبيرها عن الفيل كانت تقبض أصابعها ما عدا السبابة وتضع كفها بهذا الشكل تحت شفتيها وتحرك السبابة كما يحركها المصلى في تشهده ، ممثلة بذلك خرطوم الفيل وحركته . وكانت تستخدم هذه الحركات كلما طلبت الذهاب إلى حديقة الحيوان ، أو سئلت عما رأته بها ، أو طلب إليها بيان ما تمثله صورة فيل وهم جراً . وقد تبلغ لغة الإشارة عند بعض الأطفال شأواً كبيراً ، فيستطيعون التعبير بها عن معانٍ دقيقة وقصص طويلة . فقد أردت مرة (٢٢ - ١١ - ٣٥ أى أواخر السنة الثانية) أن أشغل ابنتي عفافاً عن اللعب في سريرها لتفرغ للنوم ، فأخذت أقص عليها بالألفاظ التي تفهمها وبالحركات قصة طويلة تتعلق بأسد كان يأكل قطعة لحم فسقط عليه غراب وضربه بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم وطار بها حتى نزل على شجرة وأخذ يأكلها . فاستأثرت هذه القصة بانتباهها وكانت ، كلما فرغت من مرحلة من مراحلها ، تشير إلى إشارة الفاهم المتبوع لحديثي قائلة « إيه ، إيه » وبعد أن فرغت من القصة أخذت أسألهما عنها كما يفعل المدرس عقب درس محادثة ، فطفقت تمثل بحركات يديها وفيها أعمال الأسد وهو يتناول غذاءه ، ثم حركات الغراب إذ ضرب الأسد بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم ، وإذا طار بها إلى الشجرة . . . الخ ، غير مستخدمة في ذلك إلا بضع ألفاظ ككلمة

كتاب فرنسي إلى صورة غزال يرعى الكلا وطلبت إليها أن تذكر ما تمثله هذه الصورة فقالت « ما دم ، (أى حيوان يأكل) وبرزت هذا بان مثلت هيئة حيوان وحركت فكيفها وشفتيها كما تحركها في أتمه الأكل . . . انظر مثالا آخر يا أول صفحة ١٣٨ .

«أأ» التي كانت تعبر بها عن الضرب ، وكلمة «مم» التي كانت تعبر بها عن الأكل .

- ٤ -

عوامل كسب الطفل للغة

يتوقف التقليد اللغوي عند الطفل على عوامل كثيرة أهمها ما يلي :

١ - وضوح الإحساسات السمعية وتمييزها بعضها من بعض :
يولد الطفل أصم ويمتد صممه هذا حتى اليوم الرابع أو الخامس ،
وحيث تبدو لديه أمارات السمع . غير أن إحساساته السمعية تظل
مبهمة إبهاماً كبيراً ويظل عاجزاً عن تحديد مصادرها حتى أواخر الشهر
الرابع . ثم ترتقى ارتقاء بطيئاً حتى أوائل السنة الثانية ؛ ثم تدخل في
دور النضج الذي يستغرق أمداً غير قصير .

فالموازنة بين هذه المراحل والمراحل التي تسير فيها لغة الطفل ،
والتي سبق الكلام عنها في الفقرة السابقة ، يتبين أن ظاهرة التقليد
اللغوي تتبع في رقيها ظاهرة الإحساس السمعي .

أما السبب في ذلك فلا يحتاج إلى بيان . فالطفل في تقليده يحاكي
ما يصل إليه عن طريق السمع . فمن البديهي أن تتوقف هذه المحاكاة
على وجود قدرة السمع لديه وأن تتأثر في ارتقائها بما ينال هذه الحاسة
من دقة وتهذيب .

ولذلك نرى أن من يولد أصم ينشأ أبكم ، ولو كانت أعضاء
نطقه سليمة .

٢ - الحافظة والذاكرة السمغيتان . - ونعني بذلك القدرة على
حفظ الأصوات المسموعة وعلى تذكرها واستعادتها عند الحاجة إليها .

لا تبدو هذه القدرة عند الطفل إلا بعد بضعة أسابيع بعد ولادته؛ وتظل ضعيفة حتى أواخر الشهر الرابع، ثم ترتقي ارتقاء بطيئاً حتى أوائل السنة الثانية، وحينئذ تبدأ مرحلة نضجها.

فهذا العامل يقطع في طريق نموه نفس المراحل التي يقطعها العامل الأول، وتصحبهما في سيرهما ظاهرة التقليد اللغوي: تظهر بظهورها وتنمو بنموهما.

أما وجه توقف التقليد اللغوي على هذه الظاهرة فلا يقل وضوحاً عن توقفه على الظاهرة الأولى. وذلك أن الكلمة التي يحاكيها الطفل لا تصبح جزءاً من لغته إلا إذا استطاع حفظها واستعادتها عند الحاجة إلى التعبير عما تدل عليه.

٣ - فهم الطفل لمعاني الكلمات.. - وقد عرضنا في الفقرة السابقة لأمور كثيرة تدل على توقف التقليد اللغوي على هذا العامل، وثبتت أن كل ارتقاء في تفكير الطفل ودرجة فهمه يتبعه ارتقاء في تقليده ونمو في محصوره اللغوي، وتبين وجوه العلاقة بين الأمرين (١).

غير أنه قد يحدث عند أطفال غير عاديين من الناحية اللغوية أن يتخلف التقليد اللغوي عن هذه العوامل الثلاثة.. ويرجع هذا في الغالب إلى نخول محلي في أعضاء النطق، أو كسل طبيعي عام، أو شذوذ الطفل ورغبته عن الاشتراك في الحياة الاجتماعية.

ولهذا يجدر أن نزيد على هذه العوامل الثلاثة عاملاً رابعاً وهو نشاط الطفل الحيوي، ومبلغ عزمه وإرادته، ودرجة رغبته في الاشتراك في حلبة الحياة (٢).

(١) انظر مميزات الدلالة في هذا المورد (صفحات ١٣٥ - ١٤٢) وخاصة السادس منها (صفحات

١٣٨ - ١٤٠).

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع جميعه (عوامل كسب الطفل للغة) بكتابي « في التربية »

- ٥ -

مبلغ تمثيل الطفل في ارتقائه اللغوى لنشأة اللغة الإنسانية وتطورها

يذهب كثير من العلماء إلى أن المراحل التي يجتازها الطفل في أى فرع من فروع حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنسانى في هذا الفرع *L' Ontogenèse reproduit la Phylogenèse* . . . ويطلق على هذه النظرية اسم نظرية التلخيص العام أو نظرية هيكل Haekel (١) . وعلى هذه النظرية اعتمد كثير من علماء اللغة في تأييد آرائهم بصدد نشأة اللغة الإنسانية وتطورها .

وقد تكلمنا بتفصيل في الفصل السابق عن أهم هذه الآراء وناقشناها . فحسبنا هنا أن نشير إليها مبينين وجه اعتمادها على الظواهر المتعلقة بتطور اللغة عند الطفل :

١ - تقدم أن معظم العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية قد نشأت من أنواع التعبير الطبيعى ، وأن الإنسان قد افتتح هذا السبيل بمحاكاة أصوات الطبيعة (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعال) وأصوات الحيوان والأشياء (٢) .

صفحات ٨٦ - ٩٢ .

هذا وقد ظن بعض العلماء أن لحاسة النظر ورؤية الطفل لحركات فم المتكلم وشفثيه أثرا كبيرا في التقليد اللغوى . وقد عرضنا بتفصيل في كتابنا « في القرية » لهذه النظرية وذكرنا أدلتها وناقشناها وبيننا ما فيها من فساد (انظر « في القرية » صفحات ٩٥ - ٩٩) .

(١) يرجع الفضل في نشرها وتكتملها إلى هيكل الألماني ، ولأنك نسبت إليه ، وإن كان قد قال بها من قبله العلامة سر Serres . . . V. Traité de Psychologie , par Dumas et collaborateurs , p. 32 .

(٢) انظر آخر من ١٠٢ وتوابعها .

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد هذه النظرية أن الطريق الذي ترسمه لنشأة اللغة الإنسانية يتفق مع الطريق الذي يسلكه الطفل في تعبيره. فقد ظهر مما تقدم أن أول ما يظهر من أنواع التعبير المقصود عند الطفل هو محاكاة التعبير الطبيعي عن الانفعال، ثم تظهر بعده محاكاة أصوات الحيوان والأشياء للدلالة على مصادرها أو على أمور تتعلق بها، ثم تظهر بعدها محاكاة الكلمات^(١).

٢ - تقدم أن معظم علماء اللغة يذهبون إلى أن الكلام الإنساني كان يعتمد في المبدأ اعتماداً كبيراً على الإشارات اليدوية والجسمية التي كانت تصحبه فتكامل ناقصه وتوضح مدلوله وتمثل حقائقه، ثم أخذ يستغنى شيئاً فشيئاً عن هذا المساعد حتى كاد يستقل بالتعبير^(٢).

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد هذه النظرية أن المراحل التي ترسمها تتفق مع المراحل التي تسير فيها لغة الطفل. فقد ظهر مما تقدم أن الطفل، في مبدأ مرحلته الكلامية، يعتمد اعتماداً كبيراً على لغة الإشارات فيمزجها بلغته الصوتية لتحديد مدلولاتها وتوضيح مبهمها وتكملة نقصها وتمثيل حقائقها^(٣).

٣ - تقدم أن بعض العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية اجتازت فيما يتعلق بتطور أصواتها، ثلاث مراحل: «مرحلة الصراخ، التي كانت فيها أصوات اللغة شبيهة بأصوات الحيوان والأشياء ومظاهر الطبيعة؛ ثم «مرحلة المد، وفيها ظهرت أصوات اللين في اللغة الإنسانية؛ ثم «مرحلة المقاطع، وفيها ظهرت الأصوات الساكنة»^(٤).

(١) انظر صفحات ١٢٦ - ١٢٩ و صفحتي ١٣٤ (رقم ٦) و ١٤٠ (رقم ٧).

(٢) انظر آخر صفحة ١٠٣ وأول ١٠٤.

(٣) انظر آخر صفحة ١٤٠ و صفحة ١٤١.

(٤) انظر صفحات ١١٠ - ١١٢.

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد هذه النظرية أن المراحل التي تذهب إليها بصدد التطور الصوتي في اللغة الإنسانية تتفق مع المراحل التي يجتازها الطفل في هذا السبيل . - فقد ظهر عما تقدم أن أول أصوات تظهر لدى الطفل هي الأصوات المبهمة ، ثم تلاوها أصوات اللين ، وأن الأصوات ذات المقاطع لا تكثر في لغته إلا في « مرحلة التمرينات النطقية » (١) .

٤ - تقدم أن معظم العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية قد بدأت بالفاظ دالة على معان جزئية وأن الألفاظ الدالة على المعاني الكلية لم تظهر إلا بعد ارتقاء اللغة ونهضة التفكير الإنساني (٢) .

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد نظريتهم أنها تتفق مع مراحل التطور اللغوي عند الطفل . فقد تبين مما تقدم أن أول كلمات تظهر عند الطفل هي أسماء الذوات الحسية ثم تظهر بعدها الكلمات الدالة على معان كلية (٣) .

٥ - تقدم أن بعض علماء اللغة يذهبون إلى أن الصفة هي أول ما ظهر في الكلام الإنساني ، ثم ظهرت أسماء الذوات ثم الأفعال واختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف (٤) .

ومما يعتمد عليه هؤلاء العلماء في تأييد نظريتهم موضوع التطور اللغوي عند الطفل . غير أن هذا التطور لا يؤيدهم فيما يتعلق بأسبقية الصفات على أسماء الذوات . فقد ظهر مما تقدم أن أسماء الذوات هي أول

(١) أنظر صفحات ١٢٦ - ١٢٨ ، وما تحيل عليه هذه الصفحات وانظر كذلك الخاصة الثالثة من

خواص الأصوات اللغوية للطفل في مرحلة التقليد بأخر صفحة ١٣١ وأول صفحة ١٣٢ .

(٢) أنظر صفحة ١١٣ .

(٣) أنظر آخر صفحة ١٣٨ وصفحتي ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٤) أنظر صفحتي ١١٣ ، ١١٤ .

ما يظهر في لغة الطفل ثم تتلوها الافعال والصفات (١).
 ولذلك يعتمدون في هذه النقطة على أمور تتعلق باصول الكلمات
 في اللغات الهندية - الأوربية كما سبقت الإشارة الى ذلك (٢). ويرون
 من جهة أخرى أن أسبقية الأسماء على الصفات في الطفولة ليست عامة
 عند جميع الاطفال؛ بل إن بعضهم ليفتح نطقه بكلمات دالة على صفات،
 ولا تظهر لديه الأسماء إلا فيما بعد. وفي ذلك يقول العلامة پريير
 Preyer: « ليس صحيحاً ما يذهب إليه كثير من الباحثين من أن ظهور
 الأسماء سابق لظهور الصفات عند جميع الاطفال. فقد لاحظت أن أول
 كلمة لفظها ابني (وكانت سنة إذ ذاك ثلاثة وعشرين شهراً) كانت
 صفة فقد قال Hess يقصد Chaud أى ساخن، (التعبير عن أن لونه ساخن
 لا يستطيع شربه)، ثم ظهرت لديه الاسماء بعد ذلك. وقد لاحظ
 العلامة تين Taine وآخرون بعض ظواهر من هذا القبيل (٣).
 ٥ - تقدم أن العلامة شليجيل وأعضاء مدرسته يذهبون الى أن
 اللغات الإنسانية الأولى كانت «عازلة» أى لا تتصرف فيها الكلمات
 ولا ترتبط فيها عناصر الجملة بعضها ببعض بروابط ملفوظة (٤).
 ومن الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد نظريتهم تطور اللغة عند
 الطفل . - فقد ظهر مما تقدم أن لغة الطفل تبدو في أوائل مرحلة
 التقليد عارية من الصرف والاشتقاق والتنظيم وربط عناصر الجملة
 بعضها ببعض (٥).

(١) أنظر آخر صفحة ١٣٨ وصفحتي ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) أنظر آخر صفحة ١١٣ وأول صفحة ١١٤ .

(٣) V. Ribot, op. cit. 84, 85

(٤) أنظر صفحات ١١٥ - ١١٨ .

(٥) أنظر آخر صفحة ١٣٦ وصفحتي ١٣٧ ، ١٣٨ .

الفصل الثالث

فصائل اللغات

وخواص كل فصيلة منها وما بينها من صلات



- ١ -

أشهر الآراء في فصائل اللغات

حاول كثير من علماء اللغة أن يرجع اللغات الإنسانية إلى فصائل عامة؛ وقد اختلفت وجهات نظرهم بهذا الصدد اختلافاً كبيراً.

فبعضهم نظر إلى الموضوع من ناحية التطور والارتقاء، فقسم اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل تختلف أفراد كل منها عما عداها في درجة رقيها، وتمثل كل منها مرحلة خاصة من المراحل التي اجتازها الكلام الإنساني في سبيل تطوره.

وأشهر نظرية بهذا الصدد هي نظرية شليجيل التي تقسم اللغات من هذه الناحية إلى ثلاث فصائل: «اللغات غير المتصرفة أو العازلة» (وتشمل الصينية، والسيامية، والبرمانية، والتبتية... الخ)؛ و«اللغات اللصقية أو الوصلية» (وتشمل التركية، والمنغولية، والمنشورية، واليابانية، ولغات الباسك... الخ)؛ و«اللغات المتصرفة أو التحليلية» (وتشمل الفارسية والهندية واللاتينية والإغريقية والجرمانية والعربية والعبرية... الخ).

وقد شرحنا في الفصل الأول هذه النظرية وناقشناها فظهر لنا فسادها

من عدة وجوه، وتبين أن الأساليب الثلاثة التي تقسم على أساسها اللغات الإنسانية إلى فصائل (العزل والالصق والتصرف)، توجد مجتمعة في كل لغة إنسانية: فلا نكاد نعثر على لغة عارية عن أسلوب منها (١).

وبعضهم قطع النظر عن موضوع التطور والارتقاء، وقسم اللغات الإنسانية إلى فصائل يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات قرابة لغوية، فتفق في أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل... وما إلى ذلك، ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة، ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة، وتؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية.

وأشهر نظرية قسّمت اللغات على هذه الأسس هي نظرية مكس مولر Max Muler التي ترجع جميع اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل: الفصيلة الهندية الأوروبية، والفصيلة السامية الحامية، والفصيلة الطورانية (٢). - وستنكلم عن كل فصيلة منها على حدة فيما يلي:



(١) أنظر صفحات ١١٥ - ١١٨.

(٢) فطن كثير من العلماء قبل مكس مولر إلى صلات القرابة التي تربط اللغات الهندية والآرية والأوروبية بعضها ببعض، وإلى الصفات التي تتركب فيها أفراد الفصيلة الحامية - السامية؛ كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في فقرة «تاريخ البحوث اللغوية» (أنظر صفحات ٥٥ - ٥٧). - ولكن يرجع الفضل إلى مكس مولر في تكملة هذه البحوث ونشرها، وفي دراسة الفصيلة الهندية الأوروبية على الأخص دراسة عميقة مستوعبة، وفي إضافة فصيلة نالتة إلى الفصيلتين السابقتين، وهي فصيلة اللغات الطورانية (وقد اتفق معه في جعل هذه اللغات فصيلة نالتة العلامة الألماني بونسن Bunsen في كتابه Outlines of the philosophy of Universal history ظهر في نفس العصر الذي ظهر فيه بحث مكس مولر بهذا الصدد Letter on the Classification of the Turanian Languages). - ولهذا نسب إلى مكس مولر تقسيم اللغات إلى هذه الفصائل الثلاث.

- ٢ -

الفصيلة الأولى: الهندية الأوروبية

Langues Indo - Européennes

تشمل هذه الفصيلة ثمانى طوائف من اللغات ، وهى :
 ١ - « اللغات الهندية - الإيرانية » ، أو « اللغات الآرية » ، وتشمل
 شعبتين :

احدهما شعبة اللغات الهندية (السنسكريتية Sanskrit والبراكريتية
 Prākṛit ، واللغات الهندية الحديثة Langues Néo - indoues . . . الخ) ؛
 والأخرى شعبة اللغات الإيرانية (الفارسية القديمة Vieux perse ،
 والزند أو الأفستية Zend ou Avestique وهى لغة الأسفار المقدسة
 المسماة الأفستا أو الزند - أفستا ، والبهلويه Pehlvi ، والفارسية الحديثة
 Persian ، والكردية Kurde ، والأسيتية Ossète ، وهى لغة الأسيتيين
 Ossètes وهم سكان القوقاز الأوسط ، والأفغانية . . . وهم جرا) .
 ولكثرة وجوه الشبه بين هاتين الشعبتين عدما علماء اللغة طائفة
 واحدة سموها طائفة « اللغات الهندية الإيرانية » ، أو طائفة « اللغات
 الآرية » .

وكان القدامى من علماء اللغة يتوسعون فى كلمة « اللغات الآرية » ،
 فيطلقونها على جميع طوائف الفصيلة الهندية - الأوروبية ، من قبيل
 إطلاق الخاص على العام . ولكن المحدثين منهم آثروا العدول عن
 هذا الاستعمال اتقاء للخلط واللبس ، فأصبحوا لا يطلقون كلمة « اللغات
 الآرية » إلا على الطائفة التى نحن بصدد الكلام عنها (١) .

- ٢ - اللغات الأرمنية ، Langues Arméniennes .
- ٣ - اللغات الإغريقية ، (وتشمل اليونانية - الأتيكية ، والدورية ، واليونانية الحديثة التي تكونت في القرون السابقة لليلاد وقامت على أنقاض اللغات اليونانية القديمة ... الخ) .
- ٤ - الألبانية .
- ٥ - اللغات الإيطالية ، (وتشمل الاسكية Osque ، والأمبرية - السمنية Ombrien - Samnite ، واللاتينية ، واللغات الرومانية Langues Romanes وهي المتفرعة من اللاتينية كالفرنسية والبرتغالية والإيطالية والأسبانية ولغة رومانيا ... الخ) .
- ٦ - اللغات السلتية ، Langues Celtiques (التي كانت لغات شعوب السلت Les Celtes ، وقد طغت عليها الآن اللغات الفرنسية والانجليزية والأسبانية ، ولكن بقي بعض أشكال منها في كثير من اللهجات المحلية بإيرلندا وويلز ومنطقة الپريتون بغرب فرنسا) .
- ٧ - اللغات الجرمانية ، Langues Germaniques ، وتشمل ثلاث شعب :
- أولها شعبة الجرمانية الشرقية وهي اللغة الجوتية Gothiques ؛
- وثانيها شعبة اللغات الجرمانية الشمالية ، وهي لغات ايسلندا والدانيمرك والسويد والنرويج ؛
- وثالثها شعبة اللغات الجرمانية الغربية وتشمل الإنجليزية - السكسونية ، والإنجليزية الحديثة ، والهولندية ، واللغات الألمانية ... الخ .
- ٨ - اللغات البلطيقية السلافية ، وتشمل شعبتين :
- أحدهما شعبة اللغات البلطيقية : وهي الليتوانية Lituanienne (لغة ليتوانيا Lituanie) والليتونية Lette (لغة ليتوانيا Littonie) والبروسية القديمة ؛

والأخرى شعبة اللغات السلافية : وهي السلافية القديمة ،
والروسية ، والبولونية ، والتشيكية ، والسريية - الكرواتية ، والبلغارية .
ومن هذا يظهر أن اللغات الهندية - الأوروبية هي أكثر اللغات
الإنسانية انتشاراً ، إذ يتكلم بها الآن جميع سكان أوروبا والأمريكيتين
وأستراليا وجنوب أفريقيا (ما عدا بعض جماعات قليلة بأوروبا تتكلم
البسكية أو الفينية أو المجرية أو التركية ... وما إلى ذلك ، وما عدا السكان
الأصليين للأمريكيتين وأستراليا وجنوب أفريقيا الذين انقرض معظمهم
ولم يبق منهم الآن إلا عدد يسير آخذ في الانقراض) ، ويتكلم بها
كذلك قسم كبير من سكان آسيا (الهند ، فارس ، أفغانستان ،
الكرديستان ، القوقاز ، أرمينيا ... الخ) .

والشعوب الناطقة بهذه الفصيلة هي أرقى الشعوب مدنية في العصر
الحاضر ، وأعظمها نشاطاً ، وأكبرها شأناً ، وأكثرها إنتاجاً في مختلف
فروع الحياة وأجلها أثراً في الحضارة الإنسانية الحديثة .

ويرجع الفضل في انتشار هذه الفصيلة إلى عوامل كثيرة أهمها
الغزو والاستعمار . فعلى أثر غزو الآريين للهند انتشرت لغاتهم في هذه
البلاد وقضت على لغة السكان الأصليين (لم يبق من هذه اللغات إلا
آثار ضئيلة سنعرض لها في كلامنا عن الفصيلة الثالثة) . وعلى أثر
استعمار الأوروبيين للأمريكيتين وأستراليا وجنوب أفريقيا انتقلت إلى
هذه المناطق اللغات الإنجليزية والأسبانية والفرنسية .

أما الموطن الأول لهذه الفصيلة فلا نكاد نعرف شيئاً يقينياً عنه ؛
وقد ذهب العلماء بصدده مذاهب كثيرة تعتمد في معظم نواحيها على
الحدس والتخمين وفي نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى
مثلها التحقيق العلمي : فمن قائل إنها نشأت في آسيا الوسطى بمنطقة
التركستان وما إليها ؛ ومن قائل إنها نشأت بأوروبا الشرقية بالمناطق

الروسية ؛ ومن قائل إنها نشأت بمناطق بحر البلطيق .
وتتماز هذه الفصيلة بكثرة شعبها واتساع هوة الخلاف بين أفرادها .
فقد انقسمت إلى الطوائف الثمان السابق ذكرها ، وانقسمت كل
طائفة من هذه الطوائف إلى شعب، وكل شعبة إلى عدد كبير من اللغات ،
وسلكت كل لغة من هذه اللغات في ارتقائها سبيلا يختلف عن سبيل
غيرها ، فكثرت وجوه الخلاف بينها ، وتضاءلت وجوه الشبه ، حتى
أن بعضها يبدو غريبا عن بعض ، ولا تظهر صلة قرابته به إلا بعد تأمل
عميق .

ويرجع السبب في هذا إلى عوامل كثيرة أهمها اختلاف البيئات
التي انتشرت فيها هذه الفصيلة واختلاف الشؤون الاجتماعية التي
اكتفت الناطقين بكل شعبة منها .

وقد ترتب كذلك على هذه العوامل أن اختلفت كل لغة منها عما
عداها في درجة رقيها و مبلغ بعدها عن أصولها الأولى . فمنها ما لا يزال
جامداً على خصائصه القديمة ، ومنها ما قطع في زمن يسير مرحلة واسعة
في طريق الارتقاء ، ومنها ما سار في هذه السبيل بخطى متدئة بطيئة .
فانتشار الشعبة الإيرانية مثلا في مناطق عريقة في الحضارة ، وتأثرها
باللغات التي كانت سائدة في هذه المناطق ... كل ذلك وما إليه قد ذلل
لها وسائل الارتقاء ، فسارت في هذه السبيل بخطى حثيثة ، حتى وصلت
في أوائل القرن الأول الميلادي الى شأو لم تبلغ مثله اللغات الأوروبية
إلا حوالي القرن العاشر . على حين أن انتشار اللغة الليتوانية مثلا في
منطقة زراعية ضيقة تغلب على أهلها صفة المحافظة على القدم ، وبقاء
هذه المنطقة بمعزل عن تيارات الحضارة وعن المؤثرات الخارجية ...
كل أولئك قد عاق تقدم اللغة ، فظلت محتفظة بكثير من الأشكال
الأولى لفصيلتها .

وستتكمم بتفصيل عن هذه الامور وما يتصل بها في فصل حياة اللغة (١).

- ٣ -

الفصيلة الثانية : الحامية - السامية

Langues Chamito — Sémitique

تشمل هذه الفصيلة مجموعتين من اللغات : إحداهما مجموعة اللغات السامية ، وثانيتها مجموعة اللغات الحامية .

أما مجموعة اللغات السامية ، فننظم طائفتين :

١ - اللغات السامية الشرقية ، وهي اللغات الأكادية Accadien أو

الآشورية البابلية Assyro - Babylonniennes .

٢ - اللغات السامية الغربية ، وتشمل شعبتين :

(أ) لغات الجزء الشمالي من هذا القسم ، وهي اللغات الآرامية (٢)

(ويدخل فيها الكلدانية أو الآرامية الشرقية ، والسريانية أو الآرامية الغربية) ، واللغات الكنعانية (ويدخل فيها الفينيقية والعبرية) .

(ب) لغات الجزء الجنوبي من هذا القسم ، وهي العربية ، والحيرية

(وتسمى كذلك السبئية أو اليمنية أو العربية الجنوبية) ، واللغات الأثيوبية أو الحبشية .

وأما مجموعة اللغات الحامية ، فننظم ثلاث طوائف :

١ - اللغات المصرية ، وتشمل المصرية القديمة والقبطية .

(١) أنظر الفصل الرابع .

(٢) انتشرت الآرامية كذلك ، تحت تأثير الهجرة والغزو ، في كثير من المواطن التي كانت تحتها

البابلية والآشورية .

٢ - اللغات الليبية أو البربرية ، وهي لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا (طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والصحراء والجزر المتاخمة لها) ، وتشمل اللغات القبلية Kabyles ، والشاوية Chaouïa (اللغات القديمة لسكان الجزائر) ، والتماشكية Tamachek (وهي اللغات القديمة لقبائل التوارج Touareg ، وهي قبائل رحالة بصحراء المغرب) ، واللغات الشيلوهية Chellouh (لغات السكان الأصليين لجنوب مراكش) ولغات زناته Zénaga ، واللغات الجونشية Guanche (لغات السكان الأصليين لجزر قناريا Canaries ، بالمحيط الاطلانطي ، في الشمال الغربي من الصحراء الكبرى) ... وهلم جرا .

٣ - اللغات الكوشيتية Couchitiques وهي لغات السكان الأصليين للقسم الشرقي من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر (ما عدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية والتي تقدم ذكرها في المجموعة الأولى وما عدا المناطق السودانية وما إليها التي سيأتي ذكر لغاتها في الفصيلة الثالثة) ، وتشمل اللغات الصومالية ولغات الجالا ، والبديجا ، ودنقلة ، والاجاو ، والآفار أو الساهو ، والسيداما ... الخ Somali, Galla, Bedja, Dankali, Agaw, Afar ou Saho, Sidama ... etc .

ومن هذا يظهر أن المنطقة التي تشغلها الفصيلة الحامية - السامية أصغر كثيرا من المنطقة التي تشغلها الفصيلة الهندية الأوروبية . فبينما الفصيلة الهندية الأوروبية تشغل أوروبا والأمريكيتين وأستراليا و جنوب أفريقيا وقسمها كبيرا من آسيا ؛ إذ الفصيلة الحامية - السامية لا تشغل إلا بلاد العرب وشمال أفريقيا وجزءا من شرقها (إلى درجة عرض ٤ جنوب خط الاستواء) : فنظمتها لا تتجاوز ٢٠ مليون كيلو مترا مربعا ، بها قسم كبير صحراوي (بلاد العرب وشمال افريقيا) ؛

وعدد الناطقين بها لا يتجاوز خمسين مليوناً ، أى نحو عشر سكان أوروبا وحدها .

ولكنها تمتاز عن الفصيلة الهندية الأوروبية بأن منطقتها متماسكة الأجزاء لا يتخللها أى عنصر أجنبي .

ويتألف من الناطقين بها مجموعة شديدة التجانس تتلاقى شعوبها فى أصول واحدة قريبة ، وتتفق فى أساليب الحياة ونوع الحضارة والنظم الاجتماعية .

ويجمع بين اللغات السامية (المجموعة الأولى من هذه الفصيلة) كثير من الصفات المشتركة المتعلقة بأصول الكلمات والأصوات ومخارج الحروف وقواعد الصرف والتنظيم ... وما إلى ذلك . - وقد قويت وجوه الشبه بين بعض أفرادها (العربية والعبرية مثلاً) حتى ليحسبها الباحث مجرد لهجات للغة واحدة .

أما مجموعة اللغات الحامية (المجموعة الثانية من هذه الفصيلة) ، فلا يوجد بين طوائفها الثلاث (المصرية والبربرية والكوشيتية) من وجوه الشبه والقربان اللغوية أكثر مما يوجد بين كل طائفة منها ومجموعة اللغات السامية . فاعتبارها مجموعة متميزة هو مجرد اصطلاح لا يتفق فى شىء مع حقائق الأمور .

ولذلك عدل بعض المحدثين عن تقسيم هذه الفصيلة إلى مجموعتين ،^١ وأثر جعلها من بادىء الأمر أربع مجموعات : السامية والمصرية والبربرية والكوشيتية (١) .

وتختلف هذه المجموعات الأربع بعضها عن بعض اختلافاً غير يسير فى كثير من الظواهر . ولكن بينها ، على الرغم من ذلك ، من وجوه

(١) وهذا هو ما سار عليه العلامة مارسل كوهين Marcel Cahen . انظر :

Les Langues du Monde P. F. 81 — 153, en part. 83.

الشبه والقراية اللغوية ما يسمح بجعلها فصيلة واحدة مقابلة للفصيلة الهندية الأوروبية .

هذا ، وقد تغلبت مجموعة اللغات السامية على المجموعات الثلاث الأخرى واحتلت كثيرا من مناطقها . فاللغات القبطية والبربرية قد انهزمت أمام اللغة العربية ولم يبق منها الآن الا فلول ضئيلة ؛ وكذلك كانت نهاية الكوشيتية في صراعها مع اللغات السامية : فقد احتلت اللغات السامية معظم مناطقها ، ولم يبق الآن من اللغات الكوشيتية الا بعض لهجات قليلة في المناطق المتاخمة لبلاد الحبشة .

وقد اشتبكت اللغة العربية في صراع مع جميع أخواتها السامية (ما عدا الحبشية) ، فقضت على بعضها قضاء تاما ، ولم تبق لبعضها الآخر إلا آثاراً تافهة . ومن هذا القسم الأخير اللغة العبرية التي كادت تنقرض من المحادثة ، وإن بقيت بين اليهود المتفرقين في أنحاء العالم لغة كتابة وأدب ودين . - وامتد أثر العربية إلى الأمم الآرية والطورانية التي اعتنقت الدين الاسلامي (الفرس ، الهنود ، الاتراك ... الخ) ، فاحتلت لديها مكانة مقدسة سامية ، وتركت آثاراً عميقة في كثير من لغاتها . فالتسعت بذلك مناطق نفوذها ، حتى بلغ عدد الناطقين بها والمؤثرين بسلطانها نحو مائتين وخمسين مليوناً .

وستتكم بتفصيل عن هذه الظواهر وعواملها وما يتصل بها في فصل « حياة اللغة » (١) .



(١) انظر الفصل الرابع ، فقرة « صراع اللغات » .

- ٤ -

الفصيلة الثالثة : اللغات الطورانية

Langues Touraniennes

أطلق مكس مولر وبونسن Bunsen^(١) اسم « اللغات الطورانية » على طائفة من اللغات الآسيوية والأوروبية التي لا تدخل تحت فصيلة من الفصيلتين السابقتين كالتركية والتركانية والمغولية والمنشورية والفينية وهلم جرا؛ وتابعهما في ذلك كثير ممن جاء بعدهما . فاللغات الطورانية ليست إذن فصيلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى مجموعة ترجع إلى أصول واحدة ويجمع بين أفرادها صلات تشابه وقرابة ، بل هى أمشاج من لغات لا يؤلف بينها إلا صفة سلبية وهى عدم دخولها فى إحدى الفصيلتين السابقتين - هذا إلى أن القائلين بها لم يدخلوا تحتها جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين المذكورتين ، بل قصروها على طائفة منها وهى بعض اللغات الآسيوية والأوروبية .

فهذا قسم غير قائم على أساس وغير شامل لما بقى من لغات العالم . ولذلك عدل المحدثون من علماء اللغة عن استعمال كلمة « اللغات الطورانية^(٢) » ، وعمدوا إلى ما بقى من اللغات الإنسانية خارجاً عن

(١) أنظر التعليق الثانى بصفحة ١٤٩ .

(٢) ذهب هذا المذهب من القدامى أنفسهم العلامة رينان . فعلى الرغم من موافقته مكس مولر (الذى كان معاصراً له) فى كثير من آرائه ، فإنه قد رفض الأخذ بنظريته بصدده اللغات الطورانية ، ووجه إليها نقداً لاذعاً فى كتابه أصول اللغة . V. Renan : L' Origine du Langage . p' p. 40 et suiv .

الفصيلتين السابقتين فقسموه إلى فصائل يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات أشابه وقرابة لغوية ، فتتفق في أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل ، ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة ويؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

وأحدث نظرية بهذا الصدد هي ما ذهب إليها « جمعية علم اللغة يباريس Société de Linguistique de Paris » في موسوعتها « لغات العالم ، Les Langues du Monde » إذ قسمت ، على الأسس السابق ذكرها . جميع اللغات الانسانية الخارجة عن الفصيلتين الحامية - السامية والهندية - الاوربية الى تسع عشرة فصيلة : وهي :

١ - فصيلة اللغات اليابانية .

٢ - « فصيلة اللغات الكورية Coréen » (لغات سكان شبه جزيرة كوريا Corée التابعة لليابان والواقعة بين بحر اليابان والبحر الاصفر) .

٣ - لغة الأينو La Langue Aïnou . - ويتكلم بها الآن نحو عشرين ألفاً من سكان جزيرة هوكادو Hokkado وجزيرة ساكهاين Sakhaline وجزيرة شيكوتو Shikotau (وكلها تابعة لليابان) .

ولم تثبت صلة قرابة بين هذه اللغة وأية لغة من اللغات الحية ولذلك عدت فصيلة على حدها .

٤ - « فصيلة اللغات الصينية - التبتية » ، وتشمل اللغات الصينية الأصلية ولهجاتها ، والتبتية Tibétain ، والبرمانية Birman ، والسيامية Siamois (لغة سيام) .

٥ - « فصيلة اللغات الأسترالية الإسيوية » (التي يتكلم بها القسم الإسيوي الجنوبي المتحدر إلى استراليا) ، وتطلق على ثلاث شعب :

شعبة اللغات الانامية (لغة سكان أنام من الهند الصينية)؛ وشعبة اللغات الموندية *Langues Mounda* أو الكولارية *Kolariens* (من أقدم لغات الهند، بل من أقدم اللغات الإنسانية جميعها، ويتكلم بها الآن نحو مليوني نسمة من الهنود، ومنطقتها في الجزء الجنوبي من الهند)؛ وشعبة اللغات المونكهميرية *Les Langues Mon - Khmer* (ويدخل فيها المنية *Le Mon* والكهمرية *Khmer* أو الكمبدجية *Cambodgien* والتشامية *Tcham* - ويتكلم بهذه اللهجات بمنطقة أسام *Assam* وما إليها).

٦ - فصيلة اللغات الدرايدية *Dravidienne* (لغات بعض الشعوب التي كانت تقطن جنوب بلاد الهند قبل أن يهاجر إليها الآريون. وتشمل التامولية *Tamoul* والكانارية *Kanarais* وغيرهما).

٧، ٨ - اللغات القوقازية (ولا يطلق هذا الاسم في اصطلاح علماء اللغة على جميع اللغات القوقازية، بل على مجموعة خاصة منها، وهي اللغات القوقازية، التي ليست سامية، ولا هندية - أوروبية، ولا أورالية - ألتائية)، وتشمل فصيلتين لم تثبت بعد صلوات القرابة بينهما بشكل قاطع،^(١) ولذلك عددناهما فصيلتين لا فصيلة واحدة، وهما: «فصيلة اللغات القوقازية الشمالية»، (وتشمل السامورية *Samourien*، والارتسية *Artai* والأديغية *Adyghé*.... وغيرها)؛ و«فصيلة اللغات القوقازية الوسطى»، (وتشمل الجيورجية *Géorgien*، واللازية *Laze*... وغيرهما).

٩ - «فصيلة اللغات الآسيوية القديمة»، *Langues propres de l'Asie antérieure ancienne* - يطلق هذا الاسم في عرف علماء اللغة على بعض لغات آسيوية قديمة غير سامية ولا هندية - أوروبية كان يتكلم ببعضها في مملكة ميزوپوتاميا *Mésopotamie* (مملكة قديمة كانت تقع بين دجلة والفرات) وبعضها في آسيا الصغرى وفي المناطق المتصلة بها من حوض

(١) V. Langues du Monde p. p. 327 et suiv .

البحر الأبيض المتوسط وفي بعض أجزاء من إيطاليا^(١).
ومن أهم لغات هذه الفصيلة اللغة السومرية Sumérien ، وهي لغة غير سامية ولا هندية - أوروبية ، كان يتكلم بها شعب مجهول الأصل كان يسكن حوض الفرات الأدنى بقرب خليج فارس ، أى فى المنطقة التى احتلتها فيما بعد الشعوب السامية الآشورية والبابلية ونشرت فيها لغاتها الآكادية (شعبة من اللغات السامية ، وتسمى كذلك شعبة اللغات الآشورية - البابلية^(٢)).

ويرجع الفضل فى الوقوف على اللغة السومرية إلى ما عثر عليه أخيراً من آثارها مكتوباً بالخط المسامرى . وتتألف هذه الآثار من وثائق هامة بعضها أدبى - لغوى (شعر ، قواعد ، بحوث لغوية ... الخ) ، وبعضها علمى (فلك ، طبيعة ... الخ) ، وبعضها اجتماعى - تاريخى (يعرض للشئون الاقتصادية والقضائية والسياسية والإدارية والدينية والأسطورية والتاريخية ... وهلم جرا).

١٠ - فصيلة اللغات التركية والمغولية والمنشورية .

١١ - فصيلة اللغات الفينية Finnois والأجرية Ougriennes والسامويدية Samoyèdes (ويتكلم بهذه اللغات فى الحوض الأوسط لنهر الفلجا Volga) . - ويدخل فى الفينية اللغات الفنلندية والاستونية والبلغارية القديمة^(٣) وغيرها . - ويدخل فى الأجرية اللغات اللابونية Lapons (لاتزال لهذه اللغات بقايا فى السويد والنرويج وغيرهما) .

(١) انتقلت هذه اللهجات إلى إيطاليا على إثر هجرة بعض الشعوب إليها من آسيا الصغرى . - وأشهر اللغات الإيطالية القديمة التى تعد من هذه الفصيلة هي اللغة الأتروسكية Etrusque التى كان يتكلم بها الأتروسكيون Etrusques أو الرازينيون Rasennes (وم سكان المنطقة المسماة قديماً إتروريا Etrurie) . (٢) انظر صفحة ١٥٤ .

(٣) قد اقترحت هذه اللغة وجل محلياً لسان مقلي كما سذك ذلك فى الفصل الرابع : صراع اللغات .

واللغات الهنغارية ... وغيرها . - وتنشعب السامويدية إلى الأستياكية Ostiak واليوراكية Yourak والتاجوية Tavgui وغيرها .

هذا ، وقد كان القدامى من علماء اللغة يجمعون معظم أفراد الفصيلة العاشرة والحادية عشرة تحت فصيلة واحدة كانوا يسمونها الأورالية - الألتائية Ouralo - Altaïque أو الطورانية . - ولكن ظهر للمحدثين فساد هذا المذهب ، وتبين لهم أن كلتا المجموعتين مستقلة عن الأخرى .

١٢ - لغة الباسك Basque أو الأسكارا Euskara . ويتكلم بها الباسكيون ، وهو شعب يقطن منطقة جبال البرانس الغربية في العدوتين الأسبانية والفرنسية ، بمناطق بيسكاي Biscaye وألأفا Alava وجويبوزكوا Guipuzcoa ونافار Navarre (أسبانيا) ، وبمناطق بيون Bayonne وموليون Mauléon بفرنسا .

ويدل الإحصاء الذي عمله الأستاذ لويس - لوسيان بونابرت Louis - Lucien Bonaparte عام ١٨٧٣ أن عدد المتكلمين بهذه اللغة يبلغ نحو ٦٦٠ ألفاً في إسبانيا ونحو ١٤٠ ألفاً في فرنسا . - ولكن ليس من شك في أن منطقة اللغة الباسكية ، وبخاصة منطقتها الأسبانية ، كانت قديماً أوسع كثيراً مما يرشد إليه هذا الإحصاء ؛ وقد ضاقت الآن عما كانت عليه عام ١٨٧٣ لتغلب اللغتين الفرنسية والأسبانية على بعض أجزائها ، وخاصة في إقليم نافار Navarre .

هذا ، وقد هاجر إلى أمريكا عقب كشفها بعض أسرات من الباسكيين فانتشرت لغتهم في المناطق التي حلوا بها ، ولا ينفك يتكلم بها الآن بضعة آلاف من أعقابهم ، وتصدر بها بعض صحفهم ومجلاتهم .

١٣ - اللغات الهييربورية Hyperboréennes أو لغات أقصى الشمال ، وهي لغات سيبيريا وما إليها من أقاليم المنطقة المتجمدة الشمالية . - وتشمل هذه الفصيلة اللغة اليوكاجيرية Youkagir التي يتكلم بها في القسم الغربي

من هذه المنطقة ؛ والتشو كتشية Tchouktche التي يتكلم بها نحو عشرة آلاف يقطنون سيبيريا شمالي نهر أنادير Anadyr ؛ والكوريا كية Koryak التي يتكلم بها في المنطقة المحصورة بين نهر أنادير وشبه جزيرة كمتشاتكا Kamtchatka ؛ والكمتشادالية Kamtchadal التي يتكلم بها نحو ألفين يقطنون شبه جزيرة كمتشاتكا وجزر كوريل Kouriles ؛ والجيليا كية Guiliak التي يتكلم بها في شمال جزيرة ساكهاين Sakhaline وفي الحوض الأدنى لنهر أمور Amour .

١٤ - اللغات الملايوية - البولينية Malayo-Polynésiennes . ويتكلم بهذه الفصيلة في طائفة كبيرة من جزر المحيطين الهندي والهادي ، تبدأ شرقاً بجزيرة مدغشقر (٤٠ درجة طول شرقي باريس) وتنتهي غرباً بجزيرة باك Paques (١١٠ درجة طول غربي باريس) ، وتمتد من درجة عرض ٥٠ جنوب خط الاستواء إلى درجة عرض ٣٠ شماليه . - منطقة هذه الفصيلة تشغل نحو ٢١٠ درجات طول وثمانين درجة عرض . وتشمل هذه الفصيلة خمس شعب لغوية وهي :

شعبة اللغات الأندونيسية Indonésiennes ، وهي التي يتكلم بها بجزر أندونيسيا : جزر الفيليبين ، وسيليب ، وبرنيو ، وجاوة ، وسومطرة ، ومادورا ، ومدغشقر . . . الخ ؛

وشعبة اللغات الميلانيزية Mélanésiennes ، وهي التي يتكلم بها في جزر ميلانيزيا : جزر سليمان ، وسانت كروز ، وتوريس ، وهابريد الجديدة ، ولويالتي ، وفيدجي . . . الخ ؛

وشعبة اللغات الميكرونيزية Micronésiennes ، وهي التي يتكلم بها في جزر ميكرونيزيا : جزر جلبرت ، ومرشال ، وكارولين ، وماريان . . . الخ ؛
وشعبة اللغات البولينية Polynésiennes ، وهي التي يتكلم بها في جزر بولينيزيا : جزر ساموا ، وكوك ، وتاهيتي أو جزر الشركة ،

ويوموتى، وتونجا، ومنجاريفا، وباك، وزيلندا الجديدة... الخ؛
 وشعبة لغات الياپو Langues Papoues، وهى اللغات التى يتكلم بها
 فى غينا الجديدة Nouvelle Guinée والجزر المجاورة لها.

١٥ - لغات سكان أستراليا الأصليين .

١٦ - اللغات الأمريكية . ويتكلم بها سكان أمريكا الأصليون
 (الهنود الحمر ومن اليهم) . - وكان يبلغ عددهم حينما كشفت أمريكا
 حوالى ٤٠ مليوناً (أى بنسبة ساكن واحد تقريباً فى كل كيلومتر
 مربع)؛ ثم أخذ عددهم يتناقص شيئاً فشيئاً حتى هبط فى أوائل القرن
 العشرين إلى حوالى ١٥٠٥ مليوناً (أى بنسبة ساكن واحد فى كل ٢٥٥
 كيلو متر مربع)؛ منهم نحو نصف مليون فى الولايات المتحدة
 وجرونلاندا، ونحو ٦٠٥ مليون بأمريكا الوسطى (المكسيك،
 وهوندراس، وكوستاريكا، وبنما، ونيكاراجوا، وجواتيمالا،
 وسلفادور)، ونحو ٨٠٥ مليوناً بأمريكا الجنوبية .

وقد كان لتخلخل السكان فى هذه المنطقة أثر كبير فى تعدد لغاتها .
 فقد بلغت، حسب إحصاء العلامة ريفيه Rivet^(١)، ١٢٣ شعبة : منها
 ٢٦ بأمريكا الشمالية و ٢٠ بأمريكا الوسطى و ٧٧ بأمريكا الجنوبية .

ومن أشهرها بأمريكا الشمالية لغات الإيروكويين Iroquois ،
 والألجوكويين Algonkins ، والإسكيمو Esquimaux ، والسيو Siou ؛
 وبأمريكا الوسطى لغات الأموسجو Amasgo والكويكاتك Kuikatek ،
 واللينكا Lenka ، والميا Maya ، والميسكيتو Miskito ؛ وبأمريكا الجنوبية
 لغات الألاكالف Alakaluf ، والأروكان Aroukan ، والأراواك
 Arawak ، والأناكاما Atakama ، والكاريب Karib ، والإيتوناما
 Itonama .

(١) V. Rivet, dans : Les Langues du Monde p. p. 597 - 713

هذا ، ولم تظهر بعد بشكل قاطع صلة قرابة لغوية أو صفة مشتركة تربط هذه الشعب بعضها ببعض . فالفصيلة التي نحن بصدد الكلام عنها هي إلى الفصيلة الجغرافية أدنى منها إلى الفصيلة اللغوية .

١٧ - لغات السودان وغانة^(١) . - وهي لغات غير سامية ولا حامية تتكلم بها جماعات كثيرة من زنوج السودان وسكان غانة . وقد قسمها العلامة موريس ديلافوس Maurice Delafosse إلى ٣٥ لغة ترجع إلى ست عشرة شعبة^(٢) : منها الشعبة النيلية التشادية Nilo - tchadien (يتكلم بها في المنطقة المحصورة بين أسوان شمالا وفاشودة جنوبا ، وتشتمل على ثلاثين لغة من أشهرها لغات النوبة ، والباريا ، والتوبو ، والميمي ، والكونا ما . . . الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية - الأيسينية (يتكلم بها في الحوض الأوسط للنيل الأزرق وفي حوض النيل الأبيض وبحر الجبل ، وتشتمل على خمس عشرة لغة من أشهرها لغات الشيلوك ، والدنسكا ، والديور ، والجاميلا ، والدوكو . . . الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية - الاستوائية (يتكلم بها في جنوب المنطقة السابقة ، وتشتمل على ست وعشرين لغة من أشهرها لغات الباري ، واللاتوكا ، والليري ، والكافير وندو ، والتاتورو . . . الخ) ؛ وشعبة لغات كردوفان (يتكلم بها في منطقة كردوفان ، وتشتمل على عشر لغات منها لغات التالودي ، واللافوفا ، والتومتوم ، والكاندرما . . . الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية - الكونغوية ؛ وشعبة اللغات البنغالية - الغانية . . . وهلم جرا .

١٨ - اللغات البنطوية Langues Bantou . - ويتكلم بها سكان

(١) هي الجزء الغربي من أفريقيا المحصور بين سنغاليا شمالا والكونغو جنوبا والواقع على سواحل خليج غانة .

(٢) V. Maurice Delafosse, dans : « Les Langues du Monde » p. p. (٢)

القسم الجنوبي من أفريقيا في منطقة واسعة على شكل مثلث ينطبق رأسه على رأس الرجا الصالح، ويمتد ضلعه الأيمن على الساحل الشرقي لأفريقيا حتى بلاد الصومال^(١)، وضلعه الأيسر على الساحل الغربي حتى مدينة دوالا Douala ببلاد الكمرون^(٢)، وتتجه قاعدته من بلاد الصومال إلى المحيط الاطلانطيقي مارة شمال أوغندا والكنغو. وكل الشعوب التي تقطن هذا المثلث تتكلم البنطوية ما عدا قبائل الهوتنتوت والبوشيمان والنيجريين التي سيأتي ذكرها في الفصيلة التاسعة عشرة.

وتشتمل هذه الفصيلة على لغات كثيرة من أشهرها لغات السوثو Sotho، والسواحلي Swahili، والدوالا Douala، والجندا Ganda، والجالوا Galoa، والتونجا Tonga.

هذا، وقد كان العرب على اتصال بأهل زنجبار منذ عصور سحيقة ولذلك عنوا بدراسة لغتهم (المسماة السواحلية Swahili) ودونوها بحروف عربية. وعن طريقهم وصلنا كثير من تفاصيل هذه اللهجة. أما اللغات الأخرى من هذه الفصيلة فقد عني بدراستها كثير من أعضاء الإرساليات الدينية في هذه المنطقة، ودونوها بحروف لاتينية، مع بعض علامات تمييز الأصوات الخاصة بها.

١٩- لغات البوشيمان والهوتنتوت والنيجريين Boschimans, Hottentotes وهي من القبائل الإفريقية الجنوبية، تقطن أولها الغابات الاستوائية والمناطق الصحراوية، ولا يتجاوز عدد أفرادها الآن خمسين ألفاً؛ وتقطن ثانيها منطقة محصورة بين خط عرض ٢٤ جنوب خط الاستواء والحوض الأدنى لنهر الأورانج وبعض أجزاء من مستعمرة

(١) الناية هنا خارجة، فلغات الصومال من الشعبة الكوشيتية (إحدى شعب الفصيلة السامية - الحامية)

كما تقدم، انظر ص ١٥٥.

(٢) الناية هنا داخلة، فلغة دوالا من أم لغات هذه الفصيلة.

الكاب، ولا يتجاوز عدد أفرادها الآن ربع مليون يتألف معظمهم من عشائر الناما Nama^(١)، وتتألف ثالثها من أقزام يقطنون الغابات الاستوائية.

هذا، ولما كانت هذه الفصائل ممثلة للقسم البدائي أو الذي وقف نموه من لغات بني الإنسان، فأهميتها النسبية أقل كثيراً من أهمية الفصيلتين السابقتين (الهندية - الأوروبية، والحامية - السامية)؛ ولما كان المقام، من جهة أخرى، لا يتسع في عجلة كهذه للكلام عنها وعن خصائص كل منها^(٢)؛ ولأن الباحثين، من جهة ثالثة، لم يصلوا بعد في دراسة معظمها إلى نتائج ذات بال؛ لهذا كله آثرنا أن نقصر على ماسبق ذكره بصددنا، ونقف الجزء الباقي من هذا الفصل على تكملة البحث في الفصيلتين الهندية - الأوروبية والحامية - السامية.



(١) كانت عشائر الموتوتوت تقطن قديماً منطقة واسعة جنوب نهر زمبيزي، ثم أخذت هذه المنطقة تضيق شيئاً فشيئاً تحت تأثير غارات البتويين من الشمال والأوروبيين من الجنوب حتى انحصرت في الحدود التي وصفناها.

(٢) حاولت جمعية علم اللغة يباريس Société de Linguistique de Paris تحت إشراف الأستاذين مييه Meillet ومارسل كوهين Marcel Cohen، أن تعرض في كتابها «لغات العالم» Les Langues du Monde بمجا موزا في هذه الفصائل التسع عشرة فاستغرق بحثها هذا نحو ستمائة صفحة من القطع الكبير (من ١٥٣ - ٧١٣). وقد اشترك في تحريره طائفة من أئمة الاختصاصيين في هذه اللغات.

- ٥ -

بعض ما تختلف فيه الفصيلتان السامية والهندية - الأوروبية
 تمتاز كل من هاتين الفصيلتين عن الأخرى بخواص كثيرة من
 أهمها ما يلي (١) :
 ١ ، ٢ - تتألف أصول الكلمات في اللغات السامية من ثلاثة أصوات
 سا كنة (أحرف سا كنة (٢)) . ففي اللغة العربية مثلا ترجع جميع
 الكلمات التي فيها معنى القتل إلى أصل ثلاثي مؤلف من ثلاثة أصوات
 سا كنة هي ق ت ل . - ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا الحروف
 والضمائر وبعض أسماء الشرط والموصول . . . وما إلى ذلك .
 وهذه الأصول لا توجد مستقلة في اللغات السامية . فالأصل الدال
 على معنى القتل في اللغة العربية مثلا وهو ق ت ل لا يوجد مستقلا في
 هذه اللغة ، بل لا يمكن النطق به .
 والأصوات التي يتألف منها أصل ما توجد مرتبة ، حسب ترتيبها
 في هذا الأصل ، في جميع الكلمات المشتمة على معناه العام . فالأصوات
 الثلاثة ق ت ل التي يتألف منها الأصل الدال على معنى القتل ، توجد

(١) وقف انقطاع على هذا الموضوع مجلدات ضخمة ، من أحسنها وأقربها ما أخذنا في اللغات الهندية -
 الأوروبية كتاب الأستاذ ميه : *Meillet : Introduction à l'étude comparative des langues Indo - Européennes* ويقع في نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير؛ وبق اللغات
 السامية كتاب العلامة رينان *Renan : Histoire générale des langues Sémitiques* ويقع كذلك في نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير . وقد عرضت جمعية علم اللغة بباريس
 للفصيلتين مما في كتابها لغات العالم ، في نحو مائة وخمسين صفحة (١ - ١٥٣) .
 (٢) الحرف هو ما يرمز إلى الصوت في الكتابة . فاستعمال كلمة أصوات في هذا المقام أدق من
 استعمال كلمة حروف .

مرتبة بالشكل السابق في جميع الكلمات المشتملة على هذا المعنى : قتل ، قاتل ، قتال ، قتيل ... الخ .

واشتغال الكلمة على أصوات أصل ما لا يدل على أكثر من تضمها للمعنى العام لهذا الأصل .

أما ما عدا هذا المعنى العام فيشار إليه بأصوات مد طويلة (ألف ، ياء ، واو ... الخ) أو قصيرة (فتحة ، كسرة : ضمة) تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . فنوع الكلمة (كونها اسما أو فعلا أو حرفا ، اسم فاعل أو اسم مفعول ، متعدية أو لازمة ، مفردة أو مثنى أو جمعا ... الخ) وزمنها (حدث معناها في الماضي أو يحدث في الحال أو في المستقبل) ووظيفتها في الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه أو حالا أو تمييزا ... الخ) ... كل ذلك وما إليه تدل عليه في اللغات السامية أصوات مد طويلة أو قصيرة تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . وأصوات المد الطويلة هي التي يرمز إليها في الكتابة العربية بحروف اللين الثلاثة (الألف والياء والواو) ، والقصيرة هي التي يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة : فبضم القاف وكسر التاء وفتح اللام في « قَتَلَ المجرم » ، مثلا ، تدل الكلمة على فعل قتل حدث في زمن مضى . ومسند للمفعول . وبمد القاف بالألف وكسر التاء وإبقاء اللام ساكنة في « قَاتِلُ الذي يقاتلك » ، تدل الكلمة على أمر المخاطب بإجراء القتل في صورة متبادلة مع غيره . وبفتح القاف ومد التاء بالياء وكسر اللام في « هذا دم القتيل » ، تدل الكلمة على شخص وقع عليه القتل ومنسوب إليه (مضاف إليه) شيء آخر . وبفتح القاف وإبقاء التاء ساكنة ومد اللام بالألف في « هؤلاء قتلى الحرب » ، تدل الكلمة على عدة أفراد وقع عليهم القتل ... وهم جرا .

وقد يصحب هذا أحيانا أصوات جديدة تسبق أصوات الأصل الثلاثة أو تتخللها أو تلحقها للدلالة على معان خاصة في الكلمة . فزيادة ميم محرّكة بالفتح قبل أصوات الأصل ونون ساكنة في نهاية الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وفتح التاء واللام في « أصاب مقتلا (مقتلن) » ، تدل الكلمة على عضو نكرة تؤدي إصابته إلى القتل وقد وقع عليه الفعل المعبر عنه في الجملة . وبزيادة ياء مفتوحة قبل أصوات الأصل وتاء مفتوحة بعد القاف ونون مفتوحة في آخر الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وكسر التاء ومد اللام بالواو في « القوم يقتلون » ، تدل الكلمة على فعل يحدث في الحال أو في الاستقبال في صورة متبادلة بين طائفتين من الذكور الآدميين .

أما في اللغات الهندية - الأوروبية فالأصل الدال على المعنى العام للكلمة هو نفسه بمنزلة كلمة مستقلة يمكن فصلها والنطق بها على حدة^(١) . وقد يتحقق أحيانا هذا الفصل في الواقع فيبقى الأصل في الكلمة مجرداً من كل عنصر آخر^(٢) . - على أنه في حكم الثابت أن جميع أصول الكلمات الهندية الأوروبية كانت في عصورها الأولى - إذ كانت اللغة غير متصرفة^(٣) - تستخدم وحدها عارية من كل زيادة^(٤) . وليست هذه الأصول متحدة في عدد أصواتها (حروفها) كما هو شأن الأصول السامية ؛ بل يختلف بعضها عن بعض بهذا العدد اختلافا كبيرا .

(١) V.Renan: Langues Sémitiques 455 et suiv . ;Meillet:Introduction

.... etc 115 - 122 .

(٢) Meillet op. cit. 120

(٣) انظر معنى هذه الكلمة بآخر صفحة ١١٦ وأول صفحة ١١٧ .

(٤) Meillet, op. cit. 119 . 120 .

بعض ما يختلف فيه الفصيلتان السامية والهندية - الأوروبية ١٧١

ويشير الأصل في الكلمة الهندية - الأوروبية إلى معناها العام .

أما ما عدا ذلك ، فيشار إليه بالعلامات الآتية (١):

١- أصوات تلحق الأصل فتدل على نوع الكلمة (كونها اسما أو فعلا
أو حرفا ، اسم فاعل أو مفعول ... الخ) وتسمى هذه الأصوات « باللاحقة » ،
Suffixe . وأصل الكلمة مع لاحقتها يسميان مادة الكلمة *Thème* .

وقد يتصل بالأصل أكثر من لاحقة واحدة للدلالة على عدة معان
في الكلمة من هذا القبيل . وقد تعرفوا الكلمة من اللواحق ، ولكن
تجردها منها يشير هو نفسه إلى معنى خاص فيها .

ب- أصوات تأتي عقب اللاحقة فتختتم بها الكلمة لتعيين وظيفتها
في الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه ... الخ) وزمنها (ماضيا
أو مضارعا ... الخ) ونوع إسنادها (كونها مسندة إلى المتكلم أو
المخاطب أو الغائب ... الخ) ودلالاتها على مذكر أو مؤنث ، مفرد أو
مثنى أو جمع ... وهلم جرا . وتسمى هذه الأصوات « بالختامة » ،
Désinence (٢) .

ولا يلحق الأصل أكثر من خاتمة واحدة . وقد تتجرد الكلمة
من « الخواتم » ، ولكن تجردها منها يشير هو نفسه إلى معنى خاص
فيها . فتجرد الفعل مثلا من الخاتمة يدل ، في بعض اللغات الهندية -
الأوروبية (ومنها الإنجليزية والفرنسية) على أنه أمر مسند للمفرد
المخاطب *Aime , Love* .

وقد تتجرد الكلمة من اللاحقة والخاتمة فيبقى الأصل عاريا من

(١) انظر في هذه العلامات وما يتصل بها 122 - 115 . Meillet op. cit.

(٢) ليست كلمة « الخاتمة » ، بترجمة لكلمة *Désinence* ، بل هي كلمة من اصطلاحنا

لتسهيل التسمية .

كل زيادة . ولكن تجرده هذا يدل هو نفسه على معنى خاص فيه .
 ح - أصوات تسبق الأصل فتلصق بالكلمة في مبدئها للدلالة على
 معان من نوع المعاني التي تدل عليها الأصوات اللاحقة السابق ذكرها .
 وتسمى هذه الأصوات « بالسابقة » ، Préfixe .

د - أصوات لين طويلة أو قصيرة a, e, é, è, ê, i, o, ô, y, oi, ei ، تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها على نحو
 ما تقدم شرحه في اللغات السامية .
 eau, au, ou, ui ... etc.

ه - شكل النطق بمختلف أجزاء الكلمة . ففي بعض اللغات
 الهندية - الأوروبية يتغير معنى الكلمة بتغير طريقة النطق بأجزائها .
 ففي الإنجليزية مثلا تتردد بعض الكلمات بين الاسمية والفعلية تبعا
 لطريقة النطق بها : فإذا ضغط في النطق على جزئها الأول كانت اسما ،
 وإذا ضغط على جزئها الأخير كانت فعلا :

The object of our book is

I object against this theory

و - موقع الكلمة في الجملة . ففي بعض اللغات الهندية - الأوروبية

لا يتميز الفاعل من المفعول إلا بتقديمه في الجملة . Pierre bat Paul

وتختلف اللغات الهندية - الأوروبية في مبلغ استخدامها لهذه
 العلامات الست . فمن اللغات الهندية - الأوروبية ما يستخدم جميع هذه
 العلامات ، ومنها ما لا يستخدم إلا بعضها ، ومنها ما يستخدم بعضها بكثرة
 ولا يلجأ لبعضها الآخر إلا نادرا . وإليك مثلا العلامات التي سميناها
 « السابقة » (رقم ح) ؛ فهي لا توجد في كثير من اللغات الهندية -
 الأوروبية القديمة ؛ على حين أنها تكثر في الحديثة منها كالإنجليزية
 والفرنسية وما إليهما Understand , Comprendre

بعض ما تختلف فيه الفصيلة السامية والهندية - الأوروبية ١٧٣

٣- لا تكاد توجد في اللغات السامية كلمات تشتمل على أكثر من أصل واحد، على حين أن هذا النوع يكثر في اللغات الهندية- الأوروبية، وبخاصة الحديث منها. وكل كلمة من هذا القبيل تدل على معنى مركب من معاني الأصول التي تشتمل عليها (١).

٤- ليس للفعل في اللغات السامية إلا زمانان. فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (مضارع للحال أو الاستقبال وأمر) على حين أن له في اللغات الهندية- الأوروبية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة: الماضي القريب، الماضي البعيد، الماضي الكامل، الماضي المتصل بالحاضر، الحاضر، المستقبل... الخ. وقد بلغت هذه الأزمنة في اللغة الفرنسية أحد عشر في الجمل الإخبارية وحدها Indicatit

Je parle, Je parlais, je parlai, J'ai parlé, j'en ai parlé, j'avais parlé. J'ai eu parlé, j'avais eu parlé, je parlerai, j'aurai parlé, j'aurai eu parlé.

٥- يحدث في الغالب تأنيث الاسم والصفة في اللغات السامية والحامية بإضافة تاء إلى المذكر. أما في اللغات الهندية- الأوروبية فالتأنيث طرق أخرى كثيرة: منها تضعيف الحرف الأخير للمذكر (Chat. te, gras, se)؛ ومنها استبدال حرف آخر به (Loup, ve; neuf, ve)؛ ومنها استبدال عدد من الأحرف الأخيرة في المؤنث بعدد من الأحرف الأخيرة في المذكر (instituteur, trice; peucheur, chresse)؛ ومنها مد الحرف الأخير في المذكر (berger, ère; fermier, ière)؛ ومنها زيادة

(١) توجد هذه الظاهرة في اللغات السامية في بعض كلمات قليلة معظمها حديث النشأة، ومن ذلك ما يسمونه بالكلمات المنحوتة: تلاثي (أصبح لاثني) حمدل (قال الحمد لله) بسمل (قام بسم الله) طلبق (قال أطال الله بقاءك) ... الخ.

بعض حروف على المذكور (tigre, resse, conte, tesse) .

٦ - يميل الأسلوب كثيراً في اللغات السامية - وبخاصة الأسلوب الأدبي - إلى استخدام الكلمات والعبارات في غير ما وضعت له عن طريق الاستعارة والمجاز المرسل والكناية وما إلى ذلك . أما أساليب اللغات الهندية - الأوروبية فيبدو فيها الحرص على استخدام الكلمات في معناها الأصلي .

هذا ، وقد اعتمدنا في التفرقة بين هاتين الفصيلتين على أمور تتصل بالقواعد لا بالمفردات .

وذلك لأن ناحية القواعد هي أهم ما يمتاز به الفصائل بعضها عن بعض . فمنها تتكون شخصية اللغات وإليها ترجع مقوماتها . وهي التي تمثل المظهر الثابت المستقر في اللغات : فهي لا تكاد تتغير ، وما يحدث فيها أحياناً من تغير يجري دائماً ببطء وفي نطاق ضيق . وهي ، إلى هذا كله ، لا تنتقل بطريق الاقتباس أو غيره من لغة إلى أخرى^(١) . فتشابه لغتين في القواعد يدل إذن على انتمائهما إلى فصيلة واحدة ؛ واختلافهما فيها يدل على اختلاف فصيلتهما .

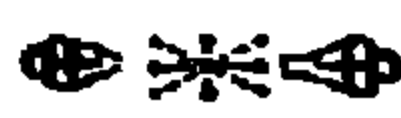
على حين أن المفردات تمثل المظهر المتقلب والناحية المتقلبة في اللغات . فهي محاطة بعوامل كثيرة تحول دون ثباتها وتجعلها عرضة للتغير المطرد والتطور السريع ، وتذلل لها وسائل الانتقال من لغة إلى لغة . فتشابه لغتين في مفرداتهما لا يدل على انتمائهما إلى فصيلة واحدة . فقد

(١) سنعرض لهذا الموضوع بتفصيل في الفصل الآتي وسنذكر فيه أن القواعد إذا انتقلت من لغة إلى أخرى كان انتقالها أيداناً بزوال اللغة التي انتقلت إليها واندماجها في اللغة التي انتقلت منها ، وإن هذا يحدث حيناً تشبكاً لثان في صراع ويكتب لاحداها النصر .

بعض ما تختلف فيه الفصيلتان السامية والهندية - الأوروبية ١٧٥

تكونان من فصيلتين مختلفتين ويكون السبب في هذا التشابه راجعاً إلى أن إحداهما قد اقتبست مفرداتها عن الأخرى . واختلاف لغتين في مفرداتهما لا يدل على اختلاف فصيلتيهما . فقد تكونان من فصيلة واحدة ويكون السبب في هذا الاختلاف راجعاً إلى أن مفردات كل منهما قد سلكت في تطورها طريقاً يختلف عن الطريق الذي سلكته مفردات الأخرى لاختلافهما في المؤثرات المحيطة بهما ، أو أن إحداهما قد اقتبست مفرداتها من لغة ثالثة لا تربطها باللمحة قرابة فبعدت في هذه الناحية عن فصيلتها .

فاللغة السريانية مثلاً تعد من فصيلة اللغات السامية ، مع أن قسماً كبيراً من مفرداتها يتحد مع مفردات اللغة الإغريقية التي تعد من أفراد الهندية - الأوروبية . وذلك لأن قواعد الأولى قواعد سامية ، وقواعد الثانية هندية - أوروبية . وتشابههما في المفردات نشأ عن مجرد اقتباس الأولى عن الثانية لما كان يعوزها من كلمات . - واللغة التركية تتفق في قسم كبير من مفرداتها مع الفارسية والعربية ؛ مع أن كل لغة من هذه اللغات الثلاث تعد من فصيلة خاصة . فالتركية من الفصيلة التتارية ، والفارسية من الهندية - الأوروبية ، والعربية من السامية . وذلك لاحتفاظ كل منها بقواعد فصيلتها . أما تشابهها في المفردات فقد نشأ عن مجرد انتقال طائفة من كلمات اللغتين الثانية والثالثة إلى اللغة الأولى عن طريق الاقتباس . وعلى هذا الأساس عدت الفارسية الحديثة من فصيلة اللغات الهندية - الأوروبية على الرغم من اتفاقها في كثير من المفردات مع اللغة العربية التي تعد من فصيلة اللغات السامية .



- ٥ -

وجوه الشبه بين الفصيلتين السامية والهندية - الأوروبية

ترى طائفة من العلماء أن هاتين الفصيلتين ، مع اختلافهما في القواعد ، تتفقان في كثير من أصول الكلمات . ومن أشهر أفراد هذه الطائفة الأساتذة كلاپروث وبوب وهمبلدت وإوالد وبنفي ولاسن وبوت وكيل وبونسن وإيبسيوس وفورست وديليتزش^(١)

Klaproth , Bopp , Humboldt , Ewald , Benfey , Lassen , Pott , Keil , Bunsen , Lepsius , Fürst , Delitzsch .

وقد أوغل كثيرا في هذه السبيل الأستاذان فورست وديليتزش ، فلم يغادرا أصلا من أصول الفصيعة السامية إلا كشفا عما يشبهه صوتا ودلالة من أصول الفصيعة الهندية - الأوروبية .

أما تعليل هذه الظاهرة فقد انقسم هؤلاء العلماء بصدده إلى ثلاث فرق : ففريق يعلمها بأن إحدى الفصيلتين قد انشعبت عن الأخرى وظلت محتفظة بأصول مفرداتها ، ولكنها سلكت في تكوين قواعدهما وجهة تختلف عن وجهة أصلها ، فأخذت تبعد عنه في هذه الناحية شيئا فشيئا حتى وصل الخلاف بينهما إلى الحد الذي هما عليه الآن . وفريق يذهب إلى أنهما قد تفرعتا عن لغة دثرت ولم يصلنا شيء من آثارها ، وأن هذه اللغة كانت متصرفة^(٢) ذات قواعد كاملة التكوين ، وأن قواعد

(١) من بين هؤلاء من كشف عن وجوه الشبه بين جميع أفراد الفصيعة الأولى وجميع أفراد الفصيعة الثانية ؛ ومنهم من كشف عن وجوه الشبه بين بعض لغات الفصيعة الأولى وبعض لغات الفصيعة الثانية ؛ كاللغة ليبسيوس الذي كشف عما تتفق فيه أصول الكلمات المنسكريفية مع أصول الكلمات العبرية . (٢) انظر معنى هذه الة بصفحة ١١٥ .

كل فصيلة منهما قد سلكت في تطورها طريقا يختلف عن طريق الأخرى ، ولكن كليهما ظلت محتفظة بأصول مفردات اللغة التي انشعبتا عنها . وفريق ثالث يرى أن الشعب الذي تفرع عنه الساميون والآريون كان له في الأصل لغة مشتركة ، وأن انقسامه إلى هاتين الشعبتين قد حدث ولغته في الدور الأول من أدوار تكوينها ، إذ لم تكن قد تجاوزت بعد مرحلة اللغات العازلة (١) العارية من القواعد ، وأن كل شعبة منهما ، تحت تأثير عقليتها الخاصة وما كان يكتنفها من شئون طبيعية واجتماعية ، قد اتجهت في تكملة لغتها وتكوين قواعدها منحى يختلف عن المنحى الذي اتجهت إليه الشعبة الأخرى ، ولكن بقي في مفردات كليهما كثير من آثار الأصل المشترك .

غير أن أساس النظرية نفسه ، وهو اتفاق الفصيلتين في أصول المفردات اتفاقا يؤذن بانسحاب إحدهما عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل واحد قريب ، غير مسلم به من جمهرة المحققين من علماء اللغة . وذلك لأن القائلين بهذه النظرية لم يقدموا على صحتها دليلا يعتد به . فليس من بين وجوه الشبه التي كشفوا عنها بين هاتين الفصيلتين ما ينهض دليلا قاطعا على صحة نظريتهم ؛ بل إن كثيرا منها لينم على ضعفها وبطلانها . فمن ذلك مثلا ما اعتمد عليه بهذا الصدد الألمان فورست وديليتزس . وقد ذهبوا إلى أن أصول الكلمات السامية كانت قديما مؤلفة من حرفين اثنين ثم زيد فيما بعد على كل أصل منها حرف ثالث (٢) . وعلى أساس هذا المذهب - الذي لا يؤيده أى دليل قاطع ، بل قامت أدلة قوية على

(١) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ١١٧ .

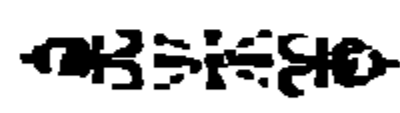
(٢) قد قال بهذا من قبلهما الأستاذ جزييفوس Gesenius - انظر فيما يتعلق بأصول الكلمات السامية صفحة ١٦٨ وتوابها .

بطلانه - تحايلا على التقريب بين الأصول السامية والأصول الهندية - الأوروية . فاختار الكل أصل سامي كلية هندية - أوروية تقرب منه في أصواتها ودلالاتها ، وقررا تفرعهما عن أصل واحد . ولا إثبات ذلك يختاران حرفين تشترك فيهما الكلمتان ، ويقرران أن الأصل السامي كان يتألف قديما من هذين الحرفين وحدهما ثم زيد عليهما فيما بعد حرف ثالث ، وأن هذا الأصل الثنائي نفسه هو الذي جاءت منه الكلمة الهندية - الأوروية . ولا يخفى ما في هذه الطريقة الاستدلالية من تحكم وتخمين ومجافاة للروح العلمي ومناهج البحث الصحيح (١) . - ومن ذلك أيضا ما ذهب إليه ديليتزش بصدد التشابه بين طائفة من مفردات اللغة العبرية من جهة وطائفة من مفردات اللغتين الإغريقية واللاتينية من جهة أخرى . فقد اتخذ من هذا التشابه دليلا على صحة النظرية التي نحن بصدد مناقشتها ، غافلا عن أن العبرية الحديثة قد اقتبست اقتباسا كثيرا من مفردات الإغريقية واللاتينية . ومن الغريب أن الكلمات التي ذكرها للاستدلال على مذهبه هي ذاتها من أشهر ما اقتبسته العبرية الحديثة من هاتين اللغتين . - وآخرون من المؤيدين لهذه النظرية يعتمدون في إثبات التشابه بين مفردات الفصيلتين السامية والهندية - الأوروية على كلمات تكاد تتفق في جميع اللغات لانحدارها من الأصل الأول الذي نشأت منه اللغة الإنسانية ، وهو أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأصوات التي تحدثها الأفعال وأصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات . . . وما إلى ذلك . وغنى عن البيان أن كلمات هذا شأنها لا تدل على ما يذهب إليه أصحاب هذه النظرية من انشعاب إحدى الفصيلتين عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل قريب . - وبعض

(١) انظر في الرد على هذه النظرية Renan : Langues Sémitiques , p. 448 et suiv .

وجوه الشبه بين الفصيلتين السامية والهندية - الأوروية ١٧٩

المؤيدين لهذه النظرية يعتمد في إثبات القرابة بين الفصيلتين على وجوه شبه بعيدة بين مفرداتهما أو على تقارب جاء عن طريق الصدفة والاتفاق.. - وقصارى القول: لا نكاد نجد من بين الأدلة التي اعتمد عليها أصحاب هذه النظرية ما يستحق المناقشة، فضلا عن أن ينهض حجة قاطعة على صحتها .



الفصل الرابع

صراع اللغات (١)

٥٣٤٤٥

-١-

نظرة عامة في عوامله وآثاره في حياة اللغة

يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعى وراء الغلب والسيطرة. وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال : فتارة ترجح كفة أحد المتنازعين فيسارع إلى القضاء على الآخر مستخدما في ذلك وسائل القسوة والعنف، ويتعقب فلوله فلا يكاد يبقى على أثر من آثاره؛ وتارة ترجح كفة أحدهما كذلك، ولكنه يمهل الآخر، وينتقص بالتدريج من قوته ونفوذه، ويعمل على خضد شوكته شيئا فشيئا حتى يتم له النصر؛ وأحيانا تتكافأ قواهما أو تكاد فتظل الحرب بينهما سجالا ويظل كل منهما في أثنائها محتفظا بشخصيته ومميزاته.

وينشأ هذا الصراع عن عوامل كثيرة أهمها عاملان : أحدهما أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله؛ وثانيهما أن يتجاور شعبان مختلفا اللغة فيتبادلا المنافع ويتاح لأفرادهما فرص للاحتكاك المادي والثقافي.

(١) يندرج موضوع هذا الفصل مع موضوع الفصلين التاليين : « انقسام اللغة إلى لغات » و « تطور اللغة وارتقاؤها » تحت شعبة دراسية واحدة، وهي « حياة اللغة » (انظر ص ٦ رقم ٢). ولكننا آثرنا أن نقف على كل بحث من هذه البحوث الثلاثة فصلا خاصا، حرصا على تمييز المسائل بعضها من بعض.

وسنقف على دراسة كل عامل من هذين العاملين ونتأمله فقرة على حدتها .

-٢-

العامل الأول من عوامل الصراع اللغوي نزوح عناصر أجنبية إلى البلد

قد يحدث على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة ... أن ينزح إلى البلد عنصر أجنبي ينطق بلغة غير لغة أهله ، فيشتبك اللغتان في صراع ينتهي إلى إحدى نتيجتين : فإحيانا تنتصر لغة منهما على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان قديمهم وحديثهم أصيلهم ودخيلهم ؛ وإحيانا لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معا جنباً لجنب .

١- الحالات التي يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى ، وهي أن تغلب إحدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان أصيلهم ودخيلهم ، في حالتين :

(الحالة الأولى) أن يكون كلا الشعبين همجياً قليلاً الحضارة منحنى الثقافة ، ويزيد عدد أفراد أحدهما عن عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة . ففي هذه الحالة تغلب لغة أكثرهما عدداً سواء أكانت لغة الغالب أم المغلوب ، لغة الأصيل أم الدخيل ؛ على شريطة أن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ . فمن ذلك أن الإنجليز

السكسونيين ، حينما نزحوا من أواسط أوروبا إلى إنجلترا ، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتية التي كان يتكلم بها السكان الأصليون . وذلك لأن عدد من بقي من السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد المغيرين ؛ وكلا الشعبين كان همجياً منحطاً في مستوى حضارته ومبلغ ثقافته ؛ وكلتا اللغتين تنمى إلى فصيلة اللغات الهندية لأوروبية . - والنورمانديون Normands ، حينما أغاروا على إنجلترا في منتصف القرن التاسع الميلادي واحتلوا معظم أقاليمها ، لم تلبث لغة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم ، فأصبح جميع السكان ، أصيلهم ودخيلهم ، إنجليزهم ونورمانديهم ، يتكلمون الانجليزية السكسونية . وذلك لأن الانجليز المغلوبين كانوا أكثر عدداً من النورمانديين الغالبين ؛ ولم يكن لأحد الشعبين إذ ذاك حضارة ولا ثقافة راقية ؛ وكلتا اللغتين من الفصيلة الهندية - الأوروبية .

وقد يحدث أحياناً في هذه الحالة أن تغلب لغة على أخرى من غير فصيلتها . ولكن هذه الظاهرة نادرة الحدوث ، ولا يتم التغلب فيها إلا بصعوبة وبعد أمد طويل . واللغة التي تنشأ من هذا التغلب ينالها كثير من التحريف في السنة المحدثين من الناطقين بها ، لشدة الاختلاف بينها وبين لغتهم الأصلية ؛ فتبعد بعداً كبيراً عن صورتها الأولى . فالبلغاريون ، وهم من أصل فينواي Finois ، حينما نزحوا إلى البلقان وامتزجوا بشعوب الصقالبة (السلافية Slaves) ، أخذت لغتهم تنهزم شيئاً فشيئاً أمام لغة هذه الشعوب حتى انقرضت وحل محلها لسان صقلبي . وذلك لأن عدد البلغاريين لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد الصقالبة الممزجين بهم ؛ وكلتا الفئتين كانت إذ ذاك همجية منحطة في مستوى حضارتها ومبلغ ثقافتها . وقد حدث هذا التغلب مع اختلاف

صراع اللغات : نزوح عناصر أجنبية إلى البلد ١٨٣

اللغتين في الفصيلة ، فلغة البلغاريين الأصلية كانت من الفصيلة الفينية^(١) ، على حين أن اللغات الصقلية من الفصيلة الهندية الأوروبية^(٢) . ولكن هذا التغلب لم يتم إلا بصعوبة وبعد أمد طويل وصراع عنيف خرجت منه اللغة الغالبة مشوهة محرقة عن مواضعها في ألسنة المحدثين من الناطقين بها ، فبعدت بعدا كبيرا عن صورتها القديمة . فالبلغارية الحديثة هي أكثر اللهجات الصقلية تحريفا وبعدا عن أصولها الأولى .

(الحالة الثانية) أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته ، وأشد منه بأسا وأوسع نفوذا . ففي هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان ، وإن قل عدد أفرادها عن أفراد الشعب المغلوب ؛ على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفرادها في بلاد الشعب المغلوب ، وأن تمتزج بأفراد هذا الشعب ، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ . فقد نجم عن فتوح الرومان في وسط أوروبا وشرقيها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى Alpes Centrales والإيليريا Illyrie ، مع أن الرومان المغيرين كانوا في هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين . - وقد نجم عن فتوح العرب في آسيا وأفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية^(٣) ؛

(١) انظر ص ١٦١ رقم ١١ . (٢) انظر آخر صفحة ١٥١ رقم ٨ .

(٣) انظر هذه اللغات بصفحات ١٥٤ - ١٥٧ .

فأصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة في معظم مناطق شبه الجزيرة العربية وفي مصر وشمال أفريقيا وفي جزء كبير من قسمها الشرقي المتاخم لبلاد الحبشة ؛ مع أن الجالية العربية في هذه البلاد كان عددها أقل كثيرا من عدد السكان الأصليين .

وفي كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالبا لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يصل أحيانا إلى أربعة قرون ، وقد يمتد إلى أكثر من ذلك . فالرومان قد أخضعوا بلاد الجول La Gaule (فرسا وما إليها) في القرن الأول الميلادي ؛ ولكن لم يتم النصر للغتهم اللاتينية على اللغة السلتية التي كان يتكلم بها أهل هذه البلاد إلا حوالي القرن الرابع الميلادي . - ومع ما كان للعرب من قوة الشوكة ، ورفق اللغة ، واتساع الحضارة ، وحماية الدين ، وسطوة الغالب ، لم يتم النصر للغتهم على القبطية والبربرية إلا بعد أمد طويل . على أن اللغة القبطية لا تزال مستخدمة في كثير من الطقوس الدينية الأرثوذكسية ؛ واللغات البربرية لا تزال إلى الوقت الحاضر لغة محادثة لدى بعض العشائر المغربية .

وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل وجهاد عنيف ، لا يخرج المنتصر من معاركه على نفس الحالة التي كان عليها من قبل . فاللغة التي يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها في كثير من مظاهرها وبخاصة في مفرداتها .

ويختلف مبلغ هذا التأثير باختلاف الأحوال : فتكثر مظاهره كلما طال أمد احتكاك اللغتين وكان النزاع بينهما عنيفا والمقاومة قوية

من جانب اللغة المقهورة ؛ وتقل مظاهره كلما قصرت مدة الصراع ، أو خفت وطأة النزاع ، أو كانت المقاومة ضعيفة من جانب اللغة المغلوبة . - فطول الأمد الذي استغرقه الكفاح بين لغة الانجيز السكسون يا إنجلترا ولغة الفاتحين من الفرنسيين النورماندين (الذين أغاروا على بلاد الانجيز في القرن التاسع الميلادي واحتلوا معظم مناطق إنجلترا كما سبقت الإشارة إلى ذلك) ، ولشدة المقاومة التي أبدتها اللغة النورماندية المقهورة ، خرجت اللغة المنتصرة (الإنجليزية) من هذا الصراع وقد فقدت أكثر من نصف مفرداتها الأصلية واستبدلت به كلمات من اللغة النورماندية المغلوبة ، واقتبست منها فضلا عن هذا مفردات أخرى جديدة . - على حين أن لغة بلاد الجول La Gaule التي انتصرت عليها اللغة اللاتينية لم تترك في اللغة الغالبة أكثر من عشرين كلمة (١) ؛ واللغات القبطية والبربرية المغلوبة لم تكد تترك أي أثر في اللغة العربية الغالبة . وذلك لأن الصراع في هذين المثالين ، على طول أمده ، لم يكن عنيفا ، ولم تلق في أثناء اللغتان الغالبتان (اللاتينية في المثال الأول والعربية في المثال الثاني) مقاومة شديدة من جانب اللغات المقهورة (لغة الجول السلتية في المثال الأول والقبطية والبربرية في المثال الثاني) .

وتختلف كذلك النواحي التي يبدو فيها تأثير اللغة الغالبة باللغة المغلوبة تبعاً لاختلاف الأحوال التي تكون عليها كلتا اللغتين في أثناء اشتباهما . ويبدو هذا التأثير بأوضح صورة في النواحي التي تكون فيها اللغة المغلوبة متفوقة على اللغة الغالبة . ولذلك تألف معظم المفردات التي أخذتها الإنجليزية (الغالبة) عن الفرنسية النورماندية (المغلوبة)

(١) على أن بعض هذه الكلمات كان قد انتقل إلى اللاتينية قبل غزو الرومان لبلاد الجول .

من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهى والطعام . وذلك لأن النورماندية كانت غنية فى هاتين الطائفتين من المفردات ؛ على حين أن الإنجليزية كانت فقيرة فيهما كل الفقر ؛ فعمدت إلى خصيمها المقهور واستلبته ما كان يعوزها قبل أن تجهز عليه . وإلى اقتباسها منه الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهى وألوان الطعام يرجع السبب فى أسلوبها الغريب فى تسمية الحيوانات المأكولة اللحم . فكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها فى الإنجليزية اسمان : اسم جرمانى الأصل يطلق على الحيوان ما دام حيا (Sheep , calf , ox , pig) واسم آخر فرنسى الأصل يطلق عليه بعد ذبحه وإعداده للغذاء (Mutton , veal , beef , pork) .

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها كثير من التحريف فى السنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغويا) فتبعد بذلك فى أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى . ويبلغ بعدها هذا أقصى درجاته إذا كانت اللغة المقهورة من فصيلة أخرى غير فصيلة اللغة الغالبة كما سبقت الإشارة إلى ذلك (١) .

والألفاظ الدخيلة التى تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك كثير من التحريف فى أصواتها ودلالاتها وطريقة نطقها ، فتبعد فى جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة . ويظهر هذا بالموازنة بين الكلمات الإنجليزية الآتية والكلمات الفرنسية التى اقتبست منها :

Mutton , veal , beef
Mouton , veau , bœuf

فإن كل كلمة منها تختلف عن أصلها اختلافا غير يسير فى صوتها ودلالاتها وطريقة النطق بها . حتى أن الفرنسى الذى لا يعرف الإنجليزية

(١) انظر ماورد بصفحتى ١٨٢ ، ١٨٣ بصدد البلغارية الحديثة .

لا يكاد يتبينها أو يدرك مدلولها إذا سمعها من إنجليزي . - وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاقتباس الناشئ من الصراع بين لغتين كتب لإحدهما النصر ، بل هي ظاهرة عامة تتحقق في جميع الحالات التي يحدث فيها انتقال مفرد من لغة إلى أخرى .

وتقطع اللغة المغلوبة في سبيل انقراضها مراحل كثيرة تمتاز كل مرحلة منها بمظهر خاص من مظاهر الانحلال وضعف المقاومة . ففي المرحلة الأولى تغدقها اللغة الغالبة بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلي وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللغة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بقواعدها ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات : فيؤلف أهلها عباراتهم ويصرفون مفرداتهم وفقا لقواعدهم التنظيمية والمورفولوجية (السنتكس والمورفولوجيا) ، وينطقون بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقا لأسلوبهم الصوتي ومخارج حروفهم ؛ حتى أنهم ليستبدلون في الكلمات الدخيلة بالحروف التي لا يوجد لها نظير لديهم حروفا قريبة منها من حروف لغتهم . - وفي المرحلة التالية تنسرب إلى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات . فينطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من نفس المخارج وبنفس الطريقة التي يسير عليها النطق في اللغة الغالبة . فزداد بذلك انحلال اللغة المغلوبة ويؤذن نجمها بالآفول . ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسة في الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (قواعد المورفولوجيا والسنتكس) وفي مقاومة قواعد اللغة الغالبة . فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . - وفي المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئا فشيئا فتأخذ

قواعد اللغة الغالبة في الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الإجهاز على اللغة المغلوبة . فالقواعد في اللغة المغلوبة أشبه شيء بالقلعة التي تحتمى بها فلول الجيش المنهزم وتقاتل عنها حتى آخر رمق ، والتي يتم بسقوطها استيلاء العدو على البلاد .

ب - الحالات التي لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب

وأما النتيجة الثانية وهي عدم تغلب إحدى اللغتين على الأخرى وبقاؤها معاً جنباً لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما في الفقرة السابقة .

والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الأمم الغابرة وفي العصر الحاضر . فاللغة اللاتينية لم تقو على اللغة الإغريقية ، مع أن الأولى كانت لغة الشعب الغالب ، وذلك لأن الإغريق ، مع خضوعهم للرومان ، كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأقدم لغة ؛ وقد سبق أن انهزام لغة الشعب المغلوب أمام لغة الشعب الغالب لا يحدث إلا إذا كان الشعب الثاني أرقى من الشعب الأول في جميع هذه الأمور ^(١) . ولهذا الأسباب نفسها لم تقو لغات الشعوب الجرمانية التي قوضت الإمبراطورية الرومانية الغربية في فاتحة العصور الوسطى على التغلب على اللغة اللاتينية في البلاد التي قهرتها بمناطق الجول La Gaule (فرنسا) وما إليها . - واللغة اللاتينية لم تقو على التغلب على لغات أهل بريطانيا العظمى ، على الرغم من فتح الرومان لبلادهم واحتلالهم إياها نحو مائة وخمسين سنة ، وعلى الرغم من أن الشعب الغالب كان أرقى كثيراً من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته . وذلك لأن الجالية الرومانية في الجزر البريطانية

(١) انظر صفحة ١٨٣ .

لم تكن شيئاً مذكوراً ولم تمتزج امتزاجاً كافياً بأفراد الشعب المغلوب . وقد تقدم أن الغلب اللغوي لا يتم في مثل هذه الحالات إلا إذا أقامت في البلاد المقهورة جالية يعتد بها من أفراد الشعب الغالب وتم الامتزاج بينها وبين أفراد الشعب الآخر (١) . - واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية ، على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس وبقائها تحت سلطانهم أمداً طويلاً . وذلك لأن الشعب العربي لم يكن إذ ذاك أرقى حضارة من الشعب الفارسي ، ولقلة عدد الجالية العربية بفارس وضعف امتزاجها بالسكان ، ولاتهام اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين (فالعربية من الفصيلة السامية والفارسية من الفصيلة الهندية - الأوروبية) (٢) . - واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغات الأسبانية على الرغم من فتح العرب للأندلس وبقائها تحت سلطانهم نحو سبعة قرون . وذلك لاتباع العربية إلى فصيلة غير فصيلة اللغات الأسبانية ، ولعدم امتزاج الشعوب القوطية بالشعب العربي . - واللغة التركية لم تقو على التغلب على لغة أية أمة من الأمم التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية بأوروبا وآسيا وأفريقيا ، على الرغم من بقاء هذه الأمم مدة طويلة تحت سلطان تركيا . وذلك لاختلاف فصائل اللغات (فالتركية من الفصيلة الطورانية على حين أن لغات معظم الأمم التي كانت خاضعة لتركيا من الفصيلة السامية - الحامية أو الهندية - الأوروبية) ، ولأن الترك كانوا أقل حضارة وثقافة من معظم الشعوب التي كانت تابعة لهم ، ولقلة عدد جالياتهم في بلاد هذه الشعوب ، ولضعف امتزاجها بالسكان . - ولم تقو الإنجليزية على التغلب على اللغات الهندية على الرغم من خضوع

(١) انظر صفحة ١٨٣ .

(٢) تقدم أن اتبناه اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين يحول غالباً دون اقتصار إحداهما على الأخرى

(انظر صفحات ١٨١ - ١٨٣) .

الهند لانجلترا منذ أمد طويل . وذلك لأن شعوب الهند أعرق حضارة من الانجليز ، ولقلة أفراد الجالية الانجليزية بهذه البلاد ، وعدم امتزاجها بالسكان .

ولكن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثير كل منهما بالأخرى . فقد تأثرت اللاتينية بالإغريقية في أساليبها وآدابها واقتبست منها طائفة كبيرة من مفرداتها . وقد تركت اللغة العربية آثاراً قوية في الأسبانية ، وبخاصة في المناطق التي كانت تسمى بالاندلس أو أندلوسيا Andalousie حيث دام سلطان العرب عدة قرون . والصراع بين العربية والفارسية ، وإن لم ينته إلى تغلب إحداها . قد ترك في كل منهما آثاراً واضحة من الأخرى ، وبخاصة من ناحية المفردات . والصراع بين التركية ولغات الأمم التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية ، وإن لم ينته إلى تغلب لغوى ، قد ترك في التركية آثاراً قوية من هذه اللغات وبخاصة من اللغة العربية ، وترك كذلك في كثير من هذه اللغات آثاراً ظاهرة من التركية (١) .

ح - الخلاصة

وقصارى القول : متى اجتمع لغتان في بلد واحد لا مناص من

(١) قد بلغ هذا التأثير مبلغاً كبيراً في بعض هذه اللغات . فقلعة العراق في العصر الحاضر مثلاً قد أخذت عن التركية كثيراً من المفردات وبعض الأصوات التي لا نظير لها في العربية (كالصوت الذى ينطق به بين الشين والحيم المعطشة في مثل عربنجى) وطائفة من القواعد الصرفية كقواعد النسب والذمت والاضافة في مثل : عربنجى (نسبة إلى العربية) ، خوش ولد (خوش كلمة فارسية الأصل معناها حسن) ، كتيخا (دار الكتب) .

تأثر كل منهما بالآخرى سواء أتغلبت إحداها أم كتب لكتبيهما البقاء . غير أن هذا التأثير يختلف في مبلغه ومنهجه ونواحي ظهوره ونتائجه في الحالة الأولى عنه في الحالة الثانية . فإذا كان الغلب كتب لإحداها نراها تسيع كل ما تأخذه من الأخرى مهما كثرت كميته ، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ، فتزداد به قوة ونشاطا ، بدون أن تدع له مجالاً للتأثير في بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلي ؛ على حين أن المغلوبة لا تقوى على مقاومة ما تقذفها به الغالبة من مفردات وقواعد وأساليب ولا تكاد تسيع ما تتجرعه منها ، فيتخمرها ويضعف بنيتها ، فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئاً فشيئاً حتى تزول : كما كان شأن الإنجليزية الغالبة مع النورماندية المغلوبة . - وإذا كان البقاء قد كتب لكتبيهما تعتمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتفيض عليه من حيويتها وتقاوم آثاره الهادمة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية موفورة القوى سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع العربية .

- ٣ -

العامل الثاني من عوامل الصراع اللغوي

تجاور شعبين مختلفي اللغة

يتيح تجاور شعبين مختلفي اللغة فرصاً كثيرة لاحتكاك لغتيهما ، فتشتبكان في صراع ينتهي إلى واحدة من نفس النتيجة التي ينتهي إليها الصراع في العامل الأول : فأحياناً تنتصر إحدى اللغتين على الأخرى وتحتل مناطقها ، فتصبح لغة مشتركة بين الشعبين ؛ وأحياناً لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معا جنباً لجنب .

١- الحالات التي يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى وهي تغلب إحدى اللغتين على الأخرى في حالتين :

(الحالة الأولى) إذا كانت نسبة النمو في أحد الشعبين كبيرة لدرجة يتكاثف فيها ساكنوه ، وتضيق مساحته بهم ذرعا ، فيشتد ضغطه على حدود الشعب المجاور له ، وتكثر تبعاً لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين . وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف السكان على لغة المناطق المجاورة له ؛ على شريطة ألا يقل عن أهلها في حضارته وثقافته وآداب لغته ؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى من أهلها في هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ . وأكثرها دلالة بهذا الصدد ما كان من أمر اللغة الألمانية . فقد طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوروبا الوسطى (بسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا ... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى (١) .

(الحالة الثانية) إذا تغلغل نفوذ أحد الشعبين في الشعب المجاور له . وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب القوي النفوذ ؛ على شريطة ألا يقل عن الآخر في حضارته وثقافته وآداب لغته ؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى منه في هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة في مختلف مراحل التاريخ . فلغة شعوب

(١) ترجع بعض مظاهر هذا التغلب اللغوي إلى الغارات التي شنّها الجرمان قديماً على هذه المناطق ، أي إلى أمور تصل بالعامل الأول لا بهذا العامل . فالتمثيل هنا مقصور على الحالات التي تم فيها تغلب اللغة الألمانية في صورة سلبية تحت تأثير الجوار وتكاثف السكان .

الباسك قد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الفرنسيين وأمام اللغة الأسبانية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الأسبانيين ، حتى كادت تنقرض في كليهما كما سبقت الإشارة إلى ذلك (١) . - واللهجات السلتيّة (٢) التي كان يتكلم بها معظم السكان بإيرلندا وويلز واسكتلندا قد أخذت تنهزم أمام اللغة الإنجليزية منذ أن تغلغل نفوذ إنجلترا في هذه البلاد ، حتى زالت من لغة الأدب والكتابة ، وكادت تنقرض انقراضا تاما من لغة الحديث . - وهكذا كان مصير اللهجة السلتيّة التي بقيت بمقاطعة البريتون Bretagne (٣) (في القسم الغربي من فرنسا على سواحل الاطلانطيّ) ؛ فقد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية منذ أن تغلغل نفوذ فرنسا في هذه المقاطعة ، حتى لم يبق لها إلا آثار ضئيلة في لغة الحديث بين الأميين من الشيوخ (٤) . - واللغة الفرنسية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها ببلجيكا وسويسرا ؛ فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لجميع

(١) انظر ص ١٦٢ (رقم ١٢) .

(٢) انظر ص ١٥١ (رقم ٦) .

(٣) انظر ص ١٥١ (رقم ٦) .

(٤) ظلت هذه المقاطعة تتمتع بحرية من استقلالها الذاتي حتى عام ١٤٩١ (في عهد شارل الثامن) . ومن ذلك العهد اعتبرت تابعة للتاج الفرنسي . ولكن لم يتم ضمها إلى فرنسا الا عام ١٥٣٢ في عهد فرنسوا الأول . - وقد انقرضت اللغة السلتيّة في هذه المقاطعة انقراضا تاما من لغة الكتابة والأدب . وانقرضت كذلك من لغة الحديث بين أبناء الجيل الحاضر . وكادت تنقرض من لغة الشيوخ أنفسهم . وقد زرت هذه المقاطعة وقضيت عدة أشهر متتالية في بلادها ، فلم أسمع هذه اللغة إلا من عدد قليل من الشيوخ الأميين ، وحتى هؤلاء أنفسهم لا يتكلمون إلّا بلسانهم هذه إلا فيما بينهم . أما مع غيرهم فيتكلمون الفرنسية ؛ ولكن ينال كلماتها وتراكيبها وأساليبها في الستم كثير من التعريف .

سكان « والونيا » Wallonie بلجيكا (١) ولنحو ٢٢٪ من سكان سويسرا.. واللغة الإيطالية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها بسويسرا، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٣ و ٥٠٪ من سكان هذه الجمهورية .

وعلى هذا الأساس نفسه تغلب في المملكة الواحدة لغة المقاطعة التي تكون بها العاصمة أو يكون لأهلها السلطان والنفوذ . فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) في مقاطعة « والونيا » ذات اللسان الفرنسي، ولأن سكان هذه المقاطعة يتمتعون بقسط كبير من النفوذ والسلطان في هذه المملكة ، أخذت اللغة الفرنسية تغلب على الفلامندية (لغة القسم الشمالي من بلجيكا المسمى « فلاندر ») (٢) وتنتقصها من أطرافها .. ولوقوع عاصمة سويسرا (برن) في القسم الناطق بالألمانية ، ولأن سكان هذا القسم يتمتعون بأكثر قسط من النفوذ والسلطان وتتألف منهم الأغلبية الساحقة (يتكلم الألمانية في سويسرا نحو ٧٠٪ من أهلها) ، أخذت اللغة الألمانية تطغى على السنة الناطقين بالفرنسية من السويسريين . - وقد أخذت لغة قريش قبيل الاسلام تغلب على اللغات المضرية الأخرى ؛ لما كانت تتمتع به من سلطان أدبي، ويستأثر به أهلها من نفوذ ديني وسياسي .

وفي كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالبا لإحدى اللغتين إلا

(١) وهو القسم الجنوبي من بلجيكا ، وينحدر سكانه من أصول سلتية ولاتينية . على حين أن القسم الشمالي المسمى بالفلاندر Flandre ينحدر سكانه من أصل جرمانى ويتكلمون لغة الفلامندية Flamande التي يتألف منها ومن اللهجات الهولندية فرع اللغات الأيرلاندية Néerlandaises ، وهو أحد فروع اللغات الجرمانية الغربية (انظر ص ١٥١ رقم ٧) .

(٢) انظر التعليق السابق .

بعد أمد طويل يبلغ أحيانا بضعة قرون^(١). فالصراع بين الألمانية والفرنسية بسويسرا قد بدأ منذ عهد سحيق، ومع ذلك لم يتم بعد للألمانية النصر النهائي. - والصراع بين اللغة الفرنسية واللسان السلتى الذى يتكلم به البريتونيون (سكان مقاطعة البريتون Bretagne) قد نشب منذ عدة قرون؛ ومع ذلك لا يزال كثير من شيوخ البريتون فى العصر الحاضر يتكلمون بهذا اللسان^(٢). - ولا تزال اللهجة السلتية لغة محادثة بين عامة الإيرلنديين فى العصر الحاضر، مع أن تغلب الإنجليزية عليها قد بدأ فى هذه البلاد منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى. - وقد أخذت لغة قريش تطغى على اللغات المضربة الأخرى منذ العصر الجاهلى؛ ومع ذلك ظلت هذه اللغات حية فى كثير من المواطن إلى أواخر العصر العباسى.

وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة التى كان عليها من قبل. فاللغة التى يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع. بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها فى بعض مظاهرها وبخاصة فى مفرداتها، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى العامل الأول^(٣). غير أن مجرد العامل الذى نحن بصدد الكلام عنه من عنف النزاع وشدة المقاومة، وحدث نتائج فى صورة سلمية متدرجة بطيئة، كل ذلك يعمل على وقاية اللغة ففف من مبلغ تأثيرها باللغة المغلوبة.

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها بعض التحريف فى السنة المحدثين

(١) تزيد عادة المدة التى يظهر فيها أثر هذا العامل عن المدة التى يظهر فيها أثر العامل السابق
والتي أشرنا إليها بصفحة ١٨٤ .

(٢) انظر ص ١٩٣ وتعليق ٤ . (٣) انظر آخر صفحة ١٨٤ وتوابها .

من الناطقين بها (المغلوبين لغويا) ، فتختلف بعض الاختلاف في أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى .
والكلمات الدخيلة التي تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك بعض التحريف في حروفها ومعانيها وأساليب نطقها ، فتبعد في جميع هذه النواحي عن شكلها القديم .

وتقطع اللغة المغلوبة في سبيل انقراضها نفس المراحل التي أشرنا إليها في العامل الأول : فينفذ الانحلال أولا إلى مفرداتها ؛ ثم إلى أصواتها ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات ؛ ويتم الإجهاز عليها بالقضاء على قواعدها (١) .

ب - الحالات التي لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب

وأما النتيجة الثانية وهي عدم تغلب إحدى اللغتين المتجاورتين على الأخرى وبقاؤهما معا جنبا لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما في الفقرة السابقة .

ويدخل في هذا الباب معظم العلاقات بين اللغات المتجاورة في العصر الحاضر . فالجوار بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال لم يؤد إلى تغلب لغة شعب منها على لغة شعب آخر ؛ لأن احتكاك لغاتها لا ينطبق على حالة من الحالتين اللتين يحدث فيهما التغلب بالمجاورة . - ولهذا السبب نفسه لم يؤد الجوار بين الفارسية والعراقية والتركية والأفغانية إلى تغلب لغة منها على لغة أخرى . وكذلك شأن الإنجليزية في الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية مع الإسبانية المجاورة

(١) انظر صفح ١٨٧ ، ١٨٨ .

لها في المكسيك ؛ وشأن البرتغالية التي يتكلم بها في البرازيل مع الإسبانية التي يتكلم بها في الجمهوريات المتاخمة للبرازيل بأمريكا الجنوبية (كولومبيا ، بيرو ، بوليفيا ، باراجواي ، اوروجواي ، الأرجنتين ... الخ) ؛ وكذلك شأن الحبشية مع الصومالية ... وهلم جرا .

غير أن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى . فالإنجليزية الحديثة بإنجلترا والفرنسية الحديثة بفرنسا تتقاربان المفردات منذ أن أتيح للشعبيين المتجاورين فرص للاحتكاك وتبادل المنافع . - وكذلك تفعل الفرنسية بفرنسا مع الألمانية بألمانيا^(١) ومع أخواتها المجاورة لها في الجنوب الشرقي والغربي بإيطاليا وإسبانيا والبرتغال . - وتجاور التركية والفارسية ، وإن لم يود إلى تغلب إحداها على الأخرى ، قد ترك في التركية آثاراً واضحة من الفارسية وبخاصة في المفردات ، وترك كذلك في الفارسية بعض آثار من التركية . - وتجاور الفارسية والعراقية في العصر الحاضر ، وإن لم ينته إلى تغلب لغوى ، قد نقل إلى كل منهما كثيراً من آثار الأخرى في المفردات والقواعد والأساليب . - ومجاورة الجرمانية واللاتينية في العصور القديمة ، وإن لم ينته إلى تغلب إحداها ، قد نقل إلى أولاهما كثيراً من مفردات

(١) انتقل إلى الألمانية الحديثة ، تحت تأثير جوارها لفرنسا ، كثير من المفردات الفرنسية ، لدرجة أزعت أولى الأمر وحلتهم على التدخل لهذا التيار وإحلال مفردات ألمانية محل المفردات الفرنسية الدخيلة . ولكن قسطاً كبيراً من جهودهم يندأ الصدق قد ذهب أعراج الرياح .

الثانية (١) وترك في الثانية بعض آثار من الأولى (٢) .

ج - الخلاصة

وقصارى القول : متى أتيح للفتين متجاورتين فرص للاحتكاك ، لا مناص من تأثير كل منهما بالأخرى ، سواء أتغلبت إحداها أم كتب لكنتيهما البقاء . غير أن هذا التأثير يختلف في الحالة الأولى عنه في الحالة الثانية . فإذا كان الفناء قد حق على إحداها ، فإنها لا تقوى على مقاومة ما تقذفها به الثانية من مفردات وقواعد وأساليب ولا تكاد تسبغ ما تتجرعه منها ، فيتخمها ويضعف بنيتها ، فتخور قواها وتفتى أنسجتها الأصلية شيئا فشيئا حتى تزول ؛ على حين أن الغالبة تسبغ كل ما تأخذه من الأخرى مهما كبرت كميته وعظم شأنه ، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ، فتزداد به قوة ونشاطا ، بدون أن تدع له مجالاً للتأثير في بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلي : كما كان شأن الإنجليزية والفرنسية الغالبتين مع اللهجات السلتيّة المغلوبة بارلندا وويلز ومقاطعة البريتون (٣) . - وإذا كان البقاء قد كتب لكنتيهما ، تعد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتقاوم آثاره الهادمة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية ، موفورة القوى ، سليمة البناء :

(١) كثير من المفردات الألمانية تبدو جرمانية خالصة ، ولكن يظهر منه البحث أنها مقببة في الأصل من اللاتينية . فنك مثلا : schreiben = يكتب ، lesen = يقرأ ، Katze = قط ، Pflanze = نبات ، قنبا على الرغم من ظاهرهما الجرمانى ماخوفة من الكلمات اللاتينية : Scribere, Legere, Catta, Planta .

(٢) غير أن تأثير اللاتينية بالجرمانية كان في حكم العدم قبل غارات الجرمان على الامبراطورية الرومانية الغربية في فاتحة العصور الوسطى .

(٣) لم ترك اللغات المغلوبة في هذه الأمثلة أثرا مذكورا في اللغتين الغالبتين .

صراع اللغات : عوامل أخرى للاحتكاك اللغوي ١٩٩

كما كان شأن الفارسية مع التركية والفرنسية مع الإيطالية والإسبانية والبرتغالية .

- ٤ -

عوامل أخرى للاحتكاك اللغوي

هذا، وفيما عدا العاملين السابقين، توجد عوامل أخرى كثيرة تتيح الفرص للاحتكاك بين اللغات، ولكنها أقل شأنا من هذين العاملين، وأضعف منهما أثرا؛ إذ ليس منها ما ينجم عنه صراع جدي، أو يؤدي إلى نتائج ذات بال .

ومن أهم هذه العوامل ما يلي :

١ - اشتباك شعبين مختلفي اللغة أو شعوب مختلفة اللغات في حرب طويلة الأمد . وذلك أن طول الاحتكاك بين الشعوب المتحاربة ينقل إلى لغة كل شعب منها آثارا من لغات الشعوب الأخرى، سواء في ذلك لغات الحلفاء ولغات الأعداء . فاحتكاك الألمانية والفرنسية والإنجليزية في الحرب العظمى قد نقل إلى كل لغة منها مفردات من اللغتين الأخرين . - و «حرب الثلاثين»، التي نشبت بين حماة البروتستانتية وحماة الكاثوليكية، وامتدت من سنة ١٦١٨ إلى سنة ١٦٤٨، أتاحت فرصا كثيرة للاحتكاك بين الفرنسية والألمانية^(١) فنقلت إلى كل منهما بعض مفردات من الأخرى . - وحروب فرنسا مع إيطاليا قد نقلت إلى الفرنسية كثيرا من الكلمات المتعلقة بشئون الحرب والفنون الجميلة وما إلى ذلك من الأمور التي كانت اللغة

(١) وذلك على الرغم من أن فرنسا لم تشترك اشتراكا صريحا إلا في المرحلة الأخيرة من هذه الحرب (من سنة ١٦٣٥ إلى سنة ١٦٤٨) .

الإيطالية أوسع ثروة فيها من اللغة الفرنسية ؛ ونقلت كذلك إلى الإيطالية عددا غير يسير من الكلمات الفرنسية . - والحروب الصليبية قد نقلت إلى كثير من اللغات الأوروبية ، وبخاصة إلى اللغة الفرنسية ، كثيرا من مفردات اللغة العربية ، ونقلت كذلك إلى بعض لهجات الأمم العربية بعض كلمات أوروبية .

٢ - توثق العلاقات التجارية بين شعبين مختلفي اللغة . وذلك أن منتجات كل شعب تحمل معها أسماءها الأصلية ، فلا تلبث أن تنتشر بين أفراد الشعب الآخر وتمزج بمتن لغته ؛ وكثرة الاحتكاك التجاري بين أفراد الشعبين ينقل إلى لغة كل منهما آثارا من اللغة الأخرى .

٣ - توثق العلاقات الثقافية بين شعبين مختلفي اللغة . فإن ذلك ينقل إلى لغة كل منهما ، وبخاصة إلى لغة الكتابة ، آثارا كثيرة من الأخرى . وهذه الآثار لا تقف عند حدّ المفردات ، بل تتجاوزها غالبا إلى القواعد والأساليب . والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الأمم الحاضرة والغابرة . فاللغة العربية في العصر العباسي ، وبخاصة لغة الكتابة ، قد انتقل إليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغتين الفارسية واليونانية . ولغة الكتابة بمصر في العصر الحاضر ، سواء في ذلك لغة العلوم ولغة الآداب ولغة الصحافة ، قد انتقل إليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغات الأوروبية وبخاصة الإنجليزية والفرنسية .



غير أن علاقة هذه العوامل وما إليها بتطور اللغة وارتقائها أشد كثيرا من علاقتها بالصراع بين اللغات . فهي تتيح الفرص لاقتباس اللغات بعضها من بعض وتبادلها المفردات والقواعد والأساليب ،

صراع اللغات : عوامل أخرى للاحتكاك اللغوي ٢٠١

بدون أن تحدث بينها صراعا جديا ، أو تحمل إحداها على محاولة التغلب على الأخرى .

ولذلك آثرنا إرجاء الكلام عن تفصيل هذه العوامل وآثارها إلى الفصل السادس من هذا الكتاب، حيث نعرض لارتقاء اللغة وتطورها ، وخاصة إذ نعالج موضوع اقتباس اللغات بعضها من بعض .



الفصل الخامس

تفرع اللغة الواحدة الى لهجات ولغات^(١)

❦

- ١ -

انتشار اللغة وأسبابه

تختلف اللغات الإنسانية في مبلغ انتشارها اختلافاً كبيراً ، فمنها ما تتاح له فرص مواتية ، فينتشر في مناطق شاسعة من الأرض ، ويتكلم به عدد كبير من الأمم الإنسانية ؛ كما حدث لللاتينية والعربية في العصور القديمة والوسطى ، وللإنجليزية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والألمانية في العصور الحديثة . ومنها ما تسد أمامه المسالك ، فيقضى عليه أن يظل حبيساً على منطقة ضيقة من الأرض وفترة قليلة من الناس ؛ كما حدث للأينو^(٢) والبسكية^(٣) والليتونية^(٤) . ومنها ما يكون حاله وسطاً بين هذا وذاك فلا تتسع مناطقه كل السعة ولا تضيق كل الضيق ؛ كما هو شأن الحبشية والفارسية .

-
- (١) يطلق على هذا البحث اسم الديالكتولوجيا Dialectologie ، وقد تقدم الكلام عن موضوعه وأهميته ومبلغ عناية العلماء به في صفحات ٦ (رقم ٢) ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .
- (٢) يتكلم بها الآن نحو عشرين ألفاً من سكان جزر هوكايدو وسكهالين وشيكوتو التابعة لليابان (انظر ص ١٥٩ رقم ٣) .
- (٣) يتكلم بها الآن نحو ٨٠٠.٠٠٠ من الباسكين الذين يقطنون جبال البرانس للفرنسية في العتوتين الفرنسية والأسبانية (انظر ص ١٦٢ رقم ١٢) .
- (٤) يتكلم بها سكان ليتوانيا الذين يبلغ عددهم الآن ٨٠٠ و ٨٤٤ و ١ (انظر آخر صفحة ١٥١) .

هذا، ولا انتشار اللغة أسباب كثيرة يرجع أهمها إلى ما يلي :

١ - أن تشتبك اللغة في صراع مع لغة أو لغات أخرى ، وتقضى نواويس الصراع اللغوى المتقدم ذكرها في الفصل السابق أن يكتب لها النصر ، فتحتل مناطق اللغة أو اللغات المقهورة ، فيتسع بذلك مدى انتشارها ، وتدخل أمم جديدة في عداد الناطقين بها . كما حدث للاتينية في العصور القديمة إذ تغلبت على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والالب الوسطى والإليريا Illyrie ، فأصبحت لغة الحديث والكتابة في منطقة شاسعة في القسم الجنوبي الغربي من أوروبا ، بعد أن كانت قديما مقصورة على منطقة ضيقة في وسط إيطاليا ، هي منطقة اللاتيوم Latium^(١) . وكما حدث للغة العربية إذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية ، حتى بلغ الآن عدد الناطقين بها نحو ٤٠ مليوناً ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانوا قديما لا يتجاوزون بضعة آلاف يقطنون منطقة ضيقة في الجنوب الغربي من بلاد العرب^(٢) . وكما حدث للألمانية إذ طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لها بأوروبا الوسطى (بألمانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا . . . الخ) وقضت على لهجاتها الأولى ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٧٠ مليوناً من سكان أوروبا ، بعد أن كانت قديما مقصورة على بعض المقاطعات الألمانية^(٣) .

٢ - ان ينتشر أفراد شعب ما - على أثر هجرة أو استعمار - في مناطق جديدة بعيدة عن أوطانهم الأولى ، ويتكون من سلالتهم بهذه

(١) انظر ص ١٨٣ .

(٢) انظر صفحات ١٥٧ ، ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٣) انظر ص ١٩٢ .

المناطق أمة أو أمم متميزة كثيرة السكان ، فيتسع بذلك مدى انتشار لغتهم ، وتتعدد الجماعات الناطقة بها ، ويكثر أفرادها . والأمثلة على ذلك كثيرة في العصور الحديثة . فقد نجم عن استعمار الانجليز السكسون لأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا أن انتشرت الإنجليزية في هذه المناطق الشاسعة ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ١٨٠ مليوناً موزعين على مختلف قارات الأرض ، بعد أن كانت قديماً محصورة في منطقة ضيقة من الجزر البريطانية . ونجم عن الاستعمار الإسباني في الدنيا الجديدة أن أصبحت الإسبانية لغة بلاد المكسيك وجزر الفيليبين وجميع دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ماعدا البرازيل ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٧٠ مليوناً ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانت محصورة في منطقة ضيقة في الجنوب الغربي من أوروبا . ونجم عن الاستعمار البرتغالي في الدنيا الجديدة وأفريقيا والأوقيانوسية أن أصبحت البرتغالية لغة سكان البرازيل بأمريكا الجنوبية وسكان المستعمرات البرتغالية بأفريقيا وجزر المحيط الهندي ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٥٠ مليوناً ينتمون إلى عدة أمم ، بعد أن كانت محصورة في منطقة ضيقة في بلاد البرتغال نفسها .

٣- أن يتاح لجماعة ما أسباب مواتية للنمو الطبيعي في أوطانها الأصلية نفسها ، فيأخذ عدد أفرادها وطوائفها في الزيادة المطردة ، وتنشط حركة العمران في بلادها ، فتكثر فيها المدن والقرى وتتعدد الأقاليم والمناطق ، فيتسع تبعاً لذلك نطاق لغتها ومدى انتشارها : كما حدث لليابانية والفرنسية والإيطالية . ففضل هذا العامل بلغ عدد الناطقين باليابانية في اليابان نفسها نحو ٦٠ مليوناً ؛ وبفضله كذلك ، مع مساعدة العاملين السابقين ، بلغ عدد الناطقين بالفرنسية نحو ٥٠ مليوناً (١)

(١) منهم فرنسا نفسها نحو ٤١ مليوناً والباقي ببلجيكا وسويسرا وكندا والمستعمرات الفرنسية .

تفرع اللغة إلى لهجات نتيجة لازمة لسعة انتشارها ٢٠٥

وبالإيطالية نحو ٤٥ مليوناً (١).

- ٢ -

تفرع اللغة إلى لهجات ولغات نتيجة لازمة لسعة انتشارها

متى انتشرت اللغة في مناطق شاسعة من الأرض تحت تأثير عامل من العوامل السابق ذكرها، وتكلم بها جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً. فلا تلبث أن تنشعب إلى لهجات، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات في سبيل تطورها منهاجاً يختلف عن منهج غيرها، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين أخواتها حتى تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها. وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضها عن بعض في كثير من الوجوه. ولكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه أخرى، إذ يترك الأصل الأول في كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلوات قرابة ولحمة نسب لغوي. وكثيراً ما يبقى الأصل الأول مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منه، ولكنه لا يلبث أن يتنحى عن ذلك بعد أن يكتمل نمو هذه اللغات.

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر

الحاضر.

فاللغة الهندية - الأوروبية الأولى قد انشعبت في ضحى الإنسانية إلى مجموعات كثيرة، وكل مجموعة منها تفرعت إلى عدة طوائف، وكل طائفة انقسمت إلى شعب، وكل شعبة إلى لغات... وهكذا

(١) معظمهم بإيطاليا نفسها والباقي بسويسرا والمستعمرات الإيطالية :

دواليك (١) . ومثل هذا حدث للغة السامية - الحامية الأولى (٢) ولجميع الفصائل اللغوية الأخرى (٣) .

وقد شهدت عصورنا التاريخية نفسها كثيرا من آثار هذا القانون . فاللغة اللاتينية ، وهي إحدى لغات الفرع الإيطالي المنشعب من الهندية - الأوروبية ، قد أخذت هي نفسها ، في أواخر العصور القديمة وفي العصور الوسطى ، تنشعب إلى عدد كبير من اللهجات ، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك في سبيل تطورها منهاجهما يختلف عن منهج أخواتها ، حتى انفصلت عنها انفصالا تاما ، وأصبحت لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وقد بقيت اللاتينية مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منها (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا ...) ؛ ولكنها لم تلبث أن تنحت عن ذلك بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات .

والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيرا من آثار هذا القانون . فلاتتشار اللغة الإسبانية في مناطق شاسعة من الأرض ، ولاختلاف الطوائف المتكلمة بها ، أخذت تفقد وحدتها ، فانشعب عنها في أمريكا الجنوبية لهجات كثيرة تختلف كل منها عن الإسبانية الأصلية اختلافا غير يسير في كلماتها وأصواتها ؛ بل إن بعض هذه اللهجات أخذ يختلف عن الإسبانية الأصلية في القواعد نفسها (٤) . وهذا هو ما يحدث الآن للإنجليزية والألمانية . فقد أخذت الإنجليزية الولايات المتحدة بأمريكا

(١) انظر صفحات ١٥٠ - ١٥٤ .

(٢) انظر صفحات ١٥٤ - ١٥٧ .

(٣) انظر صفحات ١٥٨ - ١٦٧ .

(٤) وقد ألف بعض العلماء كتابا مستقلا في بعض هذه اللهجات ككتاب الأستاذ Lenz في قواعد لهجة شيل .

تفرع اللغة إلى لهجات نتيجة لازمة لسعة انتشارها ٢٠٧

تختلف عن انجليزية الجزر البريطانية في كثير من المفردات وأساليب النطق ؛ واخذت ألمانية سويسرا تتعد عن أصلها ويزداد تأثيرها بجارتها الفرنسية ، حتى توشك أن تكون لهجة متميزة عن ألمانية الألمان . وقد اتسعت مسافة الخلف بين اللهجات المنشعبة عن العربية حتى أصبح بعضها غريبا على بعض : فلهجة العراق في العصر الحاضر مثلا لا يكاد يفهمها المصري . غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوي بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

والعامل الرئيسي في تفرع اللغة إلى لهجات ولغات هو سعة انتشارها . غير أن هذا العامل لا يؤدي إلى ذلك بشكل مباشر ، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدي إلى هذه النتيجة . وباستقراء هذه العوامل في الماضي والحاضر يظهر أن أهمها يرجع إلى الطوائف الآتية :-

١ - عوامل اجتماعية سياسية تتعلق باستقلال المناطق التي انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزي الذي كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات . وذلك أن اتساع الدولة ، وكثرة المناطق التابعة لها ، واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها ... كل ذلك يؤدي غالبا إلى ضعف سلطانها المركزي ، وتفككها من الناحية السياسية ، وانقسامها إلى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض . - وغنى عن البيان أن انقسام الوحدة السياسية يؤدي إلى انقسام الوحدة الفكرية واللغوية .

٢ - عوامل اجتماعية نفسية تمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحي التفكير والوجدان . - فمن الواضح أن الاختلاف في

هذه الأمور يتردد صدها في أداة التعبير .

٣ - عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها... وما إلى ذلك، وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات... وهلم جرا.. فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدي، عاجلا أو آجلا، إلى فروق وفواصل في اللغات .

٤ - عوامل شعبية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الأجناس والفصائل الإنسانية التي ينتمون إليها والأصول التي انحدروا منها.. فمن الواضح أن لهذه الفروق آثارا بليغة في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

٥ - عوامل جسمية فيزيولوجية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في التكوين الطبيعي لأعضاء النطق^(١) . - فمن المحال مع فروق كهذه، أن تظل اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمدًا طويلا .

فانقسام المتكلمين باللغة الواحدة تحت تأثير هذه العوامل إلى جماعات متميزة، واختلاف هذه الجماعات بعضها عن بعض في شؤونها السياسية والاجتماعية، وفي خواصها الشعبية والجسمية والنفسية، وفيما يحيط بها من ظروف طبيعية وجغرافية، كل ذلك وما إليه يوجه اللغة عند كل جماعة منها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها، ويرسم لتطورها في النواحي الصوتية والدلالية وغيرها منهجا يختلف عن منهج أخواتها، فتتعدد مناهج التطور اللغوي حسب تعدد الجماعات، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بين اللهجات الناشئة عن

(١) ترجع هذه الفروق إلى عوامل كثيرة منها العاملان الجغرافي والعملي اللغوي اللذان

آقا تحت رقم ٤٠٣ .

هذا التعدد ، حتى تصبح كل لهجة منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها .

ويبدأ الخلاف بين هذه اللهجات من ناحيتين : إحداهما الناحية المتعلقة بالصوت ، فتختلف الأصوات (الحروف) التي تتألف منها الكلمة الواحدة ، وتختلف طريقة النطق بها تبعاً لاختلاف اللهجات ؛ والأخرى الناحية المتعلقة بدلالة المفردات ، فتختلف معاني بعض الكلمات باختلاف الجماعات الناطقة بها .

أما القواعد La Grammaire ، سواء في ذلك ما يتعلق منها بالبنية (المورفولوجيا^(١)) أو ما يتعلق منها بالتنظيم (السنتكس^(٢)) ، فلا ينالها في المبدأ كثير من التغيير . وإليك مثلاً اللهجات العامية التي انشعبت عن العربية بالعراق والشام والحجاز واليمن وبلاد المغرب ... ؛ فإنه لا يوجد بينها إلا فروق ضئيلة في نظام تكوين الجملة وتغيير البنية وقواعد الاشتقاق والجمع والتأنيث والوصف والنسب والتصغير ... وما إلى ذلك ؛ على حين أن مسافة الخلاف بينها في الناحيتين الصوتية والدلالية قد بلغت حداً جعل بعضها غريباً على بعض كما سبقت الإشارة إلى ذلك^(٣) .

ولكن هذه الوحدة في القواعد لا تقوى على مقاومة عوامل التفريق إلا لأجل معلوم ؛ ثم تنقواها وتستسلم لهذه العوامل فيصيبها منها ما أصاب الصوت والدلالة من قبل . وحينئذ تقوى وجوه الخلاف بين اللهجات ، وتبدأ مرحلة تحولها إلى لغات مستقلة ، ولا

(١) انظر آخر صفحة ٧ وتوابعها .

(٢) انظر آخر صفحة ٨ وتوابعها .

(٣) انظر ص ٢٠٧ .

تنفك تذهب حثيثا في هذا الطريق حتى تبلغ غايته .
غير أنه يبقى بها ، على الرغم من هذا كله ، وجوه شبه قريبة أو
بعيدة في أصول المفردات وبعض مظاهر القواعد العامة . وإليك
مثلا طوائف اللغات الهندية - الأوروبية . فعلى الرغم من استحكام
ما بينها من حلقات الخلاف ، فإن الأصل الأول قد ترك في كل
منها آثارا تنطق بما بينها من صلوات قرابة وتشهد بتفرعها عن
أرومة واحدة .

ومن هذا يتبين أن اللغة لا تموت حتف أنفها . فما لم تصرعها
لغة أخرى على الوجوه التي تقدم شرحها في الفصل السابق ،
لا يتطرق إليها الفناء . وخلودها هذا يبدو في أحد مظهرين : فأحيانا
تحتفظ بوحدها ، وذلك إذا ظلت حبيسة على منطقة ضيقة وقة
قليلة ؛ وأحيانا تنشعب إلى لهجات ولغات ، وذلك إذا انتشرت
في مساحات شاسعة من الأرض ، وتكلم بها طوائف مختلفة
من الناس .

ومن ثم يظهر كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء
لغة عالمية (إيسپرنتو Esperanto) يتحدث بها الناس من مختلفي الأمم
والعصور . وذلك أن هذه اللغة الصناعية ، على فرض إمكان اختراعها
وإلزام الناس باستخدامها (١) ، لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن
تخضع لجميع القوانين التي تخضع لها اللغات الطبيعية والتي خضعت لها
أول لغة تكلم بها الإنسان . فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين في
أصولهم الشعبية ، وفي التكوين الطبيعي لجسومهم وأعضاء نطقهم ، وفي

(١) هذه الأمنية ، وإن كانت ممكنة نظريا ، يحول دون تحقيقها عمليا صعوبات جمة .

الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفي قوام الإدراكية والوجدانية ، وما دامت سنة الطبيعة تقتضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له في كل هذه الأمور ، فلا بد أن تختلف هذه اللغة الصناعية في كلماتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها . . . باختلاف العصور ، وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وتنقسم الى لهجات تختلف كل واحدة منها عما عداها ، وتتفرع منها لغات عامية ، وتوسع الهوية بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالا تاما وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من اللغات . وهكذا لا يمضى زمن قصير أو طويل حتى يتولد من هذا العلاج نفس المشكلة التي يحاولون القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم . . . » ؛ « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين . »

- ٣ -

اللهجات المحلية ، وصراعها بعضها مع بعض ،
ونشأة لغة الدولة أو اللغة الفصحى أو لغة الكتابة

يرتب على القانون السابق أن تختلف اللهجات في الأمة الواحدة تبعاً لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل إقليم منها من ظروف وما يمتاز به من خصائص . وقد جرت عادة علماء اللغة أن يطلقوا على هذا النوع من اللهجات اسم اللهجات المحلية *Dialectes Locaux* . وتختلف هذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً في المساحة التي يشغلها كل منها : فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة ؛ ومنها ما تضيق

منطقته فلا تشمل إلا بضع قرى متقاربة ؛ ومنها ما يكون وسطا بين هذا وذاك . وكثيراً ما تختلف هذه المناطق اللغوية في حدودها عن المناطق المصطلح عليها في التقسيم الإدارى والسياسى . فقد تقسم القرى التى تتألف منها منطقة لغوية واحدة بين مديرتين أو أكثر ؛ وقد يجتمع فى مديرية واحدة أو مركز واحد عدد كبير من المناطق اللغوية . ولدينا نحن المصريين على ذلك شواهد كثيرة فى مختلف أقاليم الصعيد والوجه البحرى .

وتعمل كل لهجة من اللهجات المحلية على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها ، فلا تدخر وسعا فى محاربة عوامل الابتداع والتغيير فى داخل منطقتها ، ولا تألو جهداً فى درء ما يوجه إليها من خارجها من هجمات . أما محاربة عوامل الابتداع فى داخل منطقتها فتم بفضل العلاقات الوثيقة التى تربط الناطقين بها بعضهم ببعض وتربطهم بدينتهم ومجتمعهم . وذلك أنه بقوة هذه العلاقات يقوى الضمير الجمعى ، وتؤكد سيطرة النظم الاجتماعية ، ويعظم نفوذها ، ويشدد بطشها بالمعتدين . فكل محاولة فردية للخروج على النظام اللغوى تلقى فى مجتمع قوى كهذا مقاومة عنيفة تكفل القضاء عليها فى مهدها . وبذلك تبقى اللهجة ما عسى أن يوجه إليها فى داخل منطقتها من محاولات الابتداع وعوامل التغيير .

وأما حمايتها من اللهجات المجاورة لها فيرجع الفضل فيها إلى ضعف الصلات التى تربط أهلها بمجاورهم ؛ وقلة فرص احتكاكهم بهم ، وما يبدو أنه فى العادة من نزوع إلى العزلة والاستقلال . - ويظهر هذا على الأخص فى البيئات الزراعية التى تقل فيها وسائل المواصلات ، وتضعف حركة انتقال الأفراد ، ويكاد سكان كل منطقة يعيشون فى معزل عن سكان المناطق الأخرى . - حقا إن تزوج بعض الرجال فى هذه

البيئات إلى نساء من غير مناطقهم ، وهجرة بعض الأفراد من بلادهم إلى البلاد المجاورة لها ، كل ذلك وما إليه يجلب إلى البلد عناصر أجنبية عنه . ولكن قلة عدد من ينفذ من الأجانب عن هذه الطرق وما شاكلها ، واتمائمهم في الأصل إلى مناطق لغوية مختلفة ، ودخولهم البلد فرادى وفي أزمنة متباعدة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وإقامة كل منهم بين مجموعة من الناس تختلف لهجة أفرادها عن لهجته ، وما يديه أهل المنطقة حياء لهجاتهم من سخرية وازدراء ، وصعوبة فهم حديثهم أحيانا... كل ذلك وما إليه لا يحول دون تأثير لهجة البلد بلهجاتهم فحسب ، بل من شأنه كذلك أن يحملهم على محاكاة لسان المنطقة التي يقيمون فيها . - وأما البيئات التجارية والصناعية والساحلية التي يكثر في العادة احتكاك أهلها بغيرهم ، فيرجع الفضل في حماية لهجاتها إلى قلة عدد الأجانب بالنسبة إلى سكانها الأصليين ، واتمائمهم إلى مناطق لغوية مختلفة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وقصر مدة إقامتهم ، لأن معظمهم ينفذ إلى البلد في شئون لا تقتضيه إلا إقامة ساعات أو أيام .

غير أنه قد يتاح أحيانا للهجة محلية فرص للاحتكاك الدائم بلهجة أخرى . وحينئذ تشبك اللهجتان في صراع أهلى لا يختلف كثيرا في مظهره وطرقه عن الصراع الذي ينشب بين لغتين مختلفتين والذي عالجناه في الفصل السابق .

وينتهي هذا الصراع إلى إحدى نتيجتين : فأحيانا لا تكاد إحدى اللهجتين تؤثر في الأخرى ، وذلك إذا تساوى أهل المنطقتين في الثقافة والقوة والنفوذ ؛ وأحيانا تتأثر إحداهما بالأخرى ، وذلك إذا كانت أقل منها في مظهر من المظاهر السابقة .

وتختلف درجة التأثر باختلاف الأحوال : فأحيانا يكون يسيراً لا ينال إلا بعض مظاهر ؛ وأحيانا يكون عميقاً ينتهى بالقضاء على اللهجة المغلوبة .

فيكون يسيراً إذا لم تكن الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين في الثقافة والنفوذ والسلطان . ويبدو هذا في تأثر لهجة القرى بلهجة المدينة التي تجاورها أو يكون بها مقر المديرية أو المركز ، أو في تأثرها بلهجة البلد الذي يتخذ مقراً لنقطة البوليس أو للعمدية أو التي يقام فيها السوق الأسبوعي وهلم جرا . ففي هذه الحالات وما إليها يقف التأثر عند حد اقتباس الكلمات والتراكيب وطرق استخدام المفردات في معانيها الحقيقية والمجازية وما إلى ذلك . أما الأساليب الصوتية وطريقة النطق بالحروف والكلمات فتظل بمنجاة من التأثر والتحريف . ومن ثم نرى أن القرى المحيطة بقاعدة مديرية من مديريات القطر المصري قد تقتبس عنها كثيراً من ألفاظها وتراكيبها ومدلولات مفرداتها ؛ ولكن لهجاتها تظل سليمة فيما يتعلق بالأصوات وطريقة النطق بالكلمات . فالقرى المصرية التي تقلب في لهجاتها القاف العربية جيماً غير معطشة (جلنا = قلنا) قد تجاور مدينة تختلف عنها في هذا الأسلوب الصوتي (بأن تقلب فيها مثلاً القاف العربية همزة : ألنا = قلنا) ، فتقتبس عنها كثيراً من مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها وأصاليبها ؛ ولكن تظل طريقتهما الصوتية حيال القاف العربية بما من من التأثر بطريقة المدينة ، اللهم إلا في الكلمات التي تقتبسها منها .

أما إذا كانت الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين في ناحية من النواحي السابق ذكرها ، فإن التأثر يكون عميقاً لدرجة تصل أحيانا إلى القضاء على اللهجة المغلوبة . ويحدث هذا في حالتين :
(الحالة الأولى) أن تكون إحدى المنطقتين خاضعة لسلطان

المنطقة الأخرى . ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات السلطان ، على شريطة أن لا تقل عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآدابا . والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ القديم والحديث : فلهجة باريس ، حيث مقر الحكومة والسلطان ، قد قضت على كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التي خضعت لنفوذ باريس ؛ وكذلك فعلت لهجة لندن مع عدد كبير من اللهجات الانجليزية الأخرى ؛ ولهجة مدريد مع اللهجات الإسبانية ؛ ولهجة روما في العصور القديمة مع أخواتها الإيطالية ؛ ولهجة قريش قبيل الاسلام مع اللهجات المضرية الأخرى ... وهلم جرا (١) .

(الحالة الثانية) أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة الأخرى في ثقافتها وحضارتها وآداب لغتها . ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان سياسي على المنطقة الأخرى . ولذلك أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادي ، أي قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة برلين (٢) ؛ وأخذت التوسكانية Toscan بإيطاليا تقهر اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادي . أي قبل أن تتكون الدولة الإيطالية الحديثة ، وقبل أن يظهر سلطان روما (٣) ؛ وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من إنتاج أدبي لا يذكر بجانبه إنتاج أخواتها التي اشتبكت معها في هذا الصراع .

(١) ضربنا بعض هذه الأمثلة في الفصل السابق بصدد صراع اللغات بعضها مع بعض . وذلك لأنها تصلح أمثلة الأمرين معا . فاللغات المضرية مثلا يصح اعتبار كل منها لغة مستقلة ، ويصح النظر إليها على أنها لهجات قد انشعبت عن لغة واحدة . وكذلك لهجة روما قديما مع اللهجات الإيطالية ... وهلم جرا .
(٢) على أن برلين لم تكن مهد السكسونية ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .
(٣) على أن روما لم تكن مهد الإيطالية الحديثة ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

وفي كلتا الحالتين السابقتين يختلف الصراع في مدته وعنفه تبعاً لمبلغ قرب اللهجتين إحداهما من الأخرى ومبلغ ثقافة المنطقة المغلوبة . فيطول أمده ويشتد عنفه كلما كثرت وجوه الخلف بين اللهجتين أو قلت ثقافة الناطقين باللهجة المقهورة . فلهجة مدريد لم تقو بعد على التغلب على كثير من اللهجات الإسبانية الأخرى ، ولا تزال إلى الآن تلقى مقاومة عنيفة من جانبها ، وذلك لتفشي الجهل والامية بين الناطقين بهذه اللهجات . - ولهذا السبب نفسه لم يتم بعد للهجة القاهرة التغلب على لهجات المناطق المصرية المجاورة لها . - وفي القسم الفرنسي اللغة من سويسرا لا تزال اللهجات المحلية تقاوم الفرنسية الفصحى في المناطق الكاثوليكية (قاله ، فريبورج . . . Valais , Fribourg) ، على حين أنه قد تم انقراض هذه اللهجات أو كاد في المناطق البروتستانتية (نيوشاتل ، جنيف . . .) ؛ وذلك لأن المناطق البروتستانتية من هذا القسم أرقى ثقافة وعلما من المناطق الكاثوليكية وأقدم منها عهدا بالمدارس . - ولسان باريس قد تغلب بسهولة على اللهجات التي كانت منتشرة في إقليمى السين واللوار ، لقلة وجوه الخلف بينه وبينها ؛ على حين أنه لم يقو بعد على التغلب على لهجات جنوب فرنسا ولا يزال يلقى منها مقاومة عنيفة لكثرة الفروق التي تفصلها عنه .

هذا ، ويسير تغلب لهجة على أخرى على نفس السنن الذي يسير عليه تغلب اللغات المختلفة بعضها على بعض والذي أشرنا إليه في الفصل السابق (١) . ففي المرحلة الأولى تقذف اللهجة الغالبة باللهجة الأخرى بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الاصلى وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللهجة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بمخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات . فينطق أهلها بالفاظهم

(١) أنظر ص ١٨٧ وتوابعها .

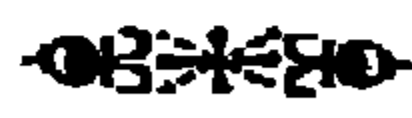
الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقا لأسلوبهم الصوتي ومخارج حروفهم ، حتى أنهم ليستبدلون في الكلمات الدخيلة بالحروف التي لا يوجد لها نظير لديهم حروفا قريبة منها من حروف لهجتهم . - وفي المرحلة التالية تتسرب إلى اللهجة المغلوبة أصوات اللهجة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات ؛ فينطق أهل اللهجة المغلوبة بألفاظهم الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من نفس المخارج وبنفس الطريقة التي يسير عليها النطق في اللهجة الغالبة ، فيزداد بذلك انحلال اللهجة المغلوبة ويؤذن نجمها بالآفول . ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة في الدفاع عن قواعد الصرفية والتنظيمية (المورفولوجيا والسنتكس) وفي مقاومة قواعد اللهجة الغالبة ، إن كانت تختلف عنها في القواعد^(١) فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . - وفي المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئا فشيئا ، فتأخذ قواعد اللهجة الغالبة في الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الإجهاز على اللهجة المغلوبة . - غير أنها كثيراً ما تترك في ألسنة أهلها بعض آثار من قواعدها القديمة . فكثير من سكان جنوب فرنسا لا يزالون يؤلفون عباراتهم في صور تختلف عن قواعد الفرنسية الفصحى ، ولكنها تتفق مع قواعد لهجاتهم المندثرة .

واللهجة التي يتاح لها التغلب في أمة ما على بقية أخواتها ، أو على معظمها تصبح عاجلا أو آجلا ، « لغة الدولة » أو ما يطلق عليه اسم « اللغة القومية » أو « اللغة الفصحى » أو « لغة الكتابة » . فتعلم وحدها

(١) لا يكون الاختلاف في العادة كبيرا في القواعد بين اللهجات المنتمية عن لغة واحدة قبل أن يستل بعضها عن بعض وتصبح لغات منفصلة كما سبقت الإشارة إلى ذلك بصفحة ٢٠٩ .

في مدارس الدولة ، ويجرى بها تدريس المواد المختلفة في معاهدها ، وتؤلف بها الكتب والصحف والمجلات ، وتصدر بها المكاتبات الرسمية وغيرها ، وتستخدم في مختلف مناحي الوعظ والخطابة ، وتلقى بها الأوامر ويجرى بها التخاطب في الجيش ... وهلم جرا (١) . فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت لغة الدولة ، بفرنسا ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية . وهذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بإنجلترا ومدريد بإسبانيا واللهجة السكسونية بألمانيا والتوسكانية بإيطاليا ؛ فقد أصبحت هذه اللهجات هي اللغات الرسمية ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الانجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية .

وتسلك لغات الكتابة في تطورها طريقا خاصة تختلف عن الطريق التي تسلكها لغات المحادثة ، كما سيظهر ذلك في الفقرة التالية وفي الفصل السادس . ولذلك نرى أن لغة الكتابة مع اتفاقها في المبدأ مع لهجة المحادثة الغالبة ، لا تلبث فيما بعد أن تختلف عنها في كثير من الشئون ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينهما حتى تستقل كل منهما عن الأخرى . فلغة الكتابة بفرنسا تختلف الآن عن لهجة المحادثة الباريسية اختلافا غير يسير .



(١) قد لا يكون للامة أى لغة قومية مستقلة ، كما هو شأن النمسا ، فان لغتها هي الألمانية . وقد يكون للدولة أكثر من لغة رسمية واحدة ، كما هو شأن سويسرا ، فان بها ثلاث لغات رسمية : الألمانية والفرنسية والإيطالية . - وقد تكون اللغة الرسمية ولغة الكتابة في الأمة هي اللغة القديمة التي انشعبت منها لهجتها ، كما كان شأن اللاتينية بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال ورومانيا ، وكما هو شأن اللغة العربية الآن بمصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا .

- ٤ -

اختلاف مناحى اللغة الفصحى باختلاف فنون القول

لغة الآداب وخصائصها وأنواعها : الشعر والنثر ،

وظيفة اللغة : الدلالة والإيحاء

كما تنشعب لغة المحادثة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ، تنشعب كذلك لغة الكتابة أو اللغة الفصحى إلى شعب مختلفة تبعاً لاختلاف فنون القول التي تستخدم فيها ، وما يمتاز به كل فن منها : الشعر ، النثر الأدبي ، الخطابة ، القصة ، الرسائل ، التاريخ ، القانون ، تدوين العلوم . . . الخ . وذلك أن كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه في طبيعته وأغراضه البيانية ومناهج الاستدلال فيه ، ومقدار صلته بكل من الناحيتين الوجدانية والإدراكية ، ومدى إقبال الجمهور عليه وأثره في نفسه وتلاؤمه مع اتجاهاته وحاجاته ، ومبلغ نشاط المشتغلين به وما يخترعونه فيه من اصطلاحات ويدخلونه من أساليب ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار . . . وهلم جرا . وغنى عن البيان أن الاختلاف في هذه الأمور وما إليها يؤدي حتماً إلى اختلاف كل فن من الفنون السابق ذكرها عما عداه في مفرداته وأسلوبه ومعانيه وأفكاره وطريقة علاجه للحقائق . . . وما إلى ذلك . وقد تسع مسافة الخلف بين هذه الفنون فتصبح لغة كل منها أشبه شيء بلغة مستقلة . وهذا هو المشاهد الآن في كثير من اللغات الراقية . فبمجرد سماع عبارة في اللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات الراقية يستطيع بسهولة معرفة الفن الذي اتصل به : فعلى ضوء مفرداتها

وأسلوبها ونظمها وتراكيبها وطريقة إباتها عن الحقائق . . . يستطيع بسهولة الحكم إن كانت شعراً أم خطابة أم كتابة رسائل أم مقالا صحفيا أم بحثا علميا . . . وهلم جرا .

ومن أهم شعب اللغة الفصحى ما يسمونه لغة الأدب *Langue Littéraire* ، وهي التي تستخدم في الأدب شعره ونثره . وتمتاز هذه الشعبة عن أخواتها بأن ما يتخذه غيرها وسيلة تتخذه هي غاية ، أو توجه إليه على الأقل أكبر قسط من العناية . ففى جميع الشعب الأخرى (لغة العلوم ، لغة الفلسفة ، لغة التاريخ . . .) يتخذ الكلام مجرد وسيلة للتعبير عن الحقائق . أما فى هذه الشعبة فيتخذ البيان نفسه غرضا فى ذاته ويوجه إلى تجويد أكبر قسط من المجهود . فأنهم ما يقام له وزن فى لغة الأدب هو جمال القول ، ورقة الأسلوب ، وحسن البيان ، ورصانة اللفظ ، وفصاحة الكلام ، وبلاغة التعبير . . . وهلم جرا .

وتنقسم الآداب نفسها إلى فنون كثيرة ، أهمها الشعر وملحقاته ، والنثر الأدبى ، والخطابة ، والقصة . ويختلف كل فن من هذه الفنون عن إخوته فى طبيعته ، وموضوعاته ، ومواطن استخدامه ، ومقدار صلته بالوجدان والإدراك ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يناله من تطور وتجديد ، وما يرمى إليه من أغراض . . . الخ . وقد ترتب على ذلك أن كان لكل فن منها خصائصه اللغوية ومميزاته فى النظم والوزن ، والتأليف الموسيقى ، وجرس الألفاظ ، وتركيب الجمل ، وطريقة الاستدلال وشرح الحقائق ، ومنحى الأسلوب .

وأهم ما يمتاز به الشعر عن غيره أنه يتجه أولا بالذات إلى مخاطبة الوجدان والعواطف لا الإدراك والتفكير ، وأن غرضه الأساسى هو الإيحاء بالحقائق والإحساسات لا شرح المسائل وتقريبها إلى

الأذهان . ولذلك يظهر فيه تعمد الغموض والميل إلى الإبهام ، ويسيطر على أساليبه الخيال ، ويكثر في عباراته التشبيه واستخدام الكلمات والعبارات في غير ما وضعت له عن طريق الكناية والمجاز ، ويبدو فيه النفور من تحليل الحقائق وكراهته التعمق في الشرح والاستدلال . أما نظم العبارات في أوزان خاصة فليس شرطا أساسيا في الشعر : فإذا توافرت الصفات السابقة في كلام منشور اعتبر شعرا في الاصطلاح الأدبي ؛ وإن جنح كلام منظوم إلى الشرح والاستدلال والتعمق في توضيح الحقائق ، وتغلبت فيه وجهة الدلالة على وجهة الإيحاء ، فإنه لا يعد شعرا على الرغم من أوزانه وقوافيه .

- ٥ -

اختلاف اللهجات في البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وفتاتهم
« اللهجات الاجتماعية ، Dialectes Sociaux »

تنشعب أحيانا لغة المحادثة في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعا لاختلاف طبقات الناس وفتاتهم : فيكون ثمت مثلا لهجة للطبقة الاريستوقراطية ، وأخرى للجنود ، وثالثة للبحارة ، ورابعة للرياضيين ، وخامسه للبرادين وسادسة للنجارين وهم جرا . ويطلق المحدثون من علماء اللغة على هذا النوع من اللهجات اسم « اللهجات الاجتماعية ، Dialectes Sociaux » تمييزا لها عن « اللهجات المحلية ، Dialectes Locaux » التي كانت موضوع حديثنا في الفقرات الثلاث الأولى من هذا الفصل (١) .

... ويؤدي إلى نشأة هذه اللهجات ما يوجد بين طبقات الناس وفتاتهم

(١) يرجع الفضل في عاتين التسميتين إلى العلامة بول باسي Paul Passy

من فروق في الثقافة والترية ، ومناحي التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والبيئة الاجتماعية ، والتقاليد والعادات ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التي تركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التي يكثروا ورودها في حياتهم وتساثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم . . . وهم جراً . فمن الواضح أن هذه الفوارق وما إليها من شأنها أن توجه اللهجة في كل طبقة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ، فلا تلبث أن تنشعب اللهجة العامة إلى لهجات تختلف كل منها عن أخواتها في المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ . . . وما إلى ذلك . وقد تذهب بعض اللهجات الاجتماعية بعيداً في هذا الطريق ، فيشتد انحرافها عن الأصل الذي انشعبت منه ، وتوسع مسافة الخلف بينها وبين أخواتها حتى تكاد تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها : كما هو شأن اللهجات الفرنسية المستخدمة بين طبقات اللصوص والمجرمين وبعض طبقات العمال Argots des Voleurs, des Malfaiteurs, et des ouvriers .

ويزداد في العادة انحراف اللهجة الاجتماعية عن أخواتها كلما كثرت الفوارق بين الطبقة الناطقة بها وبقية الطبقات ، أو كانت حياة أهلها قائمة على مبدأ العزلة عن المجتمع أو على أساس الخروج على نظمه وقوانينه . ولذلك كانت في فرنسا لهجات الطبقات الدنيا من العمال ، واللهجات السرية لجماعات المتصوفين والزهبان ، ولهجات المجرمين واللصوص ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافاً عن

الأصل الذي اشعبت منه ، وبعدها عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية .

ولا تظل اللهجات الاجتماعية جامدة على حالة واحدة ، بل تسير في نفس السبيل الارتقائي الذي تسير فيه اللهجات المحلية ؛ فيتسع نطاقها باتساع شئون الناطقين بها ، وبلغ نشاطهم ، واحتكاكهم بالأجانب وبأهل الطبقات الأخرى من مواطنيهم ، وما يخترعونه من مصطلحات ويتراضعون عليه من عبارات ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ، وتختلف أساليبها وطرق تركيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بالطبقات الناطقة بها . فلهجات العمال والمجرمين بفرنسا تختلف بعد الحرب العظمى اختلافاً يبنياً عما كانت عليه قبل ذلك ، وتختلف في القرن العشرين اختلافاً كبيراً عما كانت عليه مثلاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولا أدل على ذلك من أن معظم القطع التي كتبها بتلك اللهجات في القرن الخامس عشر الشاعر الفرنسي فرنسوا فيلون François Villon^(١) لم يستطع بعد في العصر الحاضر حل رموزها وفهم مدلولاتها . وتؤثر اللهجات الاجتماعية في لغة المحادثة العادية تأثيراً كبيراً ؛ فستعير منها هذه اللغة كثيراً من التراكيب والمفردات ، وبخاصة المفردات التي خصص مدلولها العام واصطلاح على إطلاقها على أمور خاصة تتعلق بفن أو حرفة وما إلى ذلك . فلغة المحادثة العادية بباريس في العصر الحاضر قد دخل فيها عن هذا الطريق كثير من مفردات اللهجات الاجتماعية وبخاصة لهجات العمال والمجرمين .

(١) شاعر فرنسي ولد بباريس سنة ١٤٣١ وتوفي سنة ١٤٨٩ . وقد عاش في وسط الصوفيين والمجرمين ، واتهم أكثر من مرة بالسرقة والقتل . ومن أشهر مؤلفاته « العهد الصغير » و « العهد

الكبير » Petit Testament ; Grand Testament

ولا تتميز في العادة اللهجات الاجتماعية بعضها من بعض تميزاً واضحاً إلا في المدن الكبيرة حيث يتكاثف السكان، ويزدحم الناس، وتنشط الحركة الاقتصادية، وتنوع الوظائف وتعدد المهن، ويشتد النزاع بين الطبقات: كنيويورك ولندن وباريس في العصر الحاضر وكبغداد في العصر العباسي.

وأهم أنواع اللهجات الاجتماعية مايسمونه «باللهجات الحرفية» وهي اللهجات التي يتكلم بها فيما بينهم أهل الحرف المختلفة كالبرادين والتجارين والنقاشين والسيادين والبحارة... وهلم جرا. وتتميز اللهجات الحرفية بعضها من بعض تميزاً كبيراً في المناطق التي يسود فيها «نظام الطوائف» Regime des Castes حيث تختص كل طبقة بحرفة أو وظيفة خاصة تكون وقفاً على أفرادها لا يجوز لهم ولا لأعقابهم من بعدهم الاشتغال بغيرها، كما لا يجوز لغيرهم الاشتغال بها: كما هو الحال في كثير من بلاد الهند. على حين أنه في الأمم الحديثة التي قضى فيها على نظام الطوائف، فأصبحت الحرف حظاً مشاعاً بين جميع أفراد السكان، يزاول كل منهم المهنة التي تروقه، وينتقل إذا شاء من مهنة إلى أخرى، وأصبحت الطبقات الاجتماعية غير واضحة الحدود ولا موصدة الأبواب على غير أهلها، في هذه الأمم تتداخل اللهجات الحرفية بعضها في بعض، ويتأثر بعضها ببعض، وتقل بينها الفروق، وتضعف المميزات.

هذا، وقد خيل إلى بعض علماء «الإثنوجرافيا» أن اللهجات الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها، بل تخلق خلقاً، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة الواحدة، وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها ارتجالاً. وقد تابعهم في هذا الرأي بعض القدامى من علماء اللغة؛

ولذلك لم تنل هذه اللهجات كبير حظ من عنايتهم .
 وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو تاريخى . بل إن ما تقرره
 يتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية ؛ فعمدنا
 بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالا ولا تتخلق خلقا ؛ بل تتكون بالتدريج
 من تلقاء نفسها . هذا إلى أن معظم هذه اللهجات منتشرة بين طبقات
 فقيرة جاهلة منحلة المدارك ضعيفة التفكير ، لا يتاح لمثلها أن تنشئ
 إنشاء لغة كاملة المفردات متميزة القواعد ، بل لا يتاح لها مجرد التفكير
 فى مثل هذا المشروع الخطير : طبقات المتسولين واللصوص والحدادين
 والصيادين . . . وهلم جرا .

والحق أن «اللهجات الاجتماعية» لا تختلف فى نشأتها عن
 «اللهجات المحلية» التى تكلمنا عنها فى الفقرات الثلاث الأولى من هذا
 الفصل . كلا النوعين ينشعب عن اللغة الأصلية ويستمد منها أصول
 مفرداته ووجهة أساليبه وتراكيبه وقواعده ؛ وكلاهما تلقائى النشأة
 ينبعث عن مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئون البيئة . وكل ما بينهما
 من فرق أن السبب الرئيسى لنشأة «اللهجات المحلية» يرجع إلى اختلاف
 الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ؛
 على حين أن السبب الرئيسى فى نشأة «اللهجات الاجتماعية» يرجع إلى
 اختلاف طبقات الناس فى الإقليم الواحد وما يكتنف كل طبقة منها
 من شئون وما يفصلها بعضها عن بعض من مميزات فى شتى مظاهر الحياة .
 غير أننا قد نعثر أحيانا فى بعض اللهجات الاجتماعية على مفردات
 لا أصل لها مطلقا فى لغة البلد ولا فى اللغات الأجنبية . ومفردات كهذه
 يغلب على الظن أنها قد اخترعت فى الأصل اختراعا من بعض الأفراد
 وانتشرت عن طريق التقليد . ولكن هذه الظاهرة تكاد تكون
 مقصورة على لهجات الطبقات الراقية ، ولا تبدو إلا فى عدد قليل من

الكلمات . أما معظم المفردات فترجع أصولها إلى كلمات منحدرة من لغة البلد أو مقتبسة من بعض لغات أجنبية . غير أن الغالب أن يتألفها ، مع تقادم الزمن ، كثير من التحريف والتغيير ، فتبعد بعداً كبيراً عن الأصل الذي أخذت منه . وقد تصل في انحرافها هذا إلى درجة يخيل معها للباحث السطحي أنها ابتدعت بالتواضع والأرتجال . ولعل هذا هو ما حدا ببعض العلماء على الظن بأن اللهجات الاجتماعية ناشئة عن تأليف واختراع^(١) .



(١) يرجع الفضل في دراسة اللهجات الاجتماعية إلى طائفة من علماء اللغة وعلماء الاجتماع . ومن أشهر من عنى بدراستها من علماء الاجتماع العلامة فان جينيب V. Van. Gennep : Essai d' une théorie des Langues Speciales (Revue des Etudes Ethnographiques et Sociologiques, juin - juillet 1908)

الفصل السابع

تطور اللغة وارتقاؤها

•••••

تأثر اللغة في تطورها وارتقاؤها بعوامل كثيرة يرجع أهمها إلى أربع طوائف:

(إحداهما) انتقال اللغة من السلف إلى الخلف ؛

(وثانيتهما) تأثير اللغة بلغة أخرى ؛

(وثالثتها) عوامل اجتماعية ونفسية وطبيعية ، كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها ، وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ومناحي وجدانها ونزوعها ، وبيئتها الجغرافية . . . وما إلى ذلك (١) .

(ورابعتها) عوامل أدبية مقصودة تتمثل فيما تنجبه قرائح الناطقين باللغة ، وما تبذله معاهد التعليم والجامع اللغوية وما إليها في سبيل حمايتها والارتقاء بها . . . وهلم جرا (٢) .

وسنتكلم بتفصيل في الفصل السابع عن آثار هذه العوامل في تطور الأصوات ، وفي الفصل الثامن عن آثارها في تطور الدلالات والقواعد والأساليب . . . وما إلى ذلك .

فحسبنا هنا أن نشير إشارة مجملة إلى آثار كل طائفة منها في التطور اللغوي العام الذي جعلناه موضوع هذا الفصل .

(١) تشترك هذه العوامل جميعها في أنها من مقومات الحياة الاجتماعية ؛ ولذلك جعلناها طائفة واحدة على الرغم من اختلافها في نوعها .

(٢) ترجع في الواقع هذه الطائفة من العوامل إلى الطائفة الثالثة ، لأن آداب الأمة ليست إلا مظهر من مظاهر حياتها الاجتماعية . ولكننا آثرنا فصل الطائفتين لاختلاف آثار كل منهما بهذا الصدد عن آثار الأخرى .

- ١ -

انتقال اللغة من السلف إلى الخلف وأثره في التطور اللغوي

على الرغم من أن الطفل يأخذ اللغة عن أبويه والمحيطين به ، فإن لغة الخلف في كل أمة تختلف عن لغة السلف في كثير من المظاهر ، وبخاصة مظاهر الصوت .

ويرجع جزء يسير من نواحي هذا الاختلاف إلى أمور خاصة مقصورة على بعض الأفراد : كالعيوب الصوتية التي يصاب بها بعض الناس ، وضعف السمع ، واختلال أعضاء النطق . . . وما إلى ذلك . . . وليس لمثل هذه الأمور شأن كبير في تطور اللغة ؛ لأن آثارها مقصورة على أصحابها ، تبقى معهم وخدمهم في حياتهم وتختفي بموتهم .

أما معظم نواحي هذا الاختلاف وأكبرها أثراً في تطور اللغة فترجع إلى أمور عامة يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة ويمتازون بها عن أفراد الطبقة السابقة لهم : كالارتقاء الطبيعي لأعضاء النطق في الفصيلة الانسانية (لأن أعضاء النطق في تطور طبيعي مطرد ، فتختلف في كل طبقة عنها في الطبقة السابقة لها) ؛ والارتقاء الطبيعي للظواهر النفسية (فالقوى العقلية بمختلف أنواعها في تطور طبيعي مطرد فتختلف في كل طبقة عنها في الطبقة السابقة لها ، شأنها في ذلك شأن أعضاء النطق ومن الواضح أن كل تطور يحدث في هذه القوى ينبعث صداه في اللغة) ؛ والآخطاء التي تنتشر بين الصغار في طبقة ما ولا يفطن لها الكبار لدقتها وخفائها أو يميلون لإصلاحها ولا يعنون بالقضاء عليها . فالفروق اللغوية الناشئة عن هذه الطائفة من العوامل يشترك فيها جميع أفراد الطبقة

الواحدة ، وتمتاز بها لغتهم عن لغة الطبقة السابقة لهم .
ومن هذا يظهر أن ناحية هامة من ناحية التطور اللغوي ترجع إلى
عوامل جبرية ، لا اختيار للإنسان فيها ، ولا يد له على وقف آثارها أو
تغيير ما تؤدي إليه .
ومن هذا يظهر كذلك أنه ليس في قدرة الأفراد أن يقفوا تطور
لغة ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص . فهما أجادوا في وضع
معجماتها وتحديد الفاظها ومدلولاتها وضبط قواعدها وأصواتها . . .
ومهما أجهدوا أنفسهم في اتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقا
وفي وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما
بذلوا من قوة في محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ، فإنها
لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير في
السبيل التي تريدها على السير فيها سنن التطور والارتقاء الطبيعيين .
حقا إنه يمكن أحيانا التحكم في لغة الكتابة والجمود بها زمنا طويلا
على أصولها القديمة أو ما يقرب منها . ولكن لغة الكتابة التي تجمد
بهذا الشكل لا تمثل تمثيلا صحيحا حالة الحياة اللغوية في الأمة ، وتوسع
كثيراً مسافة الخلف بينها وبين لغة المحادثة ؛ لأن هذه اللغة الأخيرة في
تطور مطرد ، ولا تستطيع أية قوة إلى تعويق تطورها سيلا . فلا
تنفك تبعد عن لغة الكتابة الجامدة ، حتى تصبح كل منهما غريبة عن
الأخرى ، ويصبح تعليم لغة الكتابة في الأمة أشبه شيء بتعليم لغة
أجنبية : وهذا هو ما كان عليه الحال بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا
والبرتغال أيام أن كانت لغة الكتابة فيها هي اللاتينية ، وكانت لهجاتها
المحلية مقصورة على شئون المحادثة ؛ وما عليه الحال الآن في مصر وبلاد
العرب وشمال أفريقيا بصدد العلاقة بين لهجات المحادثة واللغة العربية
الفصحى المتخذة لغة كتابة في هذه الممالك .

على أن ظاهرة كهذه لا تكاد تبدو إلا حيث تكون لغة المحادثة غير
تامة التكوين ولا كاملة النمو؛ ولا تبقى إلا ما بقيت لغة المحادثة على هذا
الحال. فإذا ما بلغت هذه اللغة أشدها، وتم تكوينها، واكتمل
نموها، واتسع متنها، ووضحت دلالات مفرداتها ووجوه استخدامها،
وتشعبت فيها فنون القول ودقت مناحى التعبير، وقويت على يادية
حقائق الآداب والعلوم، أخذت تطارد لغة الكتابة وتستلبها وظائفها
وظيفة وظيفة حتى تجردها منها جميعها، فتصبح هي لغة الكتابة،
وتقذف بلغة الكتابة القديمة في زوايا اللغات الميتة. وهذا هو ما انتهى
إليه أمر اللاتينية مع لغات المحادثة بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا
والبرتغال.

فما أشبه لغة الكتابة الجامدة في حالات كهذه بجبل ثلج ثابت على
سطح البحر، ولغات المحادثة المتطورة بالتيارات المائية التي تموج تحته.
فهما طال بقاء هذا الثلج، فإن مصيره إلى التحطم والذوبان؛ وحينئذ
تطفو تلك التيارات إلى سطح البحر، وتعيد إليه ما كان مستورا تحت
هذا الجبل الجامد من مظاهر النشاط والحياة.

-٢-

تأثر اللغة باللغات الأخرى: تبادل المفردات بين اللغات

تقدم أن أي احتكاك يحدث بين لغتين أو بين لهجتين - أيًا كان
سبب هذا الاحتكاك، ومهما كانت درجته، وكيفما كانت نتائجه
لأخيرة - يؤدي لا محالة إلى تأثر كل منهما بالأخرى (١).

(١) انظر جميع الفصل الرابع (صفحات ١٠٨ - ٢٠١) والفقرة الثالثة من الفصل

تأثر اللغة باللغات الأخرى : تبادل المفردات بين اللغات ٢٣١

ولما كان من المتعذر أن تظل لغة بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى، لذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للتطور المطرد عن هذا الطريق .

وأهم ناحية يظهر فيها هذا التأثير هي الناحية المتعلقة بالمفردات كما سبقت الإشارة إلى ذلك . ففي هذه الناحية على الأخص تنشط حركة التبادل بين اللغات ويكثر اقتباسها بعضها من بعض . وقد تذهب بعض اللغات بعيداً في هذا السبيل ، فتقتبس معظم مفرداتها أو قسماً كبيراً منها عن غيرها : كما فعلت التركية مع الفارسية والعربية ، والسريانية مع اليونانية ، والفارسية مع العربية وهلم جرا (١) .

وأما القواعد وأساليب الصوت فلا تنتقل في الغالب من لغة إلى أخرى إلا بعد صراع طويل بين اللغتين ؛ ويكون انتقالها إيذاناً بقرب زوال اللغة التي انتقلت إليها واندماجها في اللغة التي انتقلت منها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٢) .

ولهذا تخضع في الغالب الكلمات المقتبسة للأساليب الصوتية في اللغة التي اقتبستها ، فينالها كثير من التحريف في أصواتها وطريقة نطقها ، وتبعد في جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة . فالكلمات التي أخذتها العربية مثلاً عن الفارسية أو اليونانية قد صبغ معظمها بصبغة اللسان العربي حتى بعد كثيراً عن أصله . - ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة قد تنتقل من لغة إلى عدة لغات ، فتشكل في كل لغة منها بالشكل الذي يتفق مع أساليبها الصوتية ومناهج نطقها ، حتى تبدو في كل لغة منها غريبة عن نظائرها في اللغات الأخرى . فالكلمات العربية مثلاً التي انتقلت إلى اللغات الأوروبية قد تمثلت في كل لغة منها

(١) انظر ص ١٧٥ .

(٢) انظر صفحات ١٧٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ، وآخر الفقرة الثالثة من الفصل الخامس .

بصورة تختلف اختلافا غير يسير عن صورتها في غيرها .
وكثيراً ما ينال معنى الكلمة نفسه تغيير أو تحريف عند انتقالها من
لغة إلى لغة أو من لهجة إلى أخرى : فقد يخصص معناها العام ويقصر
على بعض ما يدل عليه ؛ وقد يعمم مدلولها الخاص ؛ وقد تستعمل في غير
ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين ؛ وقد تنحط إلى درجة وضعية في
الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره ؛ وقد تسمو إلى منزلة
راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه . . . وهلم جرا (١) .

ويختلف مبلغ ما تأخذه لغة عن أخرى باختلاف العلاقات التي
تربط الشعبين وما يتاح لهما من فرص للاحتكاك المادي والثقافي .
فكلما قويت العلاقات التي تربط أحدهما بالآخر ، وكثرت فرص
احتكاكهما ، نشطت بينهما حركة التبادل اللغوي . ولذلك تبلغ هذه
الحركة أقصى شدتها حينما يسكن الشعبان منطقة واحدة أو منطقتين
متجاورتين كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل الرابع (٢) . فالإنجليزية
قد أخذت عن النورماندية أكثر مما أخذته عن أية لغة أخرى ؛ لأن
الغزاة من النورمانديين قد استقروا في المقام في نفس بلاد الانجليز
المغلوبين (٣) . واللاتينية قد اقتبست من الإغريقية أكثر مما اقتبسته من
أية لغة أخرى ؛ وذلك لتجاور منطقتيهما وشدة الامتزاج بين الشعبين
الناطقين بهما (٤) . ولهذا السبب نفسه بلغت حركة التبادل اللغوي

(١) انظر النصف الأخير من صفحة ١٨٦ وأول صفحة ١٨٧ . وقد ضرب العلامة Dauzat
في كتابه فلسفة اللغة Philosophie du Langage أمثلة لطريقة لهذه الظواهر ، انظر مفتاح
١١٠ ، ١١١ من هذا الكتاب .

(٢) انظر صفحات ١٨٠ - ١٩٩ .

(٣) انظر صفحات ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٤) انظر ص ١٩٠ .

تأثر اللغة باللغات الأخرى : تبادل المفردات بين اللغات ٢٣٣

أقصى شدتها بين العربية والفارسية والتركية^(١) . وما اقتبسته ألمانية سويسرا من اللغة الفرنسية لا يذكر بجانبه ما اقتبسته منها ألمانية النمسا مثلا؛ وذلك لأن القسم الألماني اللغة في سويسرا متأخم للقسم الفرنسي اللغة ولشدة الاحتكاك بين سكان القسمين ، على حين أن النمسا غير متأخرة لمنطقة فرنسية اللسان . وقد تسرب إلى لغة رومانيا عدد كبير من مفردات الشعبتين الصقلية والمجرية ، على حين أن أخواتها اللاتينية الأصل (الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية) لم تكد تتأثر بهذين اللسانين ؛ وذلك لأن رومانيا قد انزلت عن أخواتها اللاتينية وأحاط بها من جميع جهاتها أمم صقلية اللسان أو مجريته .

والمفردات التي تقبستها لغة ما عن غيرها من اللغات يتصل معظمها بأشياء قد اختلفت بها أهل هذه اللغات أو برزوا فيها أو امتازوا بإنتاجها أو كثرة استخدامها . . . وهلم جرا . فمعظم ما انتقل إلى العربية من المفردات الفارسية واليونانية يتصل بنواح مادية أو فكرية امتاز بها الفرس واليونان وأخذها عنهم العرب^(٢) . - ويتألف معظم

(١) أنظر صفحتي ١٩٠ ، ١٩٧ .

(٢) من أشهر المفردات التي انتقلت إلى العربية من الفارسية : الكوز ، الأبريق ، الطست ، الخوان ، الطبق ، والسكرجة ، السمور - الحز ، الديباج ، السندس - الباقوت ، الفيروزج ، البلور - السميد ، الكمك ، الفالودج - الفلفل ، الكروبا ، القرقة ، الزنجبيل ، الخولنجان ، البارصيني - النرجس ، البنفسج ، السون ، الياسمين ، الجلتار - المسك ، العنبر ، الكافور ، الصندل ، القرنفل . . . الخ .

ومن أشهر ما أخذته العربية من اليونانية أسماء بعض آلات الرمد والجراحة وبعض مصطلحات الطب والفلسفة والنطق والعلوم الطبيعية وغيرها ، وأخذت منها كذلك أسماء بعض المادن والوظائف والمنشآت المعمارية وغيرها وأدوات البناء والموازين والأمتعة . . . الخ : كالنبرس (وهو أجود النحاس) ، والبطريق ، والقيطون (وهو البيت الشتوي) والقمطرة ،

المفردات التي أخذتها الإنجليزية عن النورماندية من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهي والطعام؛ وذلك لأن النورمانديين كانوا يفوقون الإنجليز كثيراً في هاتين الناحيتين، فغزرت مفرداتهما في لغتهم بينما قل ورودها في لغة الإنجليز القديمة^(١). - وقد انتقل إلى اليونانية، ومنها إلى اللاتينية، كثير من الكلمات الفيديقية المتصلة بشئون الملاحة والبحرية؛ وذلك لأن الفيديقيين قد سبقوا غيرهم من الشعوب في هذا المضمار. - وانتقل إلى اللاتينية كثير من الكلمات الإغريقية المتعلقة بالمصطلحات الفلسفية والدينية؛ وذلك لبراعة الإغريق في ميدان الفلسفة ولأن الدين المسيحي قد انتشر بفضلهم في شرق الإمبراطورية الرومانية ووسطها. - وقد أخذت اللغات الجرمانية عن اللاتينية كثيراً من المفردات المتصلة بالقضاء والتشريع ونظم الاجتماع والسياسة... وما إليها؛ وذلك لأن الرومان كانوا مبرزين في جميع هذه الشؤون^(٢). - ولهذا السبب نفسه انتقل إلى الفرنسية كثير من الكلمات الجرمانية المتصلة بشئون الحرب ومنها كلمة الحرب نفسها *la guerre*^(٣)، وكثير من الكلمات الإيطالية المتصلة بالموسيقى وآلاتها والفنون الجميلة؛ وانتقل إلى معظم اللغات الأوروبية وغيرها المفردات الإنجليزية المتصلة بالألعاب الرياضية، والمفردات الفرنسية

وانفردوس (البستان) والقرايميد (الآجر)، والقسطاس (الميزان)، والقنطار، والبطاة، والديجنجل (المرآة)... وهلم جرا.

انظر في ذلك فقه اللغة للعالي، الباب التاسع والعشرين؛ وانظر كذلك المزمع للحيوطي الجزء الأول، النوع التاسع عشر.

(١) انظر آخر ص ١٨٥ وأول ١٨٦.

(٢) V. Dauzat : Philosophie du Langage, 105.

(٣) فهي مأخوذة من الكلمة الجرمانية القديمة Werra.

المتعلقة بالأزياء وألوان الطعام .

ومن أجل ذلك تنتقل مع المنتجات الزراعية والصناعية أسماءها في لغة المناطق التي ظهرت فيها لأول مرة أو اشتهرت بانتاجها أو تصدر منها في الغالب ، فنتشر عن هذا الطريق في لغات البلاد الأخرى . فكلية « الشاي » قد انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة جزر ماليزيا Malaisie التي كانت المصدر الأول لهذه المادة (« شاي » في العربية ، « thé » في الفرنسية ، « tea » في الإنجليزية ... الخ) . وكذلك كلمة الطباق ؛ فقد انتقلت إلى معظم اللغات الانسانية من لغة السكان الأصليين لامريكا حيث كشفت هذه المادة لأول مرة (« طباق » في العربية ، « tabac » في الفرنسية ، tobacco في الإنجليزية ... الخ) . - وعن هذا الطريق انتقل إلى اللغات الأوروبية كثير من الكلمات العربية الدالة على منتجات زراعية أو صناعية : كالليمون ، والموصلى (وهو نسيج خاص ينسب الى الموصل) ، والزعفران ، والشراب ، والسكر ، والكافور ، والقنوة (عسل قصب السكر المجمد) ، والقهوة ، والقطن ، والقرهزى ، والكمون ، والدمشقى ، (نسيج ينسب إلى دمشق) :

(في الإنجليزية ، lemon , muslin , saffron , sherbet , syrup , sugar)

camphor , candy , coffee , cotton , crimson , cumin , damask .

وفي الفرنسية ، limon , mousseline , safran , sorbet , sirop , sucre ,

(camphre , candi , café , coton , cramoisi , cumin , damas) .

- ٣ -

أثر العوامل الاجتماعية والنفسية والجغرافية في خصائص اللغة وتطورها

ونقد نظرية دو سوسور De Saussure .

تأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة ، ونظمها وتقاليدها ، وعقائدها ، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها ، ونظرها الى الحياة ، وأحوال بيئتها الجغرافية ، وشؤونها الاجتماعية العامة . . . وما إلى ذلك . فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صدها في أداة التعبير . ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب : فبالوقوف على المراحل التي اجتازتها لغة ما ، وعلى ضوء خصائصها في كل مرحلة منها ، يمكن استخلاص الأدوار التي مرَّ بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم .

فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ، وورق تفكيرها ، وتهذيب اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها ، وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معاني مفرداتها القديمة ، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقْتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة . . . وهلم جرا . - واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول . فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العربي الضيق الذي امتازت به مدنيتهم في عصر بني أمية إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر بني العباس ، كان لهذين الانتقالين أجلُّ أثر في نهضة لغتهم وورق أساليبها واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم .

وانتقال الامة من البداوة الى الحضارة ، يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ، ويوسع نطاقها ، ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة ، ويكسبها مرونة في التعبير والدلالة . وإن موازنة بين حالة اللغة العربية في عهد بداوة العرب قبل الاسلام وحالتها في عهد حضارتهم الإسلامية ، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية في عصر ما وما كانت عليه في الحضر في نفس هذا العصر ، لأصدق برهان على ذلك . وإن البدوي الذي لم يلهمه شيطانه في مدحه للأير أحسن من قوله :
أنت كالكلب في حفاظك للهدوكالتيس في قراع الخطوب
قد استطاعت قريحته بعد أن هدبتها حضارة بغداد أن تجود
بمثل قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وما يحدث بين حضارة الامة ولغتها من توافق وانسجام ، يحدث مثله بين لغتها ومظاهر بيئتها الجغرافية . فجميع خصائص الإقليم الطبيعية ، تنطبع في لغة سكانه . ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة في مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية ؛ وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية . ومن ثم كذلك نشأت فروق غير يسيرة بين أفراد الفصيلة اللغوية الواحدة بل بين لهجات اللغة الواحدة .

ففي كل لغة من لغات الفصيلة السامية مثلا ، تتمثل حالة البيئة التي سكنها الناطقون بها . فالأرامية التي نشأت في الشمال جافة الألفاظ ، قليلة المفردات ، ثقيلة التراكيب ، مضطربة القواعد ، لاتكاد تواتي الأساليب الشعرية الراقية . والعربية التي نشأت في الجنوب أعذب اللغات السامية ألفاظا ، وأغناها مفردات ، وأدقها قواعد ، وأكثرها

مرونة واتساعا. لمختلف قبون القول. والعبرية التي نشأت في منطقة متوسطة بين هاتين المنطقتين تمثل في رقيها منزلة بين منزلتي الآرامية والعربية؛ فقد فاقت الأولى ولكنها قصرت عن أن تدرك شأواً والثانية. فالفاظها وأساليبها تدسع لكثير من مناحي القول؛ ولكن العربية تفوقها في مرونة التعبير، والترف اللغوي، وسعة الثروة في المفردات. وقواعدها سهلة مضبوطة؛ ولكنها لا تبلغ في دقتها وتنوعها مبلغ قواعد اللغة العربية. وتظهر هذه الفروق حتى في ناحية الاصوات. فالآرامية حوشية الأصوات، صعبة النطق، تلتقى في كلماتها المقاطع المتنافرة والحروف الساكنة. والعربية عذبة الاصوات، سهلة النطق، خفيفة الوقع على السمع تقل في كلماتها الحروف غير المتحركة^(١) ولا يكاد يجتمع في مفرداتها ولا في تراكيبها مقاطع متنافرة، ولا يلتقي في ألفاظها ساكنان والعربية وسط بين هذه وتلك؛ فهي لم تصل في سهولة اللفظ إلى درجة العربية ولا في صعوبته إلى درجة الآرامية؛ يتخلل كلماتها حروف المد في نطاق أوسع من الآرامية، وبدرجة تدل كثيراً من ظواهر الصعوبة في النطق، ولكن بدون أن تصل في هذه الناحية إلى الشأو الذي وصلت إليه لغة القرآن^(٢).

ولهذا السبب نفسه اختلفت اللهجات الإغريقية القديمة. فعلى الرغم من أن بلاد الإغريق كانت تشغل منطقة ضيقة، فإن الاختلاف اليسير الذي كان بين أجزاء هذه المنطقة في طبيعتها الجغرافية قد أحدث بين لهجات سكانها فروقا ذات بال. فاللهجة الدورية مثلا خشنة الألفاظ،

(١) تكثر في الكلمات العربية أصوات المد الطويلة (الألف، الياء، الواو) والقصيرة (النتحة، الكسرة، الضمة)، حتى أنه ليقول وجود حرف غير متبوع بواحد منهما.

(٢) V. Renan, L' Origine du Langage, p. p 188, 189.

خوشية المخرج ، صعوبة النطق ، ثقيلة الأصوات ؛ على حين أن اللهجة اليونية رخوة الكلمات ، سهلة النطق ، عذبة الأصوات ، يتخلل كلماتها كثير من حروف المد وأصوات اللين (١).

ومظاهر النشاط الاقتصادي تطبع اللغة كذلك بطابع خاص في مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها . ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة في الأمم والمناطق تبعاً لاختلافها في نوع الإنتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشتون الحياة المادية ، والمهنة السائدة : (الزراعة ، الصناعة ، التجارة ، الصيد ، رعى الأنعام . . الخ) . - وقد تؤثر هذه المظاهر في أصوات اللغة نفسها . فقد يؤدي نوع العمل الذي يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبزات الألفاظ ومناهج التطور الصوتي .

واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها في شؤونهم الاجتماعية العامة . فعقائد الأمة ، وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادئ في نواحي السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة ، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم ، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة . . . كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها : في الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب . . . وهلم جرا (٢).

(١) Renan, op. cit. p. 190

(٢) من أجل البحوث في هذا الموضوع وما يتصل به ما كتبه العلامة « قانيه » في المجلد الثاني من مجلة « الزيبه » سنة ١٩٠٧ صفحات ٤٣٤ - ٤٦٣ تحت عنوان : « روح الأمة وطباؤها » في لغتها « L' Esprit et les Mœurs d' une nation d' après sa langue : Revue Pédagogique 1907 . T.2 p. p. 434 - 463 .

نظام الطبقات ، فإن ما تسير عليه نظمها الاجتماعية بهذا الصدد يؤثر في مختلف نواحي لغتها حتى في ناحية القواعد . فمخاطبة المفرد بضمير الجمع تعظيما له (أرجو أن تفضلوا ...) ، وإجراء الخطاب في صيغة الإخبار عن الغائب (يتفضل سيدي ...) ، كل ذلك وما إليه من أساليب التبجيل لا يبدو في اللغة إلا حيث ينحرف الناس عن مبادئ المساواة وتكثر الفوارق بين الطبقات . ولذلك يعد تطور هذه الضمائر في أمة ما أصدق سجل لتطور اتجاهاتها في هذه الشؤون . فالصراع في اللغة الفرنسية بين « tu » (أنت) و « vous » (أتم) ، في مخاطبة المفرد ، يمثل أصدق تمثيل مراحل الصراع بين روح المساواة ونظام الطبقات في الشعب الفرنسي . فقد كانت الغلبة للضمير الأول في العصور التي سادت فيها مبادئ المساواة ، وللضمير الثاني في العصور التي وهنت فيها هذه المبادئ . ومثل هذا يقال في اللغة العربية فقد كان العرب في جاهليتهم من أكثر الشعوب ميلا إلى المساواة بين الأفراد . ولذلك ساد في خطابهم ضمير المفرد ، ولم تبد في لغتهم مظاهر المبالغة في التبجيل . ولكنهم لم يلبثوا بعد اتساع ملكهم ، واحتكاكهم بالأمم الأخرى ، وانغماسهم في الترف ، ومحاكانهم لآبهة الفرس وأساليبهم في الحياة ، واتجاه خاصتهم وأغنيائهم إلى الترفع عن الدهماء وطبقات المستضعفين ، لم يلبثوا بعد هذا أن انحرفوا عن مبادئهم الأولى ، فأنحرفت معهم أساليب لغتهم ، وساد فيها خطاب المفرد بضمير الجمع وإجراء الخطاب في صيغة الإخبار عن الغائب ، ونفذت إليها ألفاظ « الحضرة » ، و « الجنب » ... وما إلى ذلك .

وتتشكل اللغة كذلك بالشكل الذي يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامحها ونظرها إلى الحياة . فاتجاه الانجليز مثلا إلى الناحية العملية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية في مفرداتها ، وتراكيها ؛ حتى أنه يقال فيها :

«دفع زيارة أو تحية أو انتباها ، و «أنفق وقته في كيت وكيت ،

To pay visit, compliments, attention ; « He spent his time in ...

بدلاً من «أدى زيارة» و «قدم تحية» و «أبدى انتباها» و «قضى وقته في عمل ما» .

وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب في شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ينبعث كذلك صداه في لغتهم ألفاظها وتراكيبها . فاللغة اللاتينية لا تستحي أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة ، ولا أن نسميها بأسمائها الصريحة . على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس حسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب في التعبير عن هذه الشئون ، تلجأ إلى المجاز في اللفظ وتستبدل الكناية بصريح القول : القبل ، لدير ، قارب النساء ، لمس امرأته ، قضى حاجته ... الخ . ولقد كان لها هذا الصدد في ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ؛ « واهجروهن في المضاجع » ؛ « الامستم النساء » ؛ « وقد أفضى بعضهم إلى بعض » ؛ « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ؛ « فاعتزلوا النساء في المحيض » ؛ « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة مؤمنة من قبل أن يتماسا » ... وما إلى ذلك من كريم العبارات ونيل الألفاظ . وما يبدو في اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله في اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الشمالية منها . وأكثرها تخرجاً في هذه الناحية اللغة الانجليزية . فالبطن مثلاً لا يعبر عنه في لغة التخاطب الانجليزية باسمه الصريح بل يطلق عليه في الغالب the stomach (أى المعدة) (١) ؛ وسراويل

(١) تختصر هذه الكلمة عادة في اللغة الدارجة فيقال tummy .

الرجل تطلق عليها أحيانا كلمة معناها الأصلي « ما لا يمكن التعبير عنه : Inexpressible »^(١)؛ وسراويل المرأة يطلق عليها كلمة معناها الأصلي « الجمع أو التركيب » Combination^(٢) . . . وهلم جرا .
 وخصائص الأمة العقلية ، وبميزاتها في الإدراك والوجدان والنزوع ، ومدى ثقافتها ، ومستوى تفكيرها ومنهجها ، وتفسيرها لظواهر الكون ، وفهمها لما وراء الطبيعة . . . كل ذلك وما إليه ينبعث كذلك صداه في لغتها^(٣) . ففي الأمم الأولية الضعيفة التفكير ، المنحطة المدارك ، تغزر الكلمات الدالة على المحسات والأمور الجزئية ، وتندم أو تقل الألفاظ الدالة على المعاني الكلية ، وتخلو دلالة المفردات من الدقة والضبط فيكثر فيها الخلط واللبس والإبهام ، وتعدو القواعد أو تكاد تعدو من ظواهر التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة والعبارة بعضها ببعض ، ويضيق من اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة^(٤) . ومن هذا القبيل الشعوب الصينية : فلغاتها أولية ساذجة في نواحي الألفاظ والدلالة والقواعد ، تكفي للتعبير عن ضروريات الحياة ، وشئون الصناعة اليدوية ، والآداب السهل ، والتأمل الضحل ، ولكنها لا تتسع لعلم ولا لفلسفة ولا لدين بالمعنى الصحيح

(١) يطلق عليها غالبا في اللغة الدارجة كلمة « Pants » ، وهي اختصار كلمة « بطلون » .
 (٢) تطلق هذه الكلمة على لباس مؤلف من السراويل والقميص ، أما السراويل وحدها فيطلق عليها أحيانا كلمة Bloomer وهو اسم سيدة أمريكية Mrs Bloomer اخترعت طرازاً منه فنسب إليها (وكان يحتوي على « جاكيت » ، وقيص وسراويل ، ثم قصر استعمال الكلمة فيما بعد على السراويل) ؛
 وأحيانا كلمة knickers وهي اختصار كلمة Knickerboker (وهذه الكلمة كانت في الأصل اسماً لشخصية روائية ألبسها المؤلف طرازاً خاصاً من السراويل ، ثم شاع استعمالها فيما بعد في سراويل السيدات) .

(٣) V. Vannier op . cit .

(٤) انظر صفحات ٨٤ (وتعليق رقم ٣) ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ .

لهذه الكلمات - حتى أنه لا يوجد فيها اسم للاله؛ ويعبر فيها عن مسائل ما وراء الطبيعة بعبارات ملتوية مبهمه مضطربة الدلالة في أذهان أهلها أنفسهم. - وفي الشعوب السامية القديمة، حيث كان يسود التفكير الديني، وتفسر شئون الحياة تفسيراً سهلاً، وتنسب جميع الظواهر الطبيعية والإنسانية إلى تدخل الأرواح والآلهة، ويسيطر على المدارك الكسل والخمول، وتنفر الأفكار من البحث العلمي، وترغب عن التأمل الفلسفي، في مثل هذه الشعوب نرى اللغات سهلة المأخذ، ساذجة الدلالة، ضحلة المعاني، قصيرة الجمل، قليلة الروابط: تضع أجزاء الجملة وفقرات العبارة بعضها بجانب بعض، معتمدة في بيان وظيفة الألفاظ والجمل وعلاقة كل منها بما عداه على ذكاء المخاطب وسياق الحديث وترتيب المفردات... وما إلى ذلك؛ والروابط التي تشمل عليها قليلة العدد، غير متنوعة المعنى، يرجع معظمها إلى علامات تدل على العطف وما شاكله. - وفي الشعوب الهندية - الأوروبية حيث ينشط التفكير، ويعمق الإدراك، ويدق البحث، وتتجه العقول إلى التأمل الفلسفي، وتميل إلى تفسير ظواهر الكون والمجتمع الإنساني تفسيراً علياً يربطها بأسبابها وقوانينها العامة، في مثل هذه الشعوب تكثر في اللغات الألفاظ الدالة على المعاني الكلية، والتراكيب المعبرة عن الحقائق العامة، وتغزر أزمنة الأفعال (١)، وتطول الجمل وتعدد أجزاؤها، وتنوع الروابط وتختلف دلالاتها، فتتسع للتعبير عن دقيق

(١) ليس للفعل في معظم اللغات السامية إلا زمانان: فعل انتهى زمنه (ماضي) وفعل لم ينته زمنه (أمر ومضارع للحال أو للإستقبال)؛ على حين أن له في اللغات الهندية - الأوروبية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة. وقد بلغت هذه الأزمنة في اللغة الفرنسية أحد عشر زمناً في الجمل الاعبارية وحدها. - انظر ص ١٧٣

الوجدان، وعميق الإدراك، وحقائق الفلسفة والعلوم.

هذا، وإن ما تقدم ذكره في هذه الفقرة وفي الفصول الخمسة الأولى من هذا الكتاب يدلنا أوضح دلالة على ما للمجتمع ونظمه وحضارته واتجاهاته من آثار بليغة في نشأة اللغات (١) وانتقالها من السلف إلى الخلف (٢) وصراعتها بعضها مع بعض (٣) وانشعابها إلى لهجات (٤) وتطورها من جميع الوجوه (٥).

وقد بالغ جماعة من العلماء في تقدير هذه الآثار حتى كادوا ينكرون أن لغير الظواهر الاجتماعية أثراً في شئون اللغة. ومن أشهر أفراد هذه الطائفة العلامة السويسري فرديناند دوسوسور Ferdinand

De Saussure (٦).

ومذهبهم هذا يجانب جادة القصد من بعض الوجوه. حقا أن اللغة ظاهرة اجتماعية تقتضيها حاجة الإنسان إلى التفاهم مع أبناء جنسه. فلولا الحياة الاجتماعية ما كانت اللغات (٧).
وحقا أن أهم المؤثرات في مختلف ظواهر اللغة ترجع إلى أمور

(١) انظر الفصل الأول . (٢) انظر الفصل الثاني .

(٣) انظر الفصل الرابع . (٤) انظر الفصل الخامس . (٥) انظر ٢٣٠ - ٢٤٤ .

(٦) انظر آخر ص ٦٧ وصفحات ٦٨ - ٧٠ . يفرق دوسوسور بين اللغة Langage والكلام

Parole . ويعنى بالكلام تطبيق الفرد في تفاهمه مع غيره لتنظيم الفعوية التي تواضع عليها مجتمعه .

فهو عمل فردي في جوهره ، ولذلك يخضع أحيانا لمؤثرات غير اجتماعية (للمؤثرات الجسمية

والنفسية . . . وما إلى ذلك) . أما اللغة فظاهرة اجتماعية تنشأ من طبيعة الاجتماع ويشرف عليها

العنل الجسي . ولذلك لا يكاد يكون لغير الظواهر الاجتماعية أثر ذو بال في شئونها (انظر كتابه

دوسوسور Cours de Linguistique Générale) .

(٧) انظر صفحتي ٧٧ ، ٢٨ والفصل الأول من هذا الكتاب .

تتعلق بالحياة الاجتماعية ونظام العمران ، كما تدل على ذلك بحوثنا في هذا الفصل وفي الفصول السابقة من هذا الكتاب .

ولكن من الإفراط في تقدير هذه العوامل أن ننسب إليها كل شيء وتنسك ما لغيرها من أثر في هذا السبيل . وإن في دراستنا السابقة نفسها لآيات على خطأ هذا المذهب . فقد رأينا أن قسماً غير يسير من ظواهر اللغة ترجع أسبابه إلى عوامل جغرافية ، وقسماً كبيراً منها ترجع أسبابه إلى عوامل جسمية فيزيولوجية أو نفسية فردية ^(١) . وغنى عن البيان أن هذه العوامل وما إليها ليست من مظاهر الاجتماع في شيء ^(٢) . وسنرى في الفصل السادس أن أهم المؤثرات في التطور الصوتي خاصة ترجع إلى عوامل من هذا القبيل ^(٣) .

❦

(١) انظر مثلاً ١٢٩ - ١٤٤ ، ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ .

(٢) لم نعد العوامل الأدبية المقصودة من بين هذه العوامل ، لأنها - وإن كانت فردية من بعض النواحي - ترجع من بعض وجوهها إلى ظواهر اجتماعية (انظر ص ٢٢٧ والتعليق الثاني بها ، وانظر كذلك الفقرة الرابعة من هنا الفصل) . - هنا ، وقد حاول بعض المتعصبين لنظرية دوسوسور أن يرجع العوامل الجغرافية والجسمية والنفسية إلى ظواهر اجتماعية ، فلم تغل غمازته هذه من تصف ظاهراً .

(٣) انظر كذلك في الرد نظرية دوسوسور 62 - 47 Delacroix, Langage et Pensée,

- ٤ -

العوامل الأدبية المقصودة

وأثرها في حياة اللغة وتطورها ، وخاصة في لغة الكتابة
الرسم ، التجديد في اللغة ، البحوث اللغوية ، حركة التأليف والترجمة ،
وسائل تعليم اللغة

تشمل هذه الطائفة جميع ما يبذله الأفراد والهيئات من جهود
مقصودة في سبيل حفظ اللغة ، وتعليمها ، وتوسيع نطاقها ، وتكملة
نقصها ، وتهذيبها من نواحي المفردات والقواعد والأساليب ، وتدوين
آثارها ، واستخدامها في الترجمة والتأليف الأدبي والعلمي ... وهلم جرا .
وتمتاز هذه الطائفة من العوامل عن الطوائف الثلاث السابقة بأنها
أمور مقصودة ، تسيروها الإرادة الإنسانية ، على حين أن الطوائف
السابقة تتمثل مظاهرها في أمور غير مقصودة تحدث من تلقاء نفسها ،
وتبدو آثارها في صورة جبرية لا اختيار للإنسان فيها ولا يده على
وقفها أو تغيير ما تؤدي إليه . وتمتاز عنها كذلك بأن هدفها الأصلي
هو لغة الكتابة ، بينما تتجه آثار الطوائف السابقة بشكل مباشر إلى
لغات المحادثة .

ولهذه الطائفة مظاهر كثيرة من أهمها الرسم ، والتجديد في اللغة ،
والبحوث اللغوية ، وحركة التأليف والترجمة ، ووسائل تعليم اللغة .
وسنعتقد لكل واحد من هذه الأمور الخمسة فقرة خاصة .

أولا - الرسم

لم يتح الرسم إلا لعدد قليل من اللغات الإنسانية . أما معظمها فقد
اعتمدت حياته على مجرد التناقل الشفوي . فالشرط الأساسي لحياة اللغة

هو التكلّم بها لا رسمها : فكثيراً ما تعيش اللغة بدون أن يكون لها سند تحريري ؛ ولكن من المستحيل أن تنشأ لغة أو تبقى بدون أن يكون لها مظهر صوتي . ويصدق هذا حتى على اللغات الصناعية نفسها كالاسبرنتو Esperanto وما إليها . فمن المتعذر أن تتاح الحياة للغة من هذا النوع ما لم تتداو لها الألسنة وتصبح أداة للكلام . ولذلك كان أول ما يتجه إليه المفكرون في هذا النوع من اللغات هو وضع أصواته وأسلوب نطقه والبحث في وسائل انتشار التحدث به .

وعلى الرغم من ذلك فللرسم في حياة اللغة ونهضتها آثار تجل عن الحصر . فيفضله تضبط اللغة ، وتدون آثارها ، ويسجل ما يصل إليه الذهن الإنساني ، وتنتشر المعارف ، وتنقل الحقائق في الزمان والمكان . وهو قوام اللغات الفصحى ولغات الكتابة ودعامة بقائها . وبفضله كذلك أمكننا الوقوف على كثير من اللغات الميتة كالسنسكريتية والمصرية القديمة والإغريقية واللاتينية والقوطية . . . ؛ فلو لا ما وصلنا من الآثار المكتوبة بهذه اللغات ما عرفنا منها شيئاً ولضاعت منا مراحل كثيرة من مراحل التطور اللغوي .

وترجع أساليب الرسم التي استخدمت في مختلف اللغات إلى أسلوبين اثنين :

(أحدهما) أسلوب الرسم المعنوي *Idéographie, écriture idéographique* وهو الذي يضع لكل معنى صورة خطية خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب في لغات كثيرة منها الصينية ^(١) والمصرية القديمة ^(٢) . ولا نعلم

(١) يرتكز الرسم الصيني على ٢١٤ دوزاً أعلياً (تسمى بالمفاتيح *clefs* أو الأصول *Radiciaux*) ، يبر كل رمز منها عن معنى تام ، ويدين المقصود منه عدد الخطوط التي تضاف إلى هذا الرمز ونوعها .

(٢) يسمى الرسم المصري القديم بـ *Hieroglyphe* . وقد اجتاز هذا الرسم أربع

على وجه اليقين أول أمة استخدمته ؛ ولكن يظهر من شواهد كثيرة أنه أقدم أساليب الرسم الإنساني .

وترجع الصور الخطية التي تستخدم في هذا الأسلوب إلى نوعين . فأحيانا تكون صوراً حقيقية للأشياء التي يراد التعبير عنها أو لأجزاء من هذه الأشياء ؛ كما يشير الرسم الهيروغليفي إلى الشمس بدائرة في وسطها نقطة ، وإلى القمر بقوس في وسطه تنوء ، وإلى الزنبق بثلاث فروع من شجرته في طرف كل منها ثلاث زنبقات ، وإلى الصقر بصورته واقفاً وهلم جرا . وأحيانا تكون مجرد رموز مصطلح عليها للتعبير عن الأشياء والمعاني Symbolisme ؛ كما يشير الرسم الهيروغليفي إلى الشهر بصورة هلال في وسطه نجمة ، وإلى اليوم بدائرة في وسطها نقطة ؛ وكما يشير الرسم الصيني لمعنى « الإنسانية » بخطين يتكون منهما شكل يشبه رقم ٨ .

ولهذا الأسلوب من الرسم عيوب كثيرة : فهو أسلوب بطيء يقتضى الكاتب إسرافاً كبيراً في الوقت والمجهود . ولكثرة صورته

مراحل . فقد كان في المبدأ تصويراً للأشياء ؛ فيعبر عن الشمس مثلا بدائرة في وسطها نقطة ، وعن القمر بقوس في وسطه تنوء وهلم جرا . ثم دخل فيه بعد ذلك طريقة الرموز البسيطة والمركبة ؛ فيعبر مثلا عن اليوم بصورة الشمس (دائرة في وسطها نقطة) ، وعن الشهر بصورة نجمة تعلوها صورة قمر مستعرضة (قوس في وسطه تنوء) . وفي المرحلة الثالثة دخلت فيه الطريقة الصوتية المقطعية ؛ فاستخدمت مثلا الصورة التي كان يعبر بها قديما عن النعم (وهي صورة الشفتين) للتعبير عن مقطع « را » . وفي المرحلة الأخيرة دخلت فيه الطريقة المجازية ؛ فاستخدمت مثلا الصورة السابقة للتعبير عن مقطع « را » بل للتعبير عن صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بحركة كما هو شأن الراء في الحروف المجازية العربية . - والمظهران الأولان فقط (الصوري والرمزي) هما اللذان يعدان من النوع الذي نحن بصدده الكلام عنه . أما المظهران الآخران (المنطقي والمجازي) فن النوع الثاني الذي سنتكلم عنه وهو الرسم الصوتي .

ورموزه تبعا لكثرة المعاني والأشياء، يقتضى تعلمه وتعليمه جهوداً شاقة وزمناً طويلاً. ولذلك يقضى كثير من الصينيين زهرة شبابهم في المدارس بدون أن يتموا تعلم الرسم الصينى. وهو لا يقوى على تأدية وظيفته إلا في صورة ناقصة مبتورة؛ إذ من المستحيل، مهما كثرت صورته وتعددت رموزه، أن ينتظم جميع ما يخطر بالذهن الإنسانى من معان وأفكار وجميع ما ينطق به اللسان من ألفاظ وعبارات. هذا إلى أنه بمقتضاه لا يوجد للبنى الواحد أكثر من صورة واحدة، مع أنه في معظم اللغات الإنسانية، كثيرا ما يوجد للبنى الواحد عدة ألفاظ مترادفة. فاستخدامه في حالات كهذه يوقع في اللبس ويؤدى إلى الاضطراب.

(وثانيهما) أسلوب الرسم الصوتى *Ecriture phonétique, ou Phonétisme* الذى يضع لكل صوت صورة خاصة. وقد استخدم هذا الأسلوب من الرسم في كثير من اللغات القديمة، ويستخدم الآن في معظم الشعوب المتعدية.

وترجع الصور الخطية التى استخدمت في هذا الرسم إلى طائفتين: إحداهما الصور المقطعية *Syllabique* وهى التى ترمز إلى مقاطع كاملة، كما يرمز في الهيروغلىفى بشكل الشفتين إلى مقطع «را»، وفي المسامرى بصورة اليد إلى مقطع «سو»؛ والأخرى الصور الهجائية *Alphabetique* وهى التى ترمز إلى أصوات ساكنة كما يرمز في الرسم العربى بهذا الحرف: «ل»، إلى صوت اللام مجردة من جميع الحركات.

ويظهر أن قدماء المصريين كانوا أول من استخدم هذا الأسلوب بنوعيه (المقطعى والهجائى) منذ أكثر من ثلاثين قرناً قبل الميلاد. فمن بين صور الخط الهيروغلىفى ما يرمز إلى مقاطع صوتية (صورة الشفتين مثلاً التى تعبر عن مقطع «را»)، بل من بينها ما يرمز إلى مجرد أصوات

سا كنة (صورة الشفتين مثلا التي أصبحت ترمز فيما بعد إلى صوته الراء السا كنة غير المتبوعة بأية حركة ، كما هو شأن الراء في الحروف الهجائية العربية) . غير أن قدماء المصريين لم يستخدموا هذا الأسلوب وحده ، بل مزجوه بالأسلوب الأول . فالرسم الهيروغليفي خليط من الرسم الصوتي والرسم المعنوي ؛ يستخدم بجانب الصور المقطعية والهجائية ، صوراً حقيقية ورمزية (١) .

ومن الراجح أن الفينيقيين هم أول من استخدم الأسلوب الهجائي وحده . وقد اضطرهم إلى ذلك نشاطهم التجاري وكثرة تنقلهم وتعدد علاقاتهم بمختلف الشعوب . فقد كانت هذه الشؤون تقتضيهم في جميع أعمالهم السرعة في الحركة ، والاقتصاد في الجهود ، وتحرى وجوه الدقة . والأسلوب الهجائي هو أسرع أساليب الرسم ، وأيسرها ، وأدناها إلى الكمال . وليس من شك في أنهم قد حاكوا في أسلوبهم هذا ما كان يشتمل عليه الخط الهيروغليفي من صور هجائية . على أنه قد ثبت أنهم أخذوا أخذاً عن هذا الخط نحو ثلاثة عشر حرفاً من حروفهم .

وقد انتشرت حروف الهجاء الفينيقية في معظم أنحاء العالم القديم واستخدمها كثير من شعوبه ؛ ومنها تفرعت بشكل مباشر أو غير مباشر جميع حروف الهجاء التي استخدمت فيما بعد في مختلف اللغات الإنسانية .

فن الحروف الفينيقية اشتقت الحروف العبرية القديمة ، ومن هذه اشتق الرسم العبري الحديث (الحروف العبرية المربعة *l' hébreu carré*) الذي استخدم بعد رجوع بني إسرائيل من نفى بابل ، وظل مستخدماً إلى الآن بدون أن يناله تغيير ذو بال .

(١) انظر التعليق الثاني من ص ٢٤٧ ، ومفحة ٢٤٨ .

. ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك نوعان من الرسم قريبا الشبه بالعبرية الحديثة (الحروف العبرية المربعة) : أحدهما الخط التدمري^(١) (أو البالميريني Palmyrénien^(٢)) ؛ والآخر الخط النبطي Nabatéen . ومن التدمري اشتقت الحروف السريانية التي أخذت منها الخطوط المغولية والمثورية . ومن الخط النبطي والخط السرياني اشتقت حروف الهجاء العربية .

ومن الرسم الفينيقي أخذ كذلك الرسم الآرامي . بل إن الرسم الآرامي في أقدم أشكاله لا يكاد يختلف عن الرسم الفينيقي . وعن الآرامية أخذت الحروف الهندية الباكترانية Indo - Bactrien^(٣) التي كانت مستخدمة في شمال الهند ؛ ومن هذه الحروف اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن في مختلف لغات الهند وسيام Siam وكامبودج Cambodge (بالهند الصينية) وما ليزيا Malisie .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك الرسم الإغريقي ؛ ومن الرسم الإغريقي أخذت الحروف اللاتينية ؛ ومن الرسمين اللاتيني والإغريقي تفرعت جميع أنواع الرسم المستخدمة في مختلف اللغات الأوروبية في العصر الحاضر .

والأصل في الرسم الهجائي أن يكون معبرا تعبيرا دقيقا عن

(١) نسبة إلى تدمر وهي مملكة قديمة كانت تشمل جزيا كبيرا من سوريا الحالية . - ومعنى تدمر في العبرية بلاد النخيل .

(٢) نسبة إلى بالميرين Plmyrène وهو اسم فرنسي لبلاد تدمر . ومعناه في الفرنسية هو نفس معنى تدمر في العبرية أي بلاد النخيل .

(٣) نسبة إلى باكتريان Bactriane وهي منطقة قديمة كان يسكنها الإيرانيون وتشمل بعض مناطق تركستان وقارس .

أصوات الكلمة بدون زيادة ولا نقص ولا خلل في الترتيب؛ فيرسم في موضع كل صوت من أصواتها الحرف الذي يرمز إليه، ولا يوضع فيها حرف زائد لا يكون له مقابل صوتي. وقد حوِّظ على هذا الأصل إلى حد كبير في بعض اللغات الإنسانية، وخاصة القديم منها؛ فرسم الكلمة في السنسكريتية لا يكاد يختلف في شيء عن صوتها (١). ولكن معظم أنواع الرسم، وخاصة الحديث منها، لا تتوافق فيه هذه المطابقة. فكثيرا ما يرسم في الكلمة حرف زائد أو حروف زائدة ليس لها مقابل صوتي في النطق («مائة»، في العربية؛ «loup» في الفرنسية، «thamb» في الإنجليزية). - وكثيرا ما تشمل الكلمة على أصوات لا تمثلها حروف في الرسم («هذا» في العربية؛ «picture» في الإنجليزية). - وكثيرا ما يرسم في الكلمة حرف أو أكثر للتعبير عن صوت غير الصوت الذي وضع له («dompter» في الفرنسية؛ «enough»، «ocean»، «of» في الإنجليزية). - وكثيرا ما ينطق بالحرف الواحد أو بالمقطع الواحد بصور صوتية مختلفة تبعا لاختلاف الكلمات، أو اختلاف أزمعتها، أو اختلاف موقعه فيها، أو اختلاف ما يسبقه أو يلحقه من حروف...؛ فيرقق في بعض الكلمات ويفخم في بعضها الآخر، أو يمد في بعضها ويقصر في بعضها الآخر، أو يضغظ عليه في بعضها ويرسل في بعضها الآخر... وهلم جرا.

(اللام في «الله»، «بالله»، «I get a piece of lead»، «Law, low»؛

(١) وقد ساعد على ذلك أن الرسم السنسكريتي لم يكد يفادر صوتا من أصوات اللغة إلا وضع له حرفا يرمز إليه. ولذلك كثرت حروف المعجم في هذا الرسم، وقويت دلى التعبير عن مختلف الأصوات. فقد بلغت ٤٦ حرفا منها ٣٣ حرفا ساكنا و١٣ حرفا لينيا، هذا إلى ثلاث علامات للشكل.

I lead some men » ; « I will read this book, I have just read this book » : « The lines of demarkatin that separate Scienaces This book contains separte sciences » ; « I object against this Way, The object of our book is . . . ») .

وكثيرا ما تختلف الحروف في كلمتين ويتحد النطق بهما

(a piece of bread, in time of peace) .

ويرجع السبب في هذه الظواهر وما إليها إلى عوامل كثيرة من

أهمها عاملان :

(أحدهما) أن حروف الهجاء في معظم أنواع الرسم لا تمثل جميع اصوات اللغة التي تكتب بها . فقد جرت العادة مثلا في معظم أنواع الرسم أن لا يوضع لكل صوت عام أكثر من حرف هجائي واحد ؛ مع أن الصوت العام كثيرا ما يندرج تحته أصوات مختلفة في مخرجها ونبرتها وقوتها ومدة النطق بها وما إلى ذلك . فالصوت العام للام مثلا ليس له في معظم أنواع الرسم الحديثة إلا حرف واحد (L . . .) ؛ مع أن هذا الصوت يختلف نطقه باختلاف الكلمات والمواقع . فأحيانا ينطق به مرققا (بالله ، low, hole) ، وأحيانا مفتخما (والله law) ؛ وتارة ينطق به مضغوطا عليه (أقسم بالله) وأخرى ينطق به مرسلا (يستعين بالله) وهم جرا ؛ ورسمه واحد في جميع هذه الحالات . والصوت العام للآلف اللينة ليس له في العربية إلا حرف واحد ؛ مع أنه أحيانا ينطق به مستقيما ، وأحيانا ينطق به بمالا . والصوت العام للجيم ليس له في العربية إلا حرف واحد ؛ مع أنه في بعض اللهجات ينطق به مجردا من التعطيش ، وفي بعضها ينطق به معطشا كل التعطيش ، وفي بعضها ينطق به بين هذا وذاك (١) .

(وثانيهما) أن أصوات اللغة - كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٢)

(٢) انظر ص ٢٢٨ .

(١) انظر صفحة ٤٢ .

وكما سيأتى بيانه مفصلاً (١) - فى تطور مطرد وتغير دائم . فالأصوات التى تتألف منها كلمة ما لا تجمد على حالتها القديمة ، بل تتغير بتغير الأزمنة والمناطق ، وتتأثر بطائفة كبيرة من العوامل الطبيعية والاجتماعية واللغوية : فأحياناً يسقط منها بعض أصواتها القديمة ، وأحياناً يضاف إليها أصوات جديدة ، وتارة يستبدل ببعض أصواتها أصوات أخرى ، وتارة تحرف أصواتها عن مواضعها فيختل ترتيبها القديم ... ؛ وقد يناها أكثر من تغير واحد من هذه التغيرات . على حين أن الرسم لا يساير النطق فى هذا التطور ، بل يميل غالباً الى الجمود على حالته القديمة أو ما يقرب منها ؛ فلا يدون الكلمة على الصورة التى انتهت إليها أصواتها ، بل على الصورة التى كانت عليها من قبل . وهذا هو منشأ الخلاف فى معظم اللغات الأوروبية الحديثة بين النطق الحالى لكثير من الكلمات وصورتها فى الرسم . فمعظم وجوه هذا الخلاف ترجع إلى جمود الرسم وتمثيله لصور صوتية قديمة نالها مع الزمن كثير من التغيير فى ألسنة الناطقين باللغة .

ومع ما للرسم من الفوائد الجليلة التى أشرنا إليها فى صدر هذه الفقرة (٢) ، فإن عدم مطابقتها للنطق يجعل له بعض آثار ضارة . فهو يعرض الناس للخطأ فى رسم الكلمات . ويجعل تعلم القراءة والكتابة لأهل اللغة أنفسهم من الأمور الشاقة المرهقة ، ويطلب زمن الدراسة ، فيسبب إسرافاً كبيراً فى الوقت والمجهود . وما يلاقيه أهل اللغة من صعوبات بهذا الصدد يلاقى أضعافه الأجانب الراغبون فى تعلمها . ومن الواضح أن هذا يعوق انتشارها فى الخارج ، ويضيق سبل الانتفاع بأدائها وعلومها ، فيصعب التفاهم بين الشعوب وتضعف

(١) انظر الفصل السابع . (٢) انظر ص ٢٤٧ .

بينها حركة التبادل العلى والثقافى . هذا إلى أن تمثيل الرسم لصور صوتية قديمة يعمل على رجوع اللغة إلى الوراء وردها إلى أشكالها العتيقة . فكثيرا ما يتأثر الفرد فى نطقه للكلمة بشكلها الكتابى ، فلا يلفظها بالصورة التى اتبى إليها تطورها الصوتى ، بل ينطق بها وفق رسمها فتحرف إلى الوضع الذى كانت عليه فى العهود القديمة . وليس الأجانب وخدمهم المعرضين لهذا الخطر ؛ بل إنه كثيرا ما يصيب أهل اللغة أنفسهم . وإليك مثلا الحرف المشدد فى اللغة الفرنسية فى مثل Savammant, évidamment . . . الخ . فقد كان ينطق به وفق رسمه فى العصور الأولى لهذه اللغة . ثم انقرضت هذه الطريقة منذ خمسة عشر قرنا تقريبا ؛ وأخذ الفرنسيون ينطقون به مخففا كما ينطقون بحرف واحد (Savaman, évidaman) . ولكن منذ عهد قريب أخذت عادة النطق به مشددا تظهر فى السنة كثير منهم تحت تأثير صورته الخطية . فمن جراء الرسم نكصت اللغة على عقبيها فى هذه الناحية خمسة عشر قرنا إلى الوراء (١) .

ومن أجل ذلك كان العمل على إصلاح الرسم وتضييق مسافة الخلف بينه وبين النطق موضع عناية كثير من الأمم فى مختلف العصور . فقد ظهر فى هذا السبيل بعض حركات إصلاحية عند اليونان والرومان فى العصور السالفة للميلاد . . وفى أواخر القرن التاسع عشر عالج الألمان أساليب رسمهم القديم وأصلحوا كثيرا من نواحيه . . ومثل هذا حدث من عهد قريب فى مملكة النرويج ثم فى جمهورية البرازيل . . وقد بدت

(١) ومن ذلك أيضا الحروف الساكنة (غير اللينة) فى آخر الكلمات ، فقد حذفت فى النطق الفرنسى فى معظم المفردات منذ عهد بيدا . واسكن أخذ كثير من الفرنسيين فى العهد الحاضر ينطقون بعضها تحت تأثير صورتها الخطية : « but » (نطقها الصحيح bu) قد تحولت الآن فى السنة كثير من الفرنسيين إلى « bute » .

بهذا الصدد محاولات إصلاحية كثيرة في البلاد الواطئة (هولاندا)
وانجلترا والولايات المتحدة ، ولكن معظم هذه المحاولات لم يؤد إلى
نتائج ذات بال . . وأدخلت الأكااديمية الفرنسية ، يشد أزرها ويعاونها
طائفة من ساسة فرنسا وعلماؤها ، إصلاحات كثيرة على الرسم الفرنسي .
وقد جانبت في إصلاحاتها هذه مناهج الطفرة واتبعت سبل التدرج
البطيء . فكانت تدخل في كل طبعة جديدة لمعجمها ، بجانب التنقيحات
اللغوية والعلمية ، طائفة من الإصلاحات الإملائية . وقد أقرت عام
١٩٠٦ مجموعة هامة من القواعد الجديدة في الرسم الفرنسي . هذا إلى
إصلاحات العلامة جريار Gréard التي تناولت كثيرا من نواحي
الرسم ، وأقرتها الأكااديمية الفرنسية . وكانت كل مجموعة من هذه
الإصلاحات تلقى مقاومة عنيفة من جانب غلاة المحافظين . وعلى الرغم
من ذلك فقد عم الأخذ بها ، وكان لها أكبر فضل في تيسير الرسم
الفرنسي وتضييق مدى الخلاف بينه وبين النطق الحديث . - والرسم
العربي نفسه قد تناولته يد الإصلاح أكثر من مرة من قبل الإسلام
ومن بعده . ومع ذلك لا يزال عدد كبير من المفكرين في عصرنا
الحاضر يأخذون عليه كثيرا من وجوه النقص والإبهام ، وينادون
بإصلاحه من عدة نواح وخاصة رسم الهمزة والألف اللينة وابتداع
طريقة لإحلال علامات ظاهرة ترسم في صلب الكلمة محل الفتحة
والكسرة والضمة حتى يتقى اللبس في نطق الكلمات (عِلْمٌ ، عِلْمٌ ، عِلْمٌ ،
عِلْمٌ . . . الخ) . ولكن الرسم العربي ليس في حاجة إلى كثير من
الإصلاح ؛ فهو من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطا في القواعد
ومطابقة للنطق .

هذا ، وعلى الرغم من المساوىء السابق ذكرها ، فإن جهود الرسم

على حالته القديمة أو ما يقرب منها بعض فوائدها جديدة بالتنويه . فهو يوحد شكل الكتابة في مختلف العصور ، ويسهل تناقل اللغة ، ويمكن الناس في كل عصر من الانتفاع بمؤلفات سلفهم وآثارهم . فلو كان الرسم يتغير تبعا لتغير أصوات الكلمات لأصبحت كتابة كل جيل غريبة على الأجيال اللاحقة له ، ولاحتاج الناس في كل عصر إلى تعلم طرق النطق والإلمام بحالة اللغة في العصور السابقة لهم حتى يستطيعوا الانتفاع بمخلفات آباؤهم . هذا إلى أن جمود الرسم على حالته القديمة يفيد الباحث في اللغات أكبر فائدة . فهو يعرض له صورة صحيحة لأصول الكلمات ، ويقفه على ما كانت عليه أصواتها في أقدم عصور اللغة : فالرسم للألفاظ أشبه شيء من هذه الناحية بالمتحف للآثار .



وقد كان للرسم في اللغات الأوروبية فضل كبير في تيسير النطق بكثير من الأسماء المتداولة المركبة من عدة كلمات . فقد جرت العادة أن يكتب في التعبير عن هذه الأسماء بذكر الحروف الأولى للكلمات التي تتألف منها « T. S. F. = tébégraphe sans fil » « M. A. = Master of arts » وشاع هذا الاستعمال في أسماء المخترعات والشركات والأحزاب والفرق الحربية والنظريات والشهادات العلمية ... وما إلى ذلك . وقد أنزلت هذه الرموز منزلة الكلمات وأخذ الناس يصرفونها وينسبون إليها ويشتمون منها أفعالا وصفات . وللاقتصار عليها وكثرة استخدامها في الحديث والكتابة تنوسى أصلها عند عامة الناس ، وأصبح كثير منهم يعتقد أنها كلمات كاملة (النازي ، الأناك ... الخ) .



وللرسم أثر كبير في تحريف النطق بالكلمات التي يقتبسها الكتاب والصحفيون عن اللغات الأجنبية . وذلك أن اختلاف اللغات في

الأصوات، وحروف الهجاء والنطق بها، وأساليب الرسم...، كل ذلك يجعل من المتعذر أن ترسم كلمة أجنبية في صورة تمثل نطقها الصحيح في اللغة التي اقتبست منها. فبنشأ من جراء ذلك أن ينطق بها معظم الناس بالشكل الذي يتفق مع رسمها في لغتهم، ويشيع هذا الأسلوب من النطق، فتصبح الكلمة غريبة كل الغرابة أو بعض الغرابة عن الأصل الذي أخذت عنه. وليس هذا مقصوراً على اللغات المختلفة في حروف هجائها كالعربية واللغات الأوروبية، بل يصدق كذلك على اللغات المتفقة في حروف الهجاء كالفرنسية والانجليزية. فجميع الكلمات الانجليزية التي انتشرت في الفرنسية عن طريق رسمها في الصحف والمؤلفات ينطق بها الفرنسيون في صورة لا تتفق مع أصلها الانجليزي (boy - scout; foot - ball; rugby; hockey; sterling; standard of living...) حتى أن كثيراً منها لا يكاد يتبينها الانجليزي إذا سمعها من فرنسي.

ثانياً - حركة التجديد في اللغة

تبدو حركة التجديد المقصود في مظاهر كثيرة من أكبرها أثراً في التطور اللغوي الأمور الآتية:

- ١ - تأثر الأدباء والكتاب بأساليب اللغات الأجنبية، واقتباسهم أو ترجمتهم لمفرداتها ومصطلحاتها، وانتفاعهم بأفكار أهلها وإنتاجهم الأدبي والعلمي. فلا يخفى ما لهذا كله من أثر بليغ في نهضة لغة الكتابة وتهذيبها واتساع نطاقها وزيادة ثروتها. والامثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الأمم الغابرة وفي العصر الحاضر. فأكبر قسط من الفضل في نهضة اللغة العربية في عصر بني العباس يرجع إلى انتفاع الأدباء والعلماء باللغتين الفارسية والإنجليزية. فقد أخذوا في ذلك العصر يترجمون آثارهما، ويعقبون عليها بالشرح والتعليق، ويستغاونها في

بحوثهم ، ويحا كون أساليبهما ، ويقتبسون منهما عددا كبيرا من المفردات العلمية وغيرها ، ويمزجونها بمفردات لغتهم عن طريق تعريبها تارة وعن طريق ترجمتها تارة أخرى ؛ فانتسح بذلك متن اللغة العربية وازدادت مرونة وقدرة على تدوين الآداب والعلوم .- ويرجع كذلك أكبر قسط من الفضل في نهضة اللغة العربية بمصر في العصر الحاضر إلى ارتفاع الصحفيين والادباء والعلماء باللغات الأوروبية الحديثة ، ومحاكاتهم لأساليبها ، وتعريبهم أو ترجمتهم لألفاظها ومصطلحاتها ، واستغلالهم في مؤلفاتهم ومترجماتهم لمنتجات أهلها في شتى ميادين الحركة الفكرية .- ولغة الكتابة بفرنسا في العصر الحاضر مدينة بأهم نواحي رقيها إلى تأثرها باللغتين اللاتينية والإغريقية من جهة وباللغات الأوروبية الحديثة من جهة أخرى . فنجد « عصر النهضة » Renaissance لم ينفك أدباء فرنسا وعلمائها دائبين على اقتباس المفردات اللاتينية واليونانية القديمة ، ومحاكاة أساليب هاتين اللغتين ، وترسم قواعدهما ومناهجهما في البحث^(١) . وقد أخذوا منذ عهد غير بعيد يقتبسون كثيرا من المفردات والأساليب عن اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الإنجليزية والألمانية .- ولولا آلاف المفردات التي اقتبسها المحدثون من أدباء ألمانيا وعلمائها من اللغة اللاتينية وما تفرع عنها ومن اللغات الأوروبية الحديثة وبخاصة الفرنسية والإنجليزية ، ما قويت لغة الكتابة بألمانيا أن تصل إلى الشأ والذى هي عليه الآن .- ومثل هذا يقال في معظم لغات الكتابة في العصر الحاضر .

وكثيرا ما تقتبس لغة الكتابة عن اللغات الأخرى مفردات لما نظير في متنها الأصلي ؛ وكثيرا ما تقتبس مفردا من لغة وتقتبس نظيره

(١) انتشرت بفرنسا حركة المحاكاة للقواعد والأساليب اللاتينية بفضل كتاب القرن السابع عشر ،

وعلى الأخص بلزاك وديكارت وبو-ويه Balzac, Descarts, Boussuet

في الدلالة عن لغة أخرى . وإلى هذه الظواهر وما إليها يرجع السبب في كثرة الألفاظ المترادفة (المشترك المعنوي) في لغات الكتابة . فما يذهب إليه بعضهم من أن الترادف بالمعنى الكامل لهذه الكلمة لا وجود له في اللغات ، ليس صحيحا إلا فيما يتعلق ببعض لغات المحادثة التي تظل بآمن من الاحتكاك باللغات الأخرى . أما لغات الكتابة التي يستحيل بقاؤها بمعزل عن غيرها ، ولغات المحادثة التي يتاح لها هذا الاحتكاك ، فلا تخلو من الترادف بالمعنى الصحيح ، للسبب الذي ذكرناه .

٢ - إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة . فكثيرا ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن معان لا يجدون في المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيرا دقيقا ، أو لمجرد الرغبة في استخدام كلمات غريبة ، أو في الترفع عن المفردات التي لا كتبها إلا لسانه كثيرا . وبكثرة الاستعمال ، تبعث هذه المفردات خلقا جديدا ، ويزول ما فيها من غرابة ، وتندمج في المتداول المألوف . ولا يخفى ما لذلك من أثر في نهضة لغة الكتابة واتساع متنها وزيادة قدرتها على التعبير . وقد سار على هذه الوتيرة بمصر في العصر الحاضر كثير من الأدباء والعلماء والصحفيين ، فردوا بذلك إلى اللغة العربية جزءا كبيرا من ثروتها المفقودة ، وكشفوا عن عدة نواح من كنوزها المدفونة في أجداث المعجمات .

٣ - خلق الأدباء والعلماء لألفاظ جديدة . فكثيرا ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن أمور لا يجدون في مفردات اللغة المستعملة ولا في مفرداتها الدائرة ما يعبر عنها تعبيرا دقيقا . وقد لا يضطرم إلى ذلك إلا مجرد الرغبة في الابتداع ، أو مجانبة الألفاظ المتداولة المألوفة ، أو إبراز المعنى في صورة رائعة وتثبيته في الأذهان وتذليل سبل انتشاره بالإغراب في تسميته . وقد عم استخدام هذه الطريقة في الأمم

الأوروبية منذ القرن التاسع عشر، وكثر التجاء الأدباء والعلماء إليها بنوع خاص في تسمية المستجدات من المخترعات الصناعية والمصطلحات العلمية والأحزاب والمبادئ السياسية والاجتماعية، وفي التعبير عن بعض معان دقيقة في عالم الأدب والفلسفة؛ فقامت مؤلفاتهم بهذه الكلمات المصنوعة، وتألف منها معظم المصطلحات في الفلسفة وعلم النفس والعلوم الطبيعية والطب والصيدلة... وما إلى ذلك. وصنع معظم هذه المصطلحات بصيغة دولية، فأقرته المؤتمرات والهيئات العلمية الممثلة لمختلف الأمم الأوروبية وعم استخدامها في لغاتها (تلغراف، تليفون، سوسولوجيا، جيولوجيا... الخ). وقد أجاز المجمع اللغوي بمصر الالتجاء إلى هذه الطريقة حيث تدعو إلى ذلك ضرورة، بأن لا يوجد في مفردات اللغة متداولها ومهجورها ما يعبر تعبيراً دقيقاً عن الاصطلاح المراد التعبير عنه.

ولا يخفى ما لهذه الوسيلة من أثر في نهضة لغة الكتابة، واتساع متنها، ودقة مصطلحاتها، وزيادة مرونتها وقدرتها على التعبير.

وقد ارتضى الأدباء والعلماء بعض قواعد عامة في وضع هذه الألفاظ. ويستعينون عادة في تكوينها بالنحت والاشتقاق الأكبر ومزج كلمتين أو أكثر في كلمة واحدة. ويستمدون أصولها من اللغات الحية أو الميتة وخاصة اللاتينية واليونانية القديمة. وكثيراً ما يستعان في تكوينها بأكثر من لغة واحدة. فمن هذه المفردات ما هو مؤلف من لغتين (« سوسولوجيا » أي علم الاجتماع، فصدر الكلمة « سوسيو » من أصل لاتيني معناه الجمعية وعجزها « لوجيا » من أصل يوناني معناه المقال أو البحث أو الخطبة : « Sociologie » (du latin « societas » = société, et. du grec « logos » = discours.)

بل منها ما هو مؤلف من ثلاث لغات (« بيسيكلت » أى الدراجة فإن « بي » من أصل لاتينى يدل على الثانية، و « سيكل » من أصل يونانى معناه الدائرة، و « إت » علامة فرنسية للتصغير (Bicycleette : du latin « bi » = deux Fois, et du grec « kuklos » = cercle, et du suffixe diminutif français « tte ») .

وقوام هذه المفردات هو التواضع والاصطلاح . ولذلك كثيرا ما تختلف معانيها اختلافا يسيرا أو كبيرا عن معانى الأصول التى استمدت منها .

ولا تبقى هذه الألفاظ جامدة على الحالة التى وضعت عليها، بل ينالها ما ينال غيرها من المفردات، وتخضع فى تطورها الصوتى والدلالى لنفس القوانين العامة التى تخضع لها الألفاظ الأصلية . فبمجرد أن يقذف بها فى التداول اتاغوى وتتأقلمها الألسنة، تفلت من إرادة مخترعيها وتخضع لنواميس الارتقاء العامة المسيطرة على ظواهر الصوت والدلالة . فاللفظ الموضوع أشبه شئ بحجر يقذف به القاذف فى جهة معينة بقوة خاصة؛ فإنه بمجرد أن يفارق يده يخضع فى سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره على تعطيلها أو وقف آثارها . ولذلك يختلف الآن النطق بالألفاظ الموضوعية ويختلف رسمها باختلاف الأمم واللغات . والأسلوب الصوتى الذى كانت تلفظ به منذ قرن أو قرنين مثلا غير الأسلوب الصوتى الذى تلفظ به الآن، وقد أخذ كثير منها عند جميع الكتاب أو عند بعضهم ينحرف فى دلالة نفسها عن المعنى الذى وضع له فى الأصل .

ثالثا . - المؤلفات اللغوية

وهى البحوث التى ترمى إلى حفظ اللغة وضبطها وسلامتها

وتخليدها والوقوف على خواصها وتاريخها وآثارها... وما إلى ذلك .
 وتشمل المعجمات ودوائر المعارف وكتب القواعد بمختلف أنواعها .
 (النحو ، الصرف ، الاشتقاق ، الوضع ، البيان ، المعاني ، البديع ... الخ) ،
 وأدب اللغة وتاريخه ، ودراسة أصوات اللغة ومخارج حروفها ودلالة
 كلماتها وحياتها والأدوار التي سارت فيها من مختلف نواحيها ...
 وهلم جرا .

فلا يخفى ما لهذه الجهود من أثر جليل في حياة لغة الكتابة وحفظها
 من التحريف وتهذيبها ونهضتها ونقلها من السلف إلى الخلف .

رابعا - نشاط التأليف والترجمة في الآداب والعلوم والفنون

والصحافة ... وما إلى ذلك

فمن الواضح أنه لا حياة للغة الكتابة بدون استخدامها في هذه
 الشؤون ، وأنه بمقدار نشاط أهلها في هذه الميادين تتاح لها وسائل
 الانتشار والرقى والنهوض .

خامسا - تعليم لغة الكتابة

تقوم معاهد التعليم في مختلف الأمم بأهم ناحية من هذه الوظيفة ،
 وإليها يرجع أكبر قسط من الفضل في حياة اللغة وتخليدها وسلامتها
 وما يتاح لها من نهوض . فهي التي تعلم الصغار الكتابة والقراءة ،
 وتقوّم ألسنتهم وتصلح فاسد نطقهم وتأخذهم بآداب اللغة وأساليبها ،
 وتقفهم على قواعدهم وتلقنهم آثارها ، وتبعث في نفوسهم حبها
 وإجلالها ، وتدرس لهم بها مختلف المواد فتزيد بها تثبيتا في أذهانهم ،
 وتقدرهم على استخدامها في مختلف مناجي التعبير .

وتعتمد معاهد التعليم في أدائها هذه الوظائف الجليلة على العوامل

الأربعة السابق ذكرها، وعلى طرق إعداد المعلمين ومؤلفات التربية وأساليب التعليم... وما يتصل بذلك، وعلى ما تلقاه من إشراف وتعضيد ومعونة من جانب أولى الأمر والأسرات والهيئات والأفراد.

ولا يفوتنا قبل أن نختم هذه الفقرة أن نشير إلى أن كل تطور أو رقي في لغة الكتابة يؤثر بطريق غير مباشر في لغة الحديث. فطبقات الخاصة تعمل جاهدة على تقريب لغة حديثها من اللغة الفصحى؛ وانتشار التعليم الأولى يساعد على تهذيب لغة الكلام في طبقات العامة ويدنوبها من لغة الكتابة. فالعوامل السابق ذكرها في هذه الفقرة - وإن اتجه أثرها أولاً وبالذات إلى لغات الكتابة - تؤثر بطريق غير مباشر في لغات التخاطب.



الفصل السابع

أصوات اللغة : حياتها وتطورها

(الفونيتيك Phonétique) (١)

ترجع أهم ظواهر اللغة إلى قسمين رئيسيين : الظواهر المتعلقة بالصوت ؛ والظواهر المتعلقة بالدلالة . وكلتا الناحيتين في تطور مطرد وتغير مستمر . وهي في تطورها وتغيرها تتأثر بعوامل شتى وتخضع لطائفة كبيرة من القوانين .

وسندرس في هذا الفصل ما يتعلق بالصوت وتطوره ، ونقف الفصل التالي على الأمور المتصلة بالدلالة .

- ١ -

خواص التطور الصوتي وعوامله

للتطور الصوتي خواص كثيرة أهمها ما يلي : (٢)

١ - أنه يسير ببطء وتدرج . فاختلاف الأصوات اللغوية في جيل عما كانت عليه في الجيل السابق له مباشرة لا يكاد يتبينه إلا الراسخون في ملاحظة هذه الشؤون ؛ ولكنه يظهر في صورة جلية إذا وازنا بين حالتها في جيلين تفصلهما مئات السنين . فلغتنا لا تكاد تختلف في أصواتها عن لغة آباؤنا المباشرين ؛ ولكنها تختلف اختلافاً بيناً في هذه

(١) أنظر آخر ص ٦ . وأول ص ٧ .

(٢) أشرنا إلى كثير من هذه الخواص في الفصول السابقة . أنظر صفحات ٢٢ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ،

الناحية عما كانت عليه في السنة أجدادنا في العصور الوسطى أو في صدر العصور الحديثة .

٢ - أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلي لا دخل فيه للإرادة الإنسانية . فتحول صوت الثاء العربية مثلا إلى تاء (ثلاثة ، ثلاثة) ، والذال إلى دال (ذراع ، ذراع) ، والظاء إلى ضاد (الظل ، الضل) ، والقاف إلى همزة (قلت ، ألت) أو جاف (جيم غير معطشة : قلت ، جلت) ، وانقراض الاصوات التي كانت تلحق أواخر الكلمات للدلالة على إعرابها ووظائفها في الجمل (كنت أحسب أن كتاب محمد أحسن من كتاب علي ، كنت أحسب ان كتاب محمد أحسن من كتاب علي) ... كل ذلك وما إليه قد حدث من تلقاء نفسه بطريق آلي لا دخل فيه للتواضع أو إرادة المتكلمين .

٣ - أنه جبرى الظواهر ، لأنه يخضع في سيره لقوانين صارمة ، لا اختيار للإنسان فيها ، ولا يد لأحد على وقفها أو تعويقها أو تغيير ما تؤدي إليه . وإليك مثلا حالة اللغة العربية في صدر الإسلام وما آلت إليه الآن : فعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت في سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من تحريف ، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين ، فإن ذلك كله لم يحل دون تطور أصواتها إلى الصورة التي تتفق مع نواميس التطور اللغوي ، فأصبحت على الحالة التي هي عليها الآن في اللغات العامية .

٤ - أنه في غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان . فمعظم ظواهر التطور الصوتي يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص ؛ ولا نكاد نعر على تطور صوتي لحق جميع اللغات الإنسانية في صورة واحدة . فتحول صوت القاف مثلا إلى همزة (قلت ، ألت) لم يظهر إلا في بعض المناطق المصرية ومنذ عهد غير بعيد ؛ وتحول صوت ه الواقع

في نهاية بعض الكلمات اللاتينية إلى صوت e لم يظهر إلا عند الفرنسيين، ولم يبد أثره لديهم إلا في أثناء المدة المحصورة بين نهاية القرن الثامن وأوائل القرن الرابع عشر.

هـ - أنه إذا لحق صوتا معينا في بيئة ما ظهر أثره في جميع الكلمات المشتملة على هذا الصوت وعند جميع الأفراد الذين تكتنفهم هذه البيئة، فتحول القاف العربية مثلا إلى همزة في بعض المناطق المصرية قد ظهر أثره في جميع الكلمات المشتملة على هذا الصوت وعند جميع أفراد هذه المناطق (١).

ومن هذا يظهر فساد كثير من النظريات القديمة بهذا الصدد: فليس بصحيح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن تطور الأصوات يحدث نتيجة لأعمال فردية اختيارية تنتشر عن طريق التقليد والمحاكاة (٢).

وليس بصحيح كذلك ما كانت تقول به المدرسة الإنجليزية من عهد سايس Sayce إلى عهد سويت Sweet من أن التطور الصوتي يتجه باللغة نحو التهذيب والكمال؛ ولا ما ذهب إليه العلامة پول پاسي Paul Passy من أنه يتجه نحو إظهار العناصر الأساسية في الكلمة وتجريدها مما عسى أن يكون بها من أصوات لا تدعو إليها كبر ضرورة؛ فيخفف بذلك من ثقلها ويزيدها تميزا. وذلك أن اتجاهات كهذه لا يمكن أن تتحقق إلا في تطور اختياري مقصود تقوده الإرادة الإنسانية في سبيل الإصلاح. أما وقد ثبت أن التطور الصوتي تطور تلقائي آلي لا دخل فيه للإرادة الإنسانية فلا يتصور أن يتقيد في اتجاهه

(١) لهذه الخواص بعض استثناءات لا يتسع انقام لذكرها، ومعظمها يمكن رجعه إلى القوانين العامة

لحياة اللغات.

(٢) انظر صفحتي ٥٩، ٦٠.

بالسبل التي تقول بها هذه النظريات . وإن موازنة بين حالة الكلمات في اللغة العربية الفصحى وما آلت إليه في اللغات العامية لا كبر دليل على ما تقول . فمن الواضح أن هذا التطور لم يتجه نحو التهذيب والكمال ، ولم يحقق زيادة تمييز للكلمات ، بل أدى في معظم مظاهره إلى اللبس في وظيفة الكلمات ودلالاتها ، وجرّد اللغة بما بها من دقة وسمو ، وهوى بها إلى منزلة وضعية في التعبير . وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في كثير من اللغات الإنسانية الراقية . فكثير من الكلمات اللاتينية مثلا كانت واضحة الشخصية بميزة الأصوات ، ثم فقدت بعد تطورها شخصيتها وميزاتها ، وأصبحت في حالة يكتنفها اللبس والإبهام . ويظهر هذا بالموازنة بين كلمة *aqua* اللاتينية مثلا وما انتهت إليه في الفرنسية إذا استحالت إلى صوت واحد من أصوات اللين (*eau* وينطق بها *o*) .

وليس بصحيح كذلك ما ذهب إليه مكس مولر *Max Muller* ووتى *Whitney* من أن التطور الصوتي يتجه نحو تسهيل النطق ويعمل على تحقيق الاقتصاد في المجهود^(١) . وذلك أن هذا الاتجاه من قبيل الاتجاهات التي تقول بها النظريات السابقة . فهو مثلها لا يمكن أن يتحقق إلا في تطور اختياري مقصود تقوده الإرادة الإنسانية في سبيل الإصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الصوتي تطور تلقائي آلي لا دخل فيه للإرادة الإنسانية ، فلا يتصور أن يتقيد في اتجاهه بالخطة التي تقول بها هذه النظرية . حقا إن الحالة التي تتطور إليها أصوات الكلمة في جيل ما تكون دائما أكثر من حالتها الأولى تلاؤما مع طبيعة أعضاء النطق

(١) - *Loi du moindre effort (Max Muller) - Principe d' économie (Whitney) . - V. Dauzat : Philosophie du Langage P. 166 ; Patois 117 .*

واستعدادها عند أهل هذا الجيل كما سيأتي بيان ذلك (١). ولكن لفظها قد يتطلب من الأعمال الصوتية وحركات أعضاء النطق أكثر مما يتطلبه لفظ الكلمة القديمة فلا يتحقق حيثئذ الاقتصاد الذي تقول به هذه النظرية. ويظهر هذا مثلا بالموازنة بين الكلمة العربية «ماء» وما انتهت إليه في عامية القاهرة إذ أصبحت «ميه»؛ وبين الكلمة العربية «ذا الوقت» وما انتهت إليه في عامية بعض مقاطعات الشرقية إذ أصبحت «دَلَوَجيتي» وبين الكلمة اللاتينية caballicet (٢) وما انتهت إليه في فرنسية العصور الوسطى إذ أصبحت chevalcet (وكان ينطق بها tchevalst).

أما العوامل التي تؤدي إلى تطور الأصوات فيرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

- ١ - التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق في تكوينها واستعدادها؛
- ٢ - اختلاف أعضاء النطق في تكوينها واستعدادها باختلاف الشعوب races.
- ٣ - الأخطاء السمعية؛
- ٤ - تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض؛
- ٥ - موقع الصوت في الكلمة؛
- ٦ - تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض؛
- ٧ - أثر الأمور النفسية والاجتماعية والجغرافية؛
- ٨ - أثر العوامل الأدبية.

وقد تكلمنا بما فيه الكفاية في الفصلين الخامس والسادس عن

(١) انظر ص ٢٧٠ وتوابعها.

(٢) troisième personne du subjonctif présent du verbe chevaucher

أثر العاملين الأخيرين في التطور الصوتي^(١) . فحسبنا هنا أن نذكر كلمة عن أثر كل عامل من العوامل الستة الأولى في هذا التطور .

- ٢ -

التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق

ونظرية روسلو Roussetot

من المقرر أن أعضاء النطق في الإنسان في تطور طبيعي مطرد في تكوينها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها . فحناجرنا وحبالنا الصوتية والسنتنا وحلوقنا . . . وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آباءنا الأولين ، إن لم يكن في تكوينها الطبيعي ، فعلى الأقل في استعدادتها^(٢) ؛ بل إنها لتختلف عما كانت عليه عند آباءنا الأقربين . غير أن هذا التطور يسير ببطء وتدرج ؛ ولذلك لا يبدو أثره بشكل واضح إلا بعد زمن طويل .

وغنى عن البيان أن كل تطور يحدث في أعضاء النطق أو في استعدادها يتبعه تطور في أصوات الكلمات ؛ فتتحرف هذه الأصوات

(١) انظر صفحات ٢٠٥ - ٢١١ ، ٢٢١ - ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٦ - ٢٣٨ ، ٢٥٥ - ٢٥٨ .

٢٥٨ .

(٢) يكاد العلماء يجمعون على أن أعضاء النطق تختلف بعض الشيء في تكوينها واستعدادها باختلاف الشعوب وباختلاف الظروف المحيطة بكل شعب كما سيأتي بيان ذلك في الفقرة التالية ؛ ويكادون يجمعون كذلك على أنها في الشعب الواحد والظروف المتشابهة تطور استعداداتها وتختلف باختلاف المصور . أما تطور تكوينها الطبيعي في الشعب الواحد والظروف المتشابهة فقد اختلف العلماء بصدده ؛ فمن منكر له ؛ ومن قائل به . والمذهب الأخير هو الأدق إلى الصواب .

عن الصورة التي كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق .

وقد كان لكشف هذه الحقيقة أكبر فضل في نهضة البحوث اللغوية المتعلقة بالصوت ، وفي القضاء على كثير من النظريات الفاسدة التي أشرنا إلى بعضها في الفقرة السابقة^(١) .

وقد اهتدى إلى هذا الكشف ، من قبل العلامة روسلو Rousselot^(٢) ، عدد كبير من الباحثين ، نخص بالذكر منهم هرمان پول Herman Paul^(٣) . ولكن جرت العادة بنسبته إلى العلامة روسلو ، لأنه وقف قسطاً كبيراً من جهوده على دراسته وتدعيمه بالأدلة القاطعة وتحري حقائقه بوسائل البحث القديمة وبوسيلة جديدة لم يكده يسبقه أحد إليها ، وهي وسيلة الأجهزة (الفونيتيك التجريبي^(٤)) .

وليس من اليسر وضع قواعد عامة مضبوطة لاتجاهات هذا التطور ؛ لأن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً باختلاف اللغات والبيئات والشعوب كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في الفقرة السابقة^(٥) . ولذلك سنقتصر بصدد هذا العامل على ضرب أمثلة من الظواهر الصوتية المترتبة عليه .

فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والثاء والذال والطاء والقاف . فقد أصبحت هذه الأصوات ثقيلة على أعضاء النطق في كثير من البلاد العربية ، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب

(١) انظر ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٢) انظر أواخر ص ٦٢ .

(٣) انظر صفحات ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ .

(٤) انظر صفحات ٤٣ - ٤٦ .

(٥) انظر آخر ص ٢٦٦ وأول ٢٦٧ .

تلقينا خاصا ومجهداً إرادياً وقيادة مقصودة لحركات المخارج . ولعدم ملامتها مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق في هذه البلاد أخذت تتحول منذ أمد بعيد إلى أصوات أخرى قريبة منها . فالصوت الأول (الجيم) الذي كان ينطق به معطشاً بعض التعطيش في العربية الفصحى قد تحول في معظم المناطق المصرية إلى جاف (جيم غير معطشة) ، وفي معظم المناطق السورية والمغربية إلى جيم معطشة كل التعطيش (z) (١) . والثاء قد تحولت إلى تاء في معظم المناطق المصرية وفي بلاد أخرى (فيقال : توب ، تلج ، تخين ، تعلب . تعبان ، تفل ، تثيل ، تلت ، تلاته ، تمن ، تمانيه ، تور ، اتنين ، نتر ، جته ، عته ، عتر . . . الخ ، بدلا من : ثوب ، تلج ، تخين ، ثعلب ، ثعبان ، ثفل ، ثقيل ، ثلث ، ثلاثه ، ثمن ، ثمانية ، ثور ، اثنان ، نثر ، جثة ، عثة ، عشر . . . الخ (٢) . - والذال قد تحولت في كثير من المناطق العربية إلى دال في معظم الكلمات (فيقال : داب ، دراع ، ديب ، ده ، دى ، دبل ، دبح ، دبان ، دان ، أدان ، ودن ، ذهب ، ديل . . . الخ ، بدلا من : ذاب ، ذراع ، ذئب ، ذا ، ذى ، ذيل ، ذبح ، ذبان ، ذفن ، أذان ، أذن ، ذهب ، ذيل . . . الخ) ؛ وإلى زاي في بعض الكلمات (فيقال مثلا : زنب ، زهن ، زكى ، بز ، رزالة . . . الخ ، بدلا من : ذنب ، ذهن ، ذكى ، بذر ، رذالة . . . الخ . - والطاء قد تحولت إلى ضاد في معظم الكلمات (فيقال : ضلام ، ضفر ، ضل ، ضهر . . . الخ ، بدلا من : ظلام ، ظفر ، ظل ، ظهر . . . الخ) ؛ وإلى زاي مفتحة في بعض الكلمات (كما ينطق في عامية المصريين بكلمات : ظالم ،

(١) لا يزال ينطق بصوت الجيم نطقا صحيحا في عامية العراق وبعض المناطق المصرية ، وخاصة في مديرية الشرقية .

(٢) تحول هذا الصوت في كلمات قليلة إلى سين أو صاد : ثواب تنطق أحيانا سواب أو صواب .

ظريف، أظن، حظ... الخ) (١). والقاف قد تحولت إلى همزة في بعض اللهجات المصرية (فيقال: أط، ألت، أبل، عاد، نطأ... الخ، بدلا من: قط، قلت، قبل، عقد، نطق... الخ)؛ وإلى جاف (جيم غير معطشة) في معظم اللهجات العامية بمصر وغيرها من البلاد العربية (فيقال: جط، جلت، جبل، عجد، نطج... الخ، بدلا من: قط، قلت، قبل، عقد، نطق... الخ) (٢).

ومثل هذا حدث في كثير من اللغات الأوروبية. فمن ذلك ما لوحظ بصدد تطور الراء الفرنسية في منطقة باريس وما إليها. فقد كان ينطق بها قديما في صورة مرققة؛ ثم أخذت تنحرف عن مخرجها تبعا لتطور أعضاء النطق واستعدادها حتى قربت من آخر الحلق، فتحولت إلى صوت بين الراء والغين، وأصبح صوتها القديم ثقيلًا على الألسنة يتطلب لفظه من أهل هذه المناطق مجهوداً إرادياً وقيادة مقصودة لحركات المخارج.



(١) لا يزال ينطق باصوات الراء والنال والظاء نطقاً صحيحاً في عامية العراق والمغرب وخاصة في طرابلس وفي انقبائل العربية النازحة الى مصر (الفوايد، الرياح، البراعة، أولاد علي، الضعفاء سمالوس... الخ).

(٢) لا يزال صوت القاف مخنظاً بنطقه الصحيح في كثير من الكلمات في عامية العراق وعامية رشيد. وكان مستعملاً منذ عهد غير بعيد في بعض مناطق بني سويف؛ وقد سمعت أنا نفسي بعض شيوخ أسرتي (بيلدة الحمام مركز بني سويف) يتكلمون بالقاف؛ ولا يزال العامة في هذه المناطق يتكلمون بالقاف حيناً يروون عبارة منسوبة إلى أجدادهم في الأقاليم الشعبية وما إليها؛ وهذا يدل على أن صوت القاف لم ينقرض لديهم إلا منذ أمد قريب.

- ٣ -

اختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب

تختلف أعضاء النطق في تكوينها واستعدادها ومنهج تطورها تبعاً لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتي تنتقل عن طريق الوراثة من السلف إلى الخلف . حقا أن أعضاء النطق تظل مرنة كل المرونة طوال المرحلة الأولى من مراحل الطفولة . فمن المشاهد أن الطفل في هذه المرحلة لا يستعصى عليه اكتساب أى لغة عن طريق التقليد ، مهما كانت هذه اللغة بعيدة عن لغة أبويه ، بل في استطاعته أن يكتسب بهذه الوسيلة عدة لغات أجنبية إذا أتاحت له فرصة الاختلاط بالمتكلمين بها ، ويصل في إجادتها جميعها إلى درجة لا يستطيع معها أكبر خبير في اللغات أن يميزه من أهلها ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب^(١) . ولكن ليس من شك في أنه كلما تقدمت به السن ظهرت عنده الاستعدادات الصوتية الكامنة الخاصة بأمته ، ورسخت لديه عاداتها الكلامية ، فتفقد أعضاء نطقه مرونتها شيئا فشيئا ، وتشكل بالشكل الذي فطرت عليه في شعبه ، وتسلك في تطورها منهجا خاصا يختلف عن المنهج الذي تسلكه أعضاء النطق في الشعوب الأخرى .

ولا يخفى ما يترتب على اختلاف الشعوب بهذا الصدد من آثار خطيرة في التطور الصوتي في مختلف اللغات .

فإلى هذا يرجع بعض السبب في اختلاف اللغة الواحدة في تطورها الصوتي باختلاف الشعوب الناطقة بها . وذلك أنها تسلك في تطورها

(١) انظر صفحتي ١٣٣ ، ١٣٤ .

الصوتى عند كل شعب منها مسلوكا يتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقه في طبيعتها واستعدادها ومنهج ارتقاؤها . فاللاتينية مثلا قد سلكت في تطورها الصوتى عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها مسلوكا يختلف عن مسلوكها في الشعوب الأخرى ؛ فلم تلبث أن انشعبت من جراء ذلك إلى عدة لغات (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا ... الخ) . واللغة العربية قد اتجهت كذلك في تطورها الصوتى عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيره ؛ فلم تلبث أن تولد عنها من جراء ذلك عدة لهجات (عامية العراق ، عامية الشام ، عامية نجد والحجاز ، عامية اليمن ، عامية مصر ، عامية المغرب ... الخ) (١) . - حقا إن كثيرا من مظاهر هذا الاختلاف يرجع إلى عوامل اجتماعية ونفسية أو إلى آثار البيئة الجغرافية (٢) . ولكن ليس من شك في أن بعض هذه المظاهر يرجع إلى العامل الشعبى الذى نحن بصدد الكلام عنه .

وعلى هذا العامل يقع كذلك قسط من التبعة فيما يصيب اللغة من تحريف في أصواتها حينما تنتقل من شعب إلى شعب آخر (٣) ؛ وذلك أنها تتشكل عند الشعب المنتقلة إليه في الصورة التى تتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقه وتكونها واستعدادها ، فتبعد بذلك عن أصولها الأولى ، ويزداد بعدها هذا كلما اتسعت مسافة الخلف بين أصول الشعبين . فما أصاب لغة الصقالبة من تحريف في السنة البلغاريين يفوق

(١) انظر صفحات ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(٢) انظر ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٣) انظر صفحات ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، وآخر ص ١٩٥ وأول ١٩٦ . - ونقول : « قسط من التبعة ، لا كل التبعة لأن لهذه الظاهرة أسبابا أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسبابا اجتماعية ونفسية وجغرافية ... الخ) .

كثيراً ما أصابها عند غيرهم ؛ وذلك لأن الأصل الفينى *Finois* الذى ينحدر منه البلغاريون لا تربطه صلة قريبة بالأصل السلافى الذى ينتمى إليه الصقالبة^(١) . . وما أصاب الأصوات اللاتينية من تحريف فى اللغة الفرنسية يفوق كثيراً ما أصابها فى اللغة الإيطالية ؛ وذلك لأن الإيطاليين أقرب رحماً إلى قدماء الرومان من الفرنسيين ؛ ففيهم يغلب الدم اللاتينى ، بينما يغلب فى الفرنسيين الدم السلتى والجرمانى . . ولهجات القسم الجنوبى من فرنسا كالجسكونية والبروفنسية . . الخ *Gascon, Provençal ... etc* أقرب إلى أصولها اللاتينية من لهجات القسم الشمالى ؛ وذلك أن الدم اللاتينى فى سكان الجنوب أغزر منه فى سكان الشمال . . ولهجات الجنوب نفسها تختلف فى مبالغ قربها إلى اللغة اللاتينية تبعاً لاختلاف المناطق بها فى مبالغ قربهم إلى الأصل اللاتينى . ولذلك كانت البروفنسية *Provençal* أقرب إلى اللاتينية من الجسكونية *Gascon* ؛ لأن البروفنسيين أدنى إلى اللاتين من الجسكونيين . . ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر (البراعصة ، الفوايد ، الرماح ، الجوازى ، أولاد على ، سمالوس ، . . الخ) أدنى فى ناحيتها الصوتية إلى العربية الفصحى من لهجات المصريين أنفسهم^(٢) ؛ وذلك لأنهم أقرب رحماً إلى العرب من المصريين .

وعلى ضوء هذا العامل يمكن كذلك قياس مسافة الخلف بين اللهجات المحلية ، (وهى اللهجات التى يتكلم بها فى منطقة لغوية واحدة كلهجات البلاد المصرية)^(٣) والوقوف على بعض الأسباب التى

(١) أنظر الفقرة الثانية من صفحة ١٨٢ وأول صفحة ١٨٣ .

(٢) أنظر صفحة ٢٧٣ والتعليق الأول فيها .

(٣) أنظر ص ٢١١ وتوابعها .

تؤدي إلى بعدها بعضها عن بعض (١). فالمشاهد أن مبلغ اختلاف هذه اللهجات بعضها عن بعض في أصواتها يتبع إلى حد كبير مبلغ اختلاف الناطقين بها بعضهم عن بعض في أصولهم الشعبية. فكلما كان هؤلاء متجانسين في أصولهم ضاقت مسافة الخلف بين لهجاتهم في ناحيتها الصوتية، وكلما تعددت الأصول الشعبية التي يتمتعون إليها اتسعت هذه المسافة. فلهجات المصريين لا تختلف كثيراً بعضها عن بعض في هذه الناحية؛ وذلك لتجانسهم في الأصول التي انحدروا منها. - ولهجات المنطقة الشمالية بفرنسا (منطقة باريس وما إليها (٢)) تختلف كثيراً عن لهجات المنطقة الجنوبية منها (طولون، نيس... الخ Toulon, Nice). ولكن كلتا المنطقتين تحوي مجموعة متشابهة من اللهجات؛ وذلك لأن سكان المنطقة الشمالية يختلفون في أصولهم الشعبية عن سكان المنطقة الجنوبية، ولكن كلتا المنطقتين تضم من السكان مجموعة متجانسة في هذه الأصول. - ولهجات المناطق الوسطى بفرنسا تختلف بعضها عن بعض اختلافاً غير يسير؛ وذلك لتعدد الأصول الشعبية التي ينتمى إليها سكان هذه المناطق (٣).



(١) نقول «بعض الأسباب» لأن لهذه الظاهرة أسباباً أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسباباً اجتماعية ونفسية وجغرافية... الخ).
 (٢) انظر الآن معظم هذه اللهجات وحلت عملها الفرنسية الحديثة.
 (٣) V. Dauzat; Vie du Langage p. 47

- ٤ -

الأخطاء السمعية

سقوط الأصوات الضعيفة ونظرية روسلو ومييه Rcussetot, Meillet

يعتمد الطفل في محاكاته للغة أبويه على حاسة السمع، كما سبق شرح ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب^(١). ولما كانت هذه الحاسة عرضة للزلل في إدراكاتها، كان لزاماً أن يجانب الطفل السداد في بعض ما يحاكيه وأن تختلف لغته بعض الاختلاف في ناحيتها الصوتية عن لغة أبويه..

وتنقسم الأخطاء اللغوية الناجمة عن هذا السبب إلى قسمين:

١ - أخطاء خاصة مقصورة على بعض الأفراد كالأخطاء الناجمة عن ضعف السمع أو اختلال أجهزته وما إلى ذلك. وليس لمثل هذه الأمور شأن كبير في تطور اللغة؛ لأن آثارها مقصورة على أصحابها، تبقى معهم وحدثهم في حياتهم وتختفي بموتهم.

٢ - أخطاء عامة يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة وتمتاز بها لغتهم عن لغة الطبقة السابقة لهم. وذلك كالأخطاء السمعية الناشئة عن ضعف بعض الأصوات. فقد يحيط بالصوت بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج، فيتضائل جرسه شيئاً فشيئاً حتى يصل في عصر ما إلى درجة لا يكاد يتبينه فيها السمع. فحينئذ يكون عرضة للسقوط. وذلك أن معظم الصغار في هذا العصر لا يكادون يتبينونه في نطق الكبار، فينطقون بالكلمات مجردة منه، ولا يفتن الآباء لسقوطه في لغة آبائهم لنفس السبب الذي من أجله لم يفتن الآباء لوجوده في لغة آبائهم.

(١) انظر صفحتي ١٤٢، ١٤٣.

ولا يخفى ما لهذا القسم من الأخطاء من أثر بليغ في تطور اللغة من ناحيتها الصوتية . فإليه يرجع السبب في سقوط كثير من الأصوات في مختلف اللغات الإنسانية وخاصة في اللغات الهندية - الأوروية . ويرجع أكبر قسط من الفضل في توضيح هذا العامل وبيان آثاره إلى الاستاذين روسلو وميه Rousselot, Meillet ، ولذلك تنسب إليهما نظريته (١) .

- ٥ -

تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض

يحدث بين الأصوات المتجاورة والمتقاربة في الكلمة من ظواهر التفاعل أنواع كثيرة يؤدي كل نوع منها إلى نتائج ذات بال في التطور الصوتي . ومن أهم ما سجله الباحثون بهذا الصدد الأمور الآتية :

١ - التفاعل بين الأصوات الساكنة (ونعني بها ما يقابل أصوات الأثلين) .

يحدث أحيانا بين الصوتين المتجاورين أو المتقاربين في الكلمة مثل ما يحدث بين المواد المحملة بالكهرباء . فتجاور مادتين من هذه المواد يحدث بينهما تبادبا إذا كانتا مختلفتين في نوع كهربائهما بأن كانت إحداهما موجبة والأخرى سالبة ، وتنافرا إذا كانتا متحدتين فيه ، بأن كانت كلتاهما موجبة أو سالبة ، وكذلك يفعل أحيانا التجاور أو

(١) انظر في ذلك : Dautat; les Patois p. 118; Meillet, Linguistique générale p. 79; Delacroix, Le Langage et la Pensée p. 180 et suiv. وانظر في ترجمة روسلو وميه أواخر صفتي ٦٢ ، ٦٧ وأول ص ٦٨ .

التقارب بين الصوتين .

(١) فإذا تجاوز صوتان مختلفان في مخارجهما أو تقاربا انجذب أحيانا كل منهما نحو الآخر ، فينتهي بهما الامر إلى واحدة من النتائج الأربعة الآتية :

فتارة يلتصق أحدهما بالآخر ، فتنقل الأصوات التي كانت تفصل بينهما إلى ما بعدهما (ظاهرة النقل المكانية Metathèse^(١)) ؛ كما حدث لحرفي b, r في كلمة berbis إذ تحولت إلى brebis ، وفي كلمة abeuvrer إذ تحولت إلى abreuver .

وتارة يتحول أحدهما إلى صوت من نوع الصوت الآخر (ظاهرة التشاكل assimilation^(٢)) : فيتحول الأول إلى نوع الصوت الثاني كما حدث في cercher إذ تحولت إلى chercher ، وكما حدث في الكلمة العربية « زنبور » إذ تحولت نونها في عامية المصريين إلى باء أي إلى صوت من نوع الصوت الذي يليها ، فأصبحت « دبور » ، وكما حدث في الكلمة العربية « شمس » إذ تحولت في بعض اللهجات العامية إلى « سمس » ؛ أو يتحول الثاني إلى نوع الصوت الأول كما حدث في gamba, render إذ تحولت إلى gamma, renner^(٣) ؛ وكما حدث في الكلمة العربية « شمس » إذ تحولت في بعض لهجات الصعيد إلى « شمش » .

(١) ليس « النقل المكانية Néatathèse مقصورا على الحالة التي نحن بصدد الكلام عنها ، بل يطلق اصطلاحا على كل حالة ينتقل فيها صوت أو أكثر من موضعه في الكلمة إلى موضع آخر كما سيأتي بيان ذلك في ص ٢٩٠ .

(٢) استخدمنا كلمة assimilation في معناها الواسع الذي يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ، لأنها لا تطلق في معناها الاصطلاحي الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

(٣) تحول الصوت الأول إلى نوع الصوت الثاني هو الغالب في هذه الحالة ; V. Dauzat; La vie du Langage p. p. 57, 79.

وأحيانا يمتزجان معا ، فيتكون من امتزاجهما صوت ثالث به صفات من كليهما ؛ كما حدث في جميع الكلمات التي تجاور فيها صوتا ١. ٢ ، إذ تحول هذان الصوتان في الفرنسية إلى صوت واحد يجمع بين صفتيهما وهو صوت mouillé .

وأحيانا يتلاشى أحدهما في الآخر : فيبقى الثاني وحده ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *accipitar* إذ تحولت في الفرنسية إلى *acheter* ، أو يبقى الأول وحده ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *cliaue* إذ تحولت في الإيطالية إلى *chiave* (ينطق بها *Kyave*)^(١) .

(ب) وإذا تجاوز صوتان متحدان أو تقاربا فانهما يتنافران أحيانا ، فينتهى بهما الأمر إلى واحدة من النتائج الثلاث الآتية :

فتارة يتحول صوت أحدهما إلى صوت مغاير الآخر (ظاهرة التباين *dissimilation*)^(٢) . ويقع هذا على ضربين : فأحيانا يتحول أولهما كما حدث في *orphan i nus, peregrinum* إذ تحولوا في الفرنسية إلى *orphelin, pelerin* ؛ وأحيانا يتحول ثانيهما ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *cri brum* إذ تحولت في الفرنسية إلى *cri ble* ، وكما حدث لصوتى اللام المشددة في اللاتينية إذ تحول صوتها الثاني إلى ياء في معظم الكلمات الإسبانية (*castella* تحولت إلى *castilla* وينطق بها *castilya*)^(٣) .

وتارة يسقط أحدهما في النطق كما حدث في معظم الأصوات المشددة في اللاتينية إذ تحولت في النطق الفرنسي والبروفنسى *Provençal*

(١) اقراض الأول وبقاء الثاني هو الغالب في هذه الحالة 57, 78 . V. Dauzat op. cit.

(٢) استخدمنا كلمة *dissimilation* في معناها الواسع الذي يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ،

لأنها لا تطلق في معناها الاصطلاحي الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

(٣) تحول الأول إلى صوت مغاير الثاني هو الغالب في هذه الحالة 57,79 . V. Dauzat op. cit.

والأسباني إلى أصوات مخففة^(١). وكما حدث في معظم الأصوات المشددة في العربية إذ تحولت في لهجات كثير من بلاد الشرقية إلى أصوات مخففة (فيقال مثلا: «كلى، أمها، عمها، من كل بدء، بدلا من: «كلى، أمها، عمها، من كل بدء»).
وتارة يتساقطان معا ويحل محلها صوت واحد غريب عنهما. كما حدث في صوتي اللام المشددة في اللاتينية، إذ تحولت في الجسكونية Gascon إلى تاء t في حالة وقوعها في آخر الكلمة وإلى راه r في حالة وقوعها بين حرفي لين (فالكلمتان اللاتينيتان bellum, bella تحولتا في الجسكونية إلى bêt, bera)^(٢).

٢ - التفاعل بين أصوات اللين .

وتجاور صوتي لين أو تقاربهما في الكلمة يجعلهما كذلك عرضة للتغير والانحراف .

فتارة يلتصقان بعد تباعدهما ، فتسقط الأصوات التي تفصلهما ، ويتكون منهما صوت لين مركب diphtongue ، كما حدث في الكلمة اللاتينية reg i na إذ تحولت في الفرنسية القديمة إلى reīne^(٣) .

وتارة يتباعدان بعد التصاقهما ، فيخلق بينهما صوت ساكن (أى غير لين) لتسهيل النطق بهما كما حدث في الكلمة الفرنسية القديمة pooir إذ تحولت في الفرنسية الحديثة إلى pouvoir .

(١) وهذا فيما عدا اللام المشددة V. Dauzat op. cit. 79 . ونقول « في النطق الفرنسي . . . » لأن معظمها لا يزال محتفظا بشكله القديم في الرسم .

(٢) V. Dauzat op. cit, 79

(٣) تحولت هذه في الفرنسية الحديثة إلى reine التي ينطق بها rène خضوعا لقانون « التاوبد بين أصوات اللين » التي سنتكلم عنه في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل .

وتارة يتحول أحدهما إلى صوت لين آخر إذا كانا متحدين ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *vicinus* إذ تحولت في لغة التخاطب عند الرومان إلى *vecinus*.

وتارة يخرج أحدهما عن فصيلته خروجا تاما ، فيتحول إلى صوت ساكن^(١) (ونعني به ما يقابل أصوات اللين) ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *plattea* إذ تحولت *plattsa*^(٢) ، وكما حدث في بعض اللهجات العامية للمقاطعات الفرنسية : اوفرني وفورز ودوفيني *Auvergne, Forez, Dauphiné* إذ تحولت فيها الكلمات التي من قبيل *fialo. tiale* إلى *fsalo, tsala*.

- ٦ -

موقع الصوت في الكلمة

وموقع الصوت في الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف .

وأكثر ما يكون ذلك في الأصوات الواقعة في أواخر الكلمات . سواء أ كانت أصوات لين أم أصواتا ساكنة (ونعني بالساكنة ما عدا أصوات اللين) .

(١) أما أصوات اللين فقد لوحظ أن وقوعها في آخر الكلمة يجعلها في الغالب عرضة للسقوط ، ويؤدي أحيانا إلى تحولها إلى أصوات أخرى .

فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات اللين القصيرة .

(١) يتحول إلى ذلك في الغالب الصوت الأول منهما كما يظهر من الأمثلة التي سنذكرها .

(٢) تحولت هذه في الفرنسية إلى *place* .

(المسماة بالحركات وهي الفتحة والكسرة والضمة) التي تلحق أواخر الكلمات . ففي جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والعراق والشام وفلسطين والحجاز واليمن والمغرب ... الخ) قد انقرضت هذه الأصوات جميعها ، سواء في ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء . فينطق الآن في هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر (فيقال مثلا : « رجع عمر للمدرسة بعد ما خف من عياه ، بدلا من « رجع عمر إلى المدرسة بعد ما خف من إعيائه ») . ولعل هذا هو أكبر انقلاب حدث في اللغة العربية ؛ فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها من أطرافها ، وجردتها من العلامات الدالة على وظائفها في الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأسا على عقب .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات اللين الطويلة (الألف والياء والوار) الواقعة في آخر الكلمات . فقد تضاءلت هذه الأصوات في عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض ، سواء في ذلك ما كان منها داخلا في بنية الكلمة ، (رمى ، يرمى ... الخ) وما كان خارجا عنها (ضربوا ، ناموا ... الخ) فيقال مثلا في عامية المصريين : « رام وعيس ومصطف أب حسين سافروا يوم الخميس لـجـرج ، بدلا من : « رامى وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا » .

وما حدث في اللغة العربية حدث مثله في كثير من اللغات الأخرى فمعظم أصوات اللين المتطرفة في اللغة اللاتينية قد انقرضت في اللغات المنشعبة عنها ^(١) . ففي الأسبانية سقطت من هذه الأصوات صوتان وهما i,e ^(٢) وفي البروفنسية pronevçal والفرنسية القديمة لم يكذبى

(١) يستثنى من ذلك الإيطالية فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات .
(٢) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة بقي فيها أحد هذين الصوتين .

شيء منها^(١) . وبعض هذه الأصوات قد تحول إلى أصوات لين أخرى ، كما حدث بصوت a إذ تحول في الفرنسية القديمة إلى e
 (٢) canta, chante; lenta lente, fava, fève

(ب) ووقوع الصوت الساكن (ونعني به ما يقابل صوت اللين) في آخر الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحول أو السقوط .

فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد التوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفين^(٣) . فقد انقرضت هذه الأصوات في معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ، كما يظهر ذلك من الموازنة بين العبارات العربية المدونة في السطر الأول ونظائرها في عامية المصريين المدونة في السطر الثاني :

محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبون ؛ الهواء شديد ؛ انتظرت ساعة كاملة
 محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد ييلعبٌ ؛ الهوا شديدٌ ؛ انتظرتُ ساعَ كاملَ
 ومن هذا القبيل كذلك حذف آخر الكلمة التي يوقف عليها في عامية كثير من المناطق المصرية كـ بعض مناطق بني سويف والشرقية ورشيد وغيرها فيقال مثلا : « إنت يا ولّ » بدلا من « أنت يا ولد » « فين أخوك محمو » بدلا من « أين أخوك محمود » ، « إديل خمسأرو » بدلا من « أدله خمسة قروش »^(٤) .

(١) انقرضت جميعها في الواقع ماعدا صوت a الذي سيأتي الكلام عنه وما عدا بعض حالات شاذة .

(٢) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة . وقد حدث هذا التطور في المدة المحصورة بين نهاية القرن الثامن وأوائل القرن الرابع عشر كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، انظر آخر ص ٢٦٦ وأول ص ٢٦٧ . وانظر Dauzat, op. cit. 142 .

(٣) التاء المربوطة حكما في ذلك حكم الهمزة المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور فيما بعد .

(٤) سار على هذا الأسلوب كذلك بعض اللغات العربية النضيجة ، كـ لغة طيبي . وقد جرت

وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في كثير من اللغات الأخرى . فمعظم الأصوات الساكنة المختمة بها الكلمات اللاتينية قد انقرضت في النطق الفرنسي أو تحولت إلى أصوات ساكنة أخرى أضعف منها أو إلى أصوات لين .

أما الانقراض فلم يكد ينجو منه إلا القليل من أنواع هذه الأصوات (plumbum تحولت في الفرنسية إلى plomb التي ينطق بها plou بدون صوت الباء الأخير ؛ campus تحولت في الفرنسية إلى champ التي ينطق بها chan بدون صوت p الأخير...^(١) الخ . ومن ذلك أيضا حذف علامة الجمع s في النطق الفرنسي ، وبذلك أصبح المفرد وجمعه المختتم بصوت s سيان في النطق ولا يختلفان إلا في الرسم) .

وأما تحولها إلى أصوات ساكنة ضعيفة فقد حدث في كثير من الكلمات المنتهية بأصوات مدوية sonores مثل أصوات v. d. h. إذ تحولت في الفرنسية القديمة هذه الأصوات القوية إلى أصوات ضعيفة صامتة sourds مثل أصوات f. t. p. (navem, grandem) تحولتا في الفرنسية القديمة إلى nef, grant) . وقد جرت عادة العلماء أن يطلقوا على هذه الظاهرة اسم « توهين الصوت الساكن الأخير » assourdissement des consonnes sonores finales^(٢) .

وأما تحولها إلى أصوات لين فقد حدث على الأخص في حرف

طادة المؤلفين من العرب بتسميته قطعة ظبية (أي قطع اللفظ قبل تمامه) فكان يقال مثلا في لغتهم « يا أبا الحكا » بدلا من يا أبا الحكم . ولم يكن هذا مقصورا لديهم على المنادى بل كانت عاما في جميع الكلمات .

(١) V. Dauzat op. cit. 75, 76

(٢) حدث مثل تلك أيضا في الألمانية الحديثة إذ تحول فيها مثلا groh, tod إلى Grop, tot

Dauzat op. cit. 75

اللام | المتطرفة [vocalisation de l final] (١).

هذا، وقد أحدثت سقوط الأصوات اللينة والساكنة الواقعة في أواخر الألفاظ انقلابا كبيرا في عالم اللغات. فقد كان من آثاره انقراض طريقة الإعراب، في كثير من اللغات التي كانت تسير عليها كالعربية واللاتينية وما إليهما (٢).

٢ - ووقوع الصوت في وسط الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف.

فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد الهمزة الساكنة الواقعة في وسط الثلاثي. فقد تحولت إلى ألف لينة في عامية المصريين وغيرهم (فيقال: راس، فاس، قال، ضاني...، بدلا من: رأس، فأس، قال، ضآن... الخ).

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث بصدد الياء والواو الساكنتين في وسط الكلمة في مثل عين ويوم. فقد تحولتا في بعض المناطق المصرية وغيرها إلى صوتين من أصوات اللين: فأولهما تحول إلى صوت يشبه صوت ɛ في اللغة الفرنسية (عين، خيل، بين، زينب... الخ)؛ وثانيهما تحول إلى صوت يشبه صوت ɔ الفرنسية (يوم، نوم، فوز، لوم... الخ).

(١) حدث ذلك في الفرنسية وفي البروفنسية حوالي القرن الثاني عشر الميلادي

. V. Dauzat op. cit 75.

(٢) «طريقة الإعراب» هي الطريقة التي تعتمد في بيان نوع الكلمة ووظيفتها في الجملة على ما يلحق آخرها من أصوات. ولا يزال لهذه الطريقة آثار كثيرة في بعض لغات التخاطب الألمانية وما إليها.

ومن ذلك تحريك الحرف الساكن إذا وقع في وسط كلمة ثلاثية في كثير من لهجات البلاد العربية (عامية الشرقية، وبعض عاميات الصعيد، ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر، ولهجة العراق... الخ)؛ فيقال مثلاً: إسم، رسم، مصر، جرن، بدر، فحل، فجل... الخ، بدلا من أسم، رسم، مصر، جرن، فحل، فجل... الخ (١).

وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة من هذا القبيل في اللغات الهندية-الأوروبية.

فمن ذلك ما حدث بصدد صوت اللين القوي tonique الواقع قبيل آخر الكلمة، وخاصة إذا كان حراً voyelle libre، أى متبوعاً بصوت ساكن واحد أو بصوتين من إحدى المجموعات الآتية: br, cr, dr, tr. فقد تحول هذا الصوت في معظم حالاته في اللغات اللاتينية والجرمانية واليونانية القديمة إلى صوت لين مركب (diphthongue). وأشد أصوات اللين اتجاهاً إلى هذا التحول صوتان هما o, u؛ وأقل منهما ميلاً إلى ذلك صوتا e, o؛ وأقلها جميعاً ميلاً إلى هذا التحول صوتا u, i، فإنه لم يكذب فيهما هذا الميل إلا في اللغات الجرمانية (scinan تحولت في الألمانية scheinen وينطق بها chänen، وفي الإنجليزية إلى shine وينطق بها chaîne) (٢).

ومن ذلك ما حدث للصوت الساكن الواقع بين صوتي لين. فوقعه هذا قد أدى به أحياناً إلى السقوط وأحياناً إلى الانحراف عن مخرجه الأصلي والتحول إلى صوت آخر. فصوت الباء b قد تحول في لغة التخاطب اللاتينية إلى صوت v (taba تحولت إلى fava) (٣) وصوت

(١) هذه كذلك لهجة قديمة من لهجات بعض القبائل العربية.

(٢) ظهر هذا الميل كذلك في بعض اللهجات العامية الإيطالية 70. V. Dauzat op. cit.

(٣) لم يند عن ذلك إلا عدد يسير من الكلمات.

السين s قد تحول في اللاتينية إلى راه r (arboris تحول إلى arboris) .
 وصوت الدال d في الكلمات اللاتينية قد تحول إلى ذال z في البروفنسية (١)
 وسقط في الفرنسية والإسبانية: français: vezer; provençal: vezer; latin: videre: veir, voir: espagnol: veer, ver)
 صوتي لين قد سقطا في اللغة البرتغالية في العصور الوسطى (populus تحول إلى povo ; rationem تحول إلى ração .. الخ) . والأصوات الصامتة
 (consonnes sourdes : p. t. k. ... etc) الواقعة بين صوتي لين قد تحولت
 في اللاتينية الحديثة حوالى القرن السادس إلى أصوات مدوية
 consonnes sonores قريبة منها (b. d. g. ... etc) . وإلى هذا الحد
 وقف تطور هذا النوع في الأسبانية والبروفنسية . أما في الفرنسية
 الحديثة فقد حدث تحول آخر إذ انقلب صوت الباء b إلى v وسقط
 صوتا الدال والجيم d . g ، كما يظهر ذلك من الأمثلة الآتية (٢) :

latin : ripa, amata, securus .

esp. et prov. : ribera (riba) , amada, segur (o)

français : rive , aimée ; sûr

٣ - ووقوع الصوت في أول الكلمة يجعله كذلك عرضة
 للانحراف . فمن ذلك ما حدث في بعض المفردات العربية المفتحة
 بالهمزة ، إذ تحولت همزتها في بعض اللهجات العامية إلى فاء أو واو
 (« أذن » تحولت في عامية المصريين إلى « وذن » ، و « أين » تحولت
 إلى « فين » ، أو إلى « وين » في عامية القبائل العربية النازحة إلى مصر
 وفي عامية العراق والحجاز ؛ و « أدّى » تحولت في بعض المواضع في

(١) كان ينطق بصوت z في البروفنسية كما ينطق بالذال العربية (th في الانجليزية) .

(٢) انظر في هذا في الموضوع - 74, 75 - Dautat, op . cit.

عامية المصريين إلى « ودّى »، فيقال مثلاً « ودّاه المدرسة » بمعنى « أدى به إلى المدرسة »، أى أوصله إليها (١).

٤ - وقد تبادل الأصوات مواقعها في الكلمة ويحل بعضها محل بعض، فيتقدم المتأخر منها ويتأخر السابق. وتسمى هذه الظاهرة « بالنقل المكاني » (Metathèse) كما حدث في *abeuver, berbis* إذ تحولت إلى *abreuver, brebis*؛ وكما حدث في الكلمة العربية « أرانب » إذ تحولت في عامية القاهرة وغيرها إلى « أنارب ».

- ٧ -

تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض

وفيما عدا الحالات السابقة قد لوحظ أن الأصوات المتحددة النوع تتناوب ويحل بعضها محل بعض. وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة بهذا الصدد بعضها خاص بأصوات اللين وبعضها يتعلق بالأصوات الساكنة.

١ - أما تناوب أصوات اللين فلم تكد تخلو منه لغة من اللغات الإنسانية.

ففي اللغة العربية حدث تناوب واسع النطاق بين أصوات اللين القصيرة (التي يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة). ويمثل هذا التناوب انقلاباً من أهم الانقلابات التي اعتورت هذه اللغة. فقد كان من

(١) ليس هذا مقصوداً على اللغات العامية، بل يوجد له نظير في بعض اللهجات العربية الفصحى ففي لغة لأهل اليمن تبدل الممزة واوياً في مثل « آتيتة »، فيقال مثلاً واتيتته على الأمر مواتاة وهي المعهودة على السنة النسل.

آثاره أن انحرقت أوزان الكلمات وانقلبت أشكالها رأساً على عقب، حتى لا نكاد نجد في اللهجات العامية كلمة واحدة باقية على وزنها العربي القديم. فالفتحة قد استبدل بها الضمة أحياناً والكسرة في كثير من الأحوال (فبدلاً من: يعوم، يسجد، يسمع، عثر، خلص، سكت، عند، كبير، الكتاب... الخ؛ يقال في عامية المصريين: يعوم، يسجد، يسمع، عثر أو عتر، خلص أو خلص، سكت أو سكت، عند، كبير، إلكتاب... الخ). - والكسرة قد استبدل بها الضمة أحياناً والفتحة في كثير من الأحوال (فبدلاً من: يلطم، يضرب، يسرق... الخ؛ يقال في عامية المصريين: يلطم، يضرب، يسراً... الخ). - والضمة قد استبدل بها الفتحة أحياناً والكسرة في معظم الحالات (فبدلاً من: محمد، تُعبان، أنثى، عثة، يقتل، يذم، ظفر... الخ؛ يقال في عامية المصريين: محمد، تعبان، إتناية، عتة، يثتل، يزيم، ضفر... الخ).

وحدث كذلك تناسخ في أصوات اللين الطويلة نفسها، وخاصة في الألف اللينة إذ أميلت في لغات بعض القبائل العربية القديمة (ومنهم قريش) ، وتمال الآن في لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر وفي بعض اللهجات في بلاد الشرقية .
وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في اللغات الأوروبية .

فمن ذلك تحول أصوات اللين المركبة diptongue إلى أصوات لين بسيطة في كثير من هذه اللغات . فاللغة الفرنسية مثلاً قد تحولت في نطقها معظم أصوات اللين المركبة إلى أصوات لين بسيطة؛ وإن كانت لا تزال ترسم حسب حالتها القديمة (ai, ei, au, eau, eu .. etc) ؛ وعلى هذه

الظاهرة يقع قسط كبير من التبعة في صعوبة الرسم الفرنسي وعدم مطابقتها للناطق^(١). - وما حدث في اللغة الفرنسية بهذا الصدد حدث مثله في سائر اللغات الأوروبية وخاصة الإسبانية والإيطالية والألمانية والانجليزية^(٢).

ومن ذلك أيضا تحول صوت «a» إلى صوت «i» في عدد كبير من مفردات اللغة اليونانية وفي بعض واطن في اللغتين السلتيّة والفرنسية. وقد لوحظ أن هذا التحول يتم بالتدريج، فينحرف صوت «a» إلى صوت آخر قريب منه، وهذا إلى ثالث... وهكذا حتى يصل إلى «i»؛ ولوحظ كذلك أنه يقطع لهذه الغاية أحد طريقتين: طريق قصير وهو «a, è, é, i»؛ وطريق طويل وهو «a, o, ô; ou; u, i» ولم يحدث مطلقا أن قطع في تطوره سبيلا آخر غير هذين الطريقتين، أو تخطى مرحلة من المراحل المرسومة في كليهما، أو غير شيئا في ترتيبها السابق بيانه.

٢ - وأما تناسخ الأصوات الساكنة فقد حدث كذلك في جميع اللغات الإنسانية.

فكثير من الأصوات الساكنة في اللغة العربية قد تناسخت في اللهجات العامية، وحل بعضها محل بعض. فالزاي قد تحوّل إلى دال في بعض الكلمات («زنبور» تحول إلى «دبور»)؛ والسين إلى صاد في بعض المواطن («ساخن» تحول إلى «صاخن» في عامية الشرقية وغيرها)؛ والصاد إلى سين في كثير من الألفاظ في عامية القاهرة وغيرها (فبدلا من يصدق، مصير... الخ، يقال: يسدِّق، مسير)؛ والاضاد إلى ظاء في عامية المغرب وخاصة طراباس، وفي لهجات القبائل

(١) V. Dauzat op. cit. 64, 65.

(٢) V. Dauzat op. cit. 63 64.

العربية النازحة إلى مصر (فبدلاً من : وضوء ، يضيغ ، يضرب ، يضم ... الخ يقال : وظوء ، يظيع ، يظرب ، يظم ... الخ) ؛ والعين إلى نون في بعض الكلمات في لهجة العراقيين (فيقال مثلاً : « ينطى » بدلاً من « يعطى »)^(١) ؛ واللام إلى ميم في بعض الكلمات في عامية القاهرة (« امبارح » بدلاً من « البارحة »)^(٢) ؛ والميم إلى نون أحياناً في عامية المصريين (فيقال « فاطنة » بدلاً من « فاطمة ») ... وهلم جرا .

وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في اللغات الهندية -

الأوروبية .

فمن ذلك تحول صوت w في اللغة اللاتينية (وكان ينطق به كما ينطق به الآن في الإنجليزية ، وكما ينطق بالواو في العربية) إلى صوت r . فقد أخذ الصوت الأول ، منذ مبدأ العصور الوسطى ، يدنو شيئاً فشيئاً من الصوت الأخير حتى استبدل به في كثير من الكلمات في معظم اللغات المنشعبة عن اللاتينية^(٣) .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث في صوت k المتبوع بصوت a في الكلمات اللاتينية . فقد تحول في اللغة الفرنسية في معظم مواطنه إلى ch (canem, caballum تحولا في الفرنسية إلى chien, cheval)^(٤) . ومن ذلك أيضاً ما حدث في اللغات الجرمانية من تناوب بين

(١) تكاد تكون هذه الظاهرة مقصورة لديهم على العين المتبوعة بلاء ، وهذه كذلك هي لهجة هندي .

(٢) هذه كذلك لغة حير ، وقد جاء بها الحديث « ليس من امبرامصيام في اسفر » .

(٣) V. Dauzat op. cit. 65,66 .

(٤) V. Delacroix, Langage et Pensée, 144.

المجموعات الثلاثة الآتية من الأصوات : b, d, g, p, t, k. f, th, kh. فإن كل صوت من أصوات المجموعة الأولى قد تحول إلى ما يقابله في الترتيب من أصوات المجموعة الثانية ؛ وأصوات المجموعة الثانية تحولت بهذا النظام إلى أصوات الثالثة ؛ وأصوات الثالثة إلى أصوات الأولى. فبالموازنة بين الكلمات الجرمانية وأصولها في اللغات الهندية - الأوروبية القديمة ونظائرها في اللاتينية والإغريقية يظهر أن الأصوات الآتية المدونة في السطر الأول قد تحولت في اللغات الجرمانية إلى الأصوات المدونة تحتها في السطر الثاني :

t, d, g	p,	t,	k	f (ph)	th	kh
p, t, k	f (ph)	th	kh (gh)	b	d	g

كما يظهر ذلك من الأمثلة الآتية :

(Sanscrit)	(Latin)	(Anglais)
pitar	pater	father
	frater	brother
	dentis	touth
	genu	knee
	pedis	fout

وقد حدث في بعض اللغات الجرمانية في العصور الوسطى تطور ثان في الأصوات الجديدة التي نجمت عن التطور الأول ، فتحولت هذه الأصوات نفسها إلى ما يقابلها في الجدول السابق . وحدث في اللغة الألمانية في العصور الحديثة تطور ثالث في الأصوات التي جاء بها التطور الثاني وفقا لنفس الخطة المرسومة آنفا ؛ وقد أدى ذلك إلى رجوع بعض هذه الأصوات إلى الأصل القديم الذي كانت عليه قبل التطور الأول . فالتاء مثلا t في كلمة frater قد تحولت إلى ذال th فأصبحت

تناوب الأصوات وحلول بعضها في بعض ٢٩٥

bruther ؛ ثم تحولت هذه الذال إلى دال d فأصبحت bruder ؛ وهذه الدال قد تحولت في الألمانية الحديثة إلى تاء فأصبحت bruter ؛ وبذلك عاد هذا الصوت بعد هذه التطورات الثلاثة إلى الأصل القديم الذي كان عليه قبل التطور الأول . وهذا هو ما اصطلح علماء اللغة من الألمان على تسميته «بالدورة الثلاثية»^(١) .



الفصل الثامن

الدلالة وتطورها

La Sémantique

❦❦❦❦❦

ذكرنا في فاتحة الفصل السابق أن أهم ظواهر اللغة ترجع إلى ناحيتين رئيسيتين : الظواهر المتعلقة بالصوت ، والظواهر المتعلقة بالدلالة ؛ وأن كلتا الناحيتين في تطور مطرد وتغير مستمر ؛ وأنها في تطورها وتغيرها تتأثر بعوامل شتى وتخضع لطائفة كبيرة من القوانين .

وقد فرغنا في الفصل السابق من دراسة الناحية الأولى ، وهي المتعلقة بالصوت وتطوره ، وسنقف هذا الفصل على دراسة الناحية الثانية وهي المتعلقة بالدلالة..

- ١ -

أنواع التطور الدلالي

ترجع أهم ظواهر التطور الدلالي إلى ثلاثة أنواع :
(أحدها) تطور يلحق بالقواعد المتصلة بوظائف الكلمات وتركيب الجمل وتكوين العبارة... وما إلى ذلك كقواعد الاشتقاق والصرف (المورفولوجيا) والتنظيم (السنسكريت)... وهلم جرا .
وذلك كما حدث في اللغات العامية المنشعبة من اللغة العربية إذ تجردت

من علامات الإعراب (١) وتغيرت فيها قواعد الاشتقاق (٢) واختلفت مناهج تركيب العبارات (٣).

(وثانيتها) تطور يلحق الأساليب، كما حدث في لغات المحادثة العامية المنشعبة عن العربية إذ اختلفت أساليبها اختلافا كبيرا عن الأساليب العربية الأولى، وكما حدث للغة الكتابة في عصرنا الحاضر إذ تميزت أساليبها كذلك عن أساليب الكتابة القديمة تحت تأثير الترجمة والاحتكاك بالآداب الأجنبية ورفق التفكير وزيادة الحاجة إلى الدقة في التعبير عن حقائق العلوم والفلسفة والاجتماع... وهلم جرا.

(وثالثها) تطور يلحق معنى الكلمة نفسه، كأن يخص معناها العام فلا تطلق إلا على بعض ما كانت تطلق عليه من قبل، أو يعمم مدلولها الخاص فتطلق على معنى يشمل معناها الأصلي ومعاني أخرى تشترك معه في بعض الصفات، أو تخرج عن معناها القديم فتطلق على معنى آخر تربطه به علاقة ما وتصبح حقيقة في هذا المعنى الجديد بعد أن كانت مجازا فيه، أو تستعمل في معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول... وهلم جرا.

(١) يوقف في جميع هذه اللهجات بالسكون في جميع الكلمات المعربة بالحركات، وتلتزم حلة واحدة في الكلمات المعربة بالحروف (المثنى، جمع الذكر السالم، الأسماء الخمسة... الخ) يقال مثلا أخوك مجتهد، ضربت أخوك، سلم لي على أخوك... (فوظيفة الكلمة في العبارة لاتفهم في لغاتنا العامية إلا من مجرد السياق أو من ترتيبها بالنسبة لبنية عناصر الجملة).

(٢) تغيرت وجوه التصريف العربية تغيرا كبيرا في اللغات العامية، حتى لانكاد نثر فيها على فعل باق على حالته العربية الصحيحة من هذه الناحية.

(٣) فمن ذلك مثلا نعت المثنى بصيغة الجمع وتأخر الإشارة في تركيب الجملة عن المشار

إليه... وهلم جرا.

- ٢ -

خواص التطور الدلالي ومناهجه

للتطور الدلالي بمختلف أنواعه خواص كثيرة تشبه في جملتها خواص التطور الصوتي التي أشرنا إليها في الفصل السابق (١) . ومن أهم هذه الخواص ما يلي :

١ - أنه يسير ببطء وتدرج . فتغير مدلول الكلمة مثلاً لا يتم بشكل فجائي سريع ، بل يستغرق وقتاً طويلاً ويحدث عادة في صورة تدريجية . فينتقل إلى معنى آخر قريب منه ، وهذا إلى ثالث متصل به . . . وهكذا .
دواليك حتى تصل الكلمة أحياناً إلى معنى بعيد كل البعد عن معناها الأول . فكلمة bureau مثلاً كانت تطلق في المبدأ على صنف خاص من الأقمشة (Étouff de bure) ثم أطلقت على غطاء مائدة المكتب لاتخاذها غالباً من هذا الصنف ، ثم أطلقت على مائدة المكتب نفسها ، ثم أطلقت على مقر العمل والإدارة للملازمة المكتب لهما . فلا علاقة مطلقاً بين أول مدلول لهذه الكلمة وهو القماش الصوفي وآخر مدلول لها وهو مقر العمل والإدارة ؛ على حين أن العلاقة وثيقة بين كل معنى من المعاني التي اجتازتها والمعنى السابق له (٢) .

٢ - أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلي لا دخل فيه للإرادة الإنسانية : فسقوط علامات الإعراب في اللهجات العربية الحاضرة ،

(١) انظر صفحات ٢٦٥ - ٢٦٧ .

(٢) هذه الخاصية صحيحة في تطور معاني الكلمات وتطور الأساليب . أما تطور القواعد فكثيراً ما يحدث بدون تدرج .

وتغير أوزان الأفعال (١) وتأنيث بعض الكلمات المذكورة، وتذكير بعض الكلمات المؤنثة، (٢) وجمع صفة المشي (٣) وتأخر الإشارة عن المشار إليه (٤) وتزحزح كثير من المفردات عن مدلولاتها الأولى إلى معان جديدة... كل ذلك وما إليه قد حدث من تلقاء نفسه في صورة آلية لادخل فيها للتواضع أو إرادة المتكلمين.

٣- أنه جبرى الظواهر، لأنه يخضع في سيره لقوانين صارمة لا يد لأحد على وقفها أو تعويقها أو تغيير ما تؤدي إليه. وإليك مثلاً حالة اللغة العربية. فعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت في سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن وتحريف، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين، فإن ذلك كله لم يحل دون تطورها في القواعد والأساليب ودلالة المفردات إلى الصورة التي تتفق مع قوانين التطور اللغوي، فأصبحت على الحالة التي هي عليها الآن في اللهجات العامية.

غير أن علماء اللغة لم يصلوا بعد إلى الكشف عن جميع القوانين التي يسير عليها التطور الدلالي؛ وما كشفوه منها لم يصل بعد في دقته وضبطه وعمومه إلى مستوى القوانين المتعلقة بالتطور الصوتي، كما

(١) فيقال مثلاً في عامية بعض المناطق المصرية «كبر، يكبر» بدلاً من «كبر يكبر» أو «كبر، يكبر» ومثل هذا يقال في معظم الأفعال.

(٢) فيقال مثلاً في عامية بعض المناطق المصرية: رأس ككيرة ويطن كيرة بدلاً من رأس كبير ويطن كبير.

(٣) فيقال مثلاً في عامية المصريين «كتاين كبار» بدلاً من «كتاين كيران».

(٤) فيقال مثلاً في عامية المصريين «الكتاب ده» و«الكتاين دول» بدلاً من «هذا الكتاب» و«هذان الكتابان».

أشرنا إلى ذلك وإلى أسبابه في مقدمة هذا الكتاب (١).

٤ - أن الحالة التي تنتقل إليها الدلالة ترتبط غالباً بالحالة التي انتقلت منها بإحدى العلاقتين اللتين يعتمد عليهما تداعي المعاني (٢) ونعني بهما علاقتي المجاورة والمشابهة (٣). فتارة يعتمد انتقال الدلالة على علاقة المجاورة المكانية، كتحويل معنى «ظعينة» (معناها في الأصل المرأة في الهودج) إلى معنى الهودج نفسه وإلى معنى البعير (٤)، وتحويل معنى «ذقن» في عامية المصريين إلى معنى اللحية (٥). وتحويل معنى bureau من غطاء المكتب إلى المكتب نفسه، وكتأنيث الرأس في عامية بعض المناطق المصرية (انتقل إليه التأنيث من الأعضاء المؤنثة المجاورة له وهي العين والأذن) ... وهلم جرا. - وتارة يعتمد على علاقة المجاورة الزمنية، كتحويل معنى العقيقة (هي في الأصل الشعر الذي يخرج على الولد من بطن أمه) إلى معنى الذبيحة التي تنحر عند حلق ذلك الشعر (٦)؛ وكتذكير كلمة été (فصل الصيف) التي كانت مؤنثة في الأصل لمجاورة مدلولها مجاورة زمنية لمدلول كلمة مذكرة وهي printemps (٧).

(١) انظر صفحتي ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) من المقرر في علم النفس أن حضور معنى يدعو إلى الناكرة بعض المعاني المرتبطة معه بجملة المجاورة أو المعايمة .

(٣) هذا هو تفصيل ما يقصده علماء اللغة إذ يقررون أن تطور الدلالة خاضع لقانون التماثل
Loi de l' analogie.

(٤) الزهر للسيوطي الجزء الأول ٢٠٧ .

(٥) اللقن في الأصل هو مجامع عظمى المنك ، ولا يخفى أن هذا الموضع مجاور للشعر البابت في الوجه .

(٦) الزهر للسيوطي ج ١ ص ٢٠٧ .

(٧) كانت الفصول في الفرنسية القديمة من حيث التذكير والتأنيث على النحو التالي : الربيع

وتأزدة يعتمد على علاقة المشابهة ، كتحويل معنى « الأفن » (وهو في الأصل قلة لبن الناقة) إلى معنى قلة العقل والسفه ؛ وتحويل معنى « المجد » (وهو في الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف) إلى معنى الامتلاء بالكرم ... وهلم جرا (١) .

٥ - أن التطور الدلالي في غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان .
فمعظم ظواهره يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص . ولا نكاد نعر على تطور دلالي لحق جميع اللغات الإنسانية في صورة واحدة ووقت واحد .

٦ - أنه إذا حدث في بيئة ما ظهر أثره عند جميع الأفراد الذين تشملهم هذه البيئة . فسقوط علامات الإعراب في لغة المحادثة المصرية مثلا لم يفلت من أثره أي فرد من المصريين .

ومن هذه الخواص يتبين فساد كثير من النظريات القديمة بصددها التطور .

فليس بصحيح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن هذا التطور يحدث

(مذكر) ، الصيف (مؤنث) ، الخريف (مذكر) ، الشتاء (مذكر) . ثم انتقل تانيث الصيف إلى الخريف ، وانتقل فيما بعد تانيث الخريف إلى الشتاء ؛ فأصبحت الفصول جميعها مؤنثة ماعدا الربيع . ولكن تذكير الربيع لم يلبك أن انتقل فيما بعد إلى الصيف ، وتذكير الصيف رد إلى الخريف والشتاء . نوعهما المذكر القديم ؛ فأصبحت جميع الفصول مذكورة في الفرنسية الحالية . V. Dauzat, op. cit, 106 .

(١) قد يعتمد انتقال الدلالة من حالة إلى حالة على علاقة التضاد بين الحالتين (إطلاق الكلمة مثلا على ضد مدلولها القديم) . والتضاد في الواقع مظهر من مظاهر التشابه ، إذ لا يوجد تضاد إلا بين شيئين يشتركان في صفة عامة كالطويل والقصير والأسود والأبيض . أما الأمران اللذان لا يشتركان في صفة ما فلا يوجد بينهما تضاد كالأحمر والطويل مثلا .

نتيجة لأعمال فردية اختيارية يقوم بها بعض الأفراد وتنتشر عن طريق المحاكاة^(١).

وليس بصحيح ما ذهب إليه أعضاء المدرسة الانجليزية وبعض الباحثين من الفرنسيين كالعلامة بريال Bréal، إذ يرون أن التطور الدلالي يسير باللغة نحو التمهيد والكمال ويسد ما بها من نقص ويخلصها مما لا تدعو إليه الحاجة^(٢). وذلك أن اتجاهات كهذه لا يمكن أن تتحقق إلا في تطور اختياري مقصود تقوده الإرادة الإنسانية في سبيل الإصلاح. أما وقد ثبت أن التطور الذي نحن بصدده تطور تلقائي آلي لا دخل فيه للإرادة الإنسانية فلا يتصور أن يتقيد في اتجاهه بالسبل التي تقول بها هذه النظرية.

وإن موازنة بين الحالة التي كانت عليها اللغة العربية فيما يتعلق بدلالة ألفاظها وقواعدها في الإعراب وغيره، وما آلت إليه في اللغات العامية الحاضرة لا كبر دليل على ما تقول. فمن الواضح أن هذا التطور لم يتجه دائما نحو التمهيد والكمال، بل أدى في معظم مظاهره إلى اللبس في دلالة الكلمات والخلط بين وظائفها وأنواعها، وجرّد اللغة بما بها من دقة وسموّ، وهوى بها إلى دنزلة وضعيفة في التعبير. وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في كثير من اللغات. وإليك مثلا قواعد اللغة اللاتينية التي انقرضت في اللغات المنشعبة عنها. فإن معظم هذه القواعد كبر الفائدة في بيان وظيفة الكلمات وتحديد مدلولاتها وتعيين العلاقات التي تربط عناصر العبارة بعضها ببعض؛ وقد أدى انقراض هذه القواعد في اللهجات المنشعبة عن اللاتينية إلى كثير من

(١) قال بهذا المذهب القامد جماعة من العلماء على رأسهم سايس وسويت وجيسپرسن وتارد

• Sayce, Sweet, Jespersen. Tarde

(٢) انظر ص ٦٠، وانظر كذلك 99, 100. Dauzat, op. cit.

اللبس والاضطراب .

حقاً إن هذه المذاهب تصدق على بعض مظاهر التطور الدلالي الخاص بلغات الكتابة . فتطور لغات الكتابة يعتمد في كثير من نواحيه على عوامل أدبية مقصودة ترمى إلى تنقيح اللغة وتهذيبها والسير بها في سبيل الكمال ، كما أشرنا إلى ذلك في الفقرة الرابعة من الفصل السادس^(١) .

- ٣ -

عوامل التطور الدلالي

عرضنا في الفصول السابقة لطائفة كبيرة من عوامل التطور في القواعد والأساليب ، وأشرنا في شيء من التفصيل إلى مختلف آثارها في كثير من اللغات الإنسانية^(٢) . ولكن لم يتح لنا فيما سبق أن نوفي البحث في عوامل النوع الثالث من أنواع التطور الدلالي ، وهو التطور في معاني الكلمات . ولذلك سنقصر عليها دراستنا في هذه الفقرة .

لهذا النوع من التطور عوامل كثيرة من أهمها الطوائف الآتية :

- ١ - عوامل تتعلق باستخدام الكلمات . فمدلول الكلمة يتغير تبعاً للحالات التي يكثر فيها استخدامها .
- فكثرة استخدام العام مثلاً في بعض ما يدل عليه يزيل مع تقادم العهد عموم معناه ويقصر مدلوله على الحالات التي شاع فيها استعماله .

(١) أنظر على الأخص صفحات ٢٥٨ - ٢٦٤ .

(٢) أنظر على الأخص صفحات ٢٢٦ - ٢٤٤ ، ٢٥٨ - ٢٦٣ ، ٢٨٣ - ٢٩٥ .

ولدينا في اللغة العربية وحدها آلاف من أمثلة هذا النوع ، فمن ذلك جميع المفردات التي كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها في الإسلام في معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية : كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والسجود... .
 وهلم جرا . فالصلاة مثلا معناها في الأصل الدعاء (١) ثم شاع استعمالها في الإسلام في العبادة المعروفة لاشتغالها على مظهر من مظاهر الدعاء ، حتى أصبحت لا تنصرف عند إطلاقها إلى غير هذا المعنى ؛ والحج معناه في الأصل قصد الشيء والاتجاه إليه ، ثم شاع استعماله في قصد البيت الحرام ، حتى أصبح مدلوله الحقيقي مقصورا على هذه الشعيرة... . وقس على ذلك جميع أفراد هذه الطائفة . ومن ذلك أيضا كلمة « الرث » ، فقد كانت تطلق على الخسيس من كل شيء ، ثم قصر مدلولها على الخسيس مما يفرش أو يلبس لكثرة استخدامها في هاتين الطائفتين ؛ وكلمة « المدام » فهي في الأصل كل ما سكن ودام ، ثم شاع استعمالها في الخمر لدوامها في الدن أو لأنه يغلي عليها حتى تسكن ، فأصبحت لا تنصرف إلى غير هذا المعنى .

وكثرة استخدام الخاص في معان عامة عن طريق التوسع تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . فمن ذلك مثلا في اللغة العربية كلمات : البأس والورد والرائد والنجعة والحوة... . وهلم جرا . فالبأس في الأصل الحرب ، ثم كثر استخدامه في كل شدة فاكسب من هذا الاستخدام عموم معناه ؛ وأصل الورد إتيان الماء وحده ثم صار إتيان كل شيء وردا لكثرة استخدامه في هذا المعنى العام ؛ والرائد في الأصل طالب الكلا ثم صار طالب كل حاجة رائدا ؛ والنجعة في الأصل طلب الغيث ثم عجمت في الاستخدام فأصبح كل

(١) وقد جاء على الأصل قوله تعالى : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

طلب انتجاعا ، والحوة في الأصل شية من شيات الخيل وهي بين الدهمة
والكمتة ثم توسع في استعمالها حتى صار كل أسود أحوى ، فيقال ليل
أحوى وشعر أحوى . ومن ذلك في اللغة الفرنسية كلمة *salair* : فقد
كان معناها في الأصل - كما تدل على ذلك بنيتها - ما يصرف للجندى من
نقود في نظير ما يحتاج إليه من ملح الطعام ، ثم شاع استعمالها في كل
أجرة حتى نسي معناها الأصلي ؛ وكلمة *arriver* : فقد كانت تدل في
الأصل - كما تشير إلى ذلك بنيتها - على الوصول إلى الشاطئ ، ثم
شاع استعمالها في كل وصول ، فاستقر معناها على هذا الوضع العام .
وكثرة استخدام الكلمة في معنى مجازي تؤدي غالبا إلى انقراض
معناها الحقيقي وحلول هذا المعنى المجازي محله . فمن ذلك مثلا في اللغة
العربية كلمات المجد والأفن والوغى والغفران والعقيقة ... وهلم جرا .
فالمجد معناه في الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف ، ثم كثر استخدامه
مجازا في الامتلاء بالكرم حتى انقرض معناه الأصلي وأصبح حقيقة
في هذا المعنى المجازي ؛ ولهذا السبب نفسه انتقل معنى « الأفن » من قلة
لبن الناقة إلى نقص العقل ؛ وانتقل معنى « الوغى » من اختلاط
الأصوات في الحرب إلى الحرب نفسها ؛ ومعنى « الغفر » و « الغفران »
من الستر إلى الصفح عن الذنوب ؛ ومعنى « العقيقة » من الشعر الذي
يخرج على الولد من بطن أمه إلى ما يذبح عند حلق ذلك الشعر .
وكثرة استخدام الكلمة في العبارات المنفية ينزع عنها معناها
الأصلي ويكسبها معنى العموم والإطلاق ، فتصبح أشبه شيء بأداة من
أدوات النفي ؛ فمن ذلك في العربية كلمات أحد وديار وقط وأبدا ...
وما إليها ؛ وفي الفرنسية كلمات *pas, rien : personne ... etc* .
واستخدام الكلمة في فن ما بمعنى خاص يجردها في هذا الفن
من معناها اللغوي ويقصرها على مدلولها الاصطلاحي . ويدخل في

هذا مصطلحات الآداب والفلسفة والقانون والاجتماع والعلوم والفنون... وما إلى ذلك. ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة تستعمل في الشعر بمعنى وفي الرسائل بمعنى آخر، وفي السياسة بمعنى ثالث وفي القانون بمعنى رابع، وفي الفنون الحربية بمعنى خامس، وفي الطبيعة بمعنى سادس وفي الطب بمعنى سابع... وهلم جرا. وقد عرضنا لهذا الموضوع بشيء من التفصيل في الفصل الخامس من هذا الكتاب^(١).

٢ - عوامل تتعلق ببلغ وضوح الكلمة في الذهن. فكلما كان مدلول الكلمة واضحا في الأذهان قل تعرضه للتغير؛ وكلما كان مبهما غامضا مرنا كثر تقلبه وضعفت مقاومته لعوامل الانحراف. ويساعد على وضوح مدلول الكلمة عوامل كثيرة من أهمها أن تكون مرتبطة بفصيحة من الكلمات معروفة الأصل، ويعمل على إبهامها عوامل كثيرة من أهمها أن لا تكون لها أسرة معروفة الأصل متداولة الاستعمال.

٣ - عوامل تتعلق بأصوات الكلمة. فثبات أصوات الكلمة يساعد على ثبات معناها، وتغيرها يذلل أحيانا السبيل إلى تغيره. وذلك أن صلتها بالأسرة التي تنتمي إليها وبالأصل المشتقة منه تظل وثيقة وواضحة في الذهن مادامت محتفظة بصورتها الصوتية؛ وقوة هذه الصلة تساعد على ثبات مدلولها. على حين أن تغير صورتها الصوتية يضعف صلتها في الأذهان بأصلها وأسرتها ويبعدها عنهما؛ وهذا يجعل معناها عرضة للتغير والانحراف. فالوصف اللاتيني *vivus* مثلا ظل محتفظا بمعناه الأصلي (الحى، ضد الميت) طوال المدة التي احتفظ فيها بأصوات بنيته، وذلك لقوة ارتباطه عن طريق هذه البنية بأفراد أسرته *vivere, vita . . . etc*. ولكنه لم يلبث، بعد أن تغيرت صورته

(١) انظر صفحات ٢١٩ - ٢٢١.

الصوتية في الفرنسية إلى *vif* أن أخذ ينحرف شيئاً فشيئاً عن مدلوله القديم حتى بعد عنه وأصبح يدل الآن على الوصف بالقوة والحدة والنشاط . وذلك لأن تغير صورته الصوتية قد باعد ما بينه وبين أفراد أسرته (*vivre, vivant ... etc*) ، فعرض مدلوله لهذا الانحراف . ومن هذا القبيل كذلك كلمة *sage* ؛ فإن انحراف صورتها الصوتية إلى هذا الوضع قد عزلها عن أفراد فصيلتها (*savoir, savant ... etc*) وعرض مدلولها للتغير ، فانحرف من معنى العالم إلى معنى الهادئ المطيع .

٤ - عوامل تتعلق بالقواعد . فقد تدلل قواعد اللغة نفسها السبيل إلى تغير مدلول الكلمة ، وتساعد على توجيهه وجهة خاصة . فذكور كلمة « ولد » مثلاً في العربية (ولد صغير) ، قد جعل معناها يرتبط في الذهن بالذكر ، ولذلك أخذ مدلولها يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع حتى أصبحت لا تطلق في كثير من اللهجات العامية إلا على الولد من الذكور . وكذلك كلمة *homo* في اللاتينية . فقد كانت تطلق في الأصل على الإنسان رجلاً كان أم امرأة ؛ ولكن تذكيرها ربط مدلولها في الذهن بنوع الذكور ، فأخذ يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع حتى أصبحت في كثير من اللغات المنشعبة عن اللاتينية لا تطلق إلا على الرجال .

٥ - عوامل تتعلق بانتقال اللغة من السلف إلى الخلف . فكثيراً ما ينجم عن هذا الانتقال تغير في معاني المفردات . وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذي يفهمها عليه الجيل السابق . ويساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام بعض المفردات في غير ما وضعت له عن طريق التوسع أو المجاز . فقد يكثر استخدام الكلمة مثلاً في جيل ما في بعض ما تدل عليه ، أو في معنى مجازي تربطه

بمعناها الأصلية بعض العلاقات ، فيعلق المعنى الخاص أو المجازي وحده بأذهان الصغار ، ويتحول بذلك مدلولها إلى هذا المعنى الجديد . وإليك مثلا كلمة saoul الفرنسية ، فقد كان معناها في الأصل « الشبعان » من الطعام ؛ ثم كثر استخدامها في عصر ما في النشوان من الخمر عن طريق المجاز والتهمك والتخرج من استخدام الكلمة الصريحة في هذا المعنى وهي ivre . فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار في هذا الجيل ، وتحول إليه مدلول هذه الكلمة فأصبحت صريحة فيه (١) وانقرض معناها القديم .

وإلى هذا العامل يرجع أهم الأسباب في تحول الكلمات إلى معان كانت مجازية في الأصل وفيما يعترى المدلولات في نطاقها من سعة أو ضيق . بل إن طائفة من العلماء على رأسها العلامة هرزوج Herzog قد رجعت إلى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور في الدلالة (٢) .

٦ - وكثيرا ما يتغير مدلول الكلمة على أثر انتقالها من لغة إلى لغة . فقد يخصص مدلولها العام وتقتصر على بعض ما كانت تدل عليه في لغتها الأصلية ، وقد يعمم مدلولها الخاص ، وقد تستعمل في غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين ، وقد تنحط إلى درجة وضعية في الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره ، وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه . . . كما سبقت الإشارة إلى ذلك وإلى أسبابه وأمثله في الفصول السابقة (٣) .

(١) لا تقل الآن كلمة saoul عن كلمة ivre في صراحتها في التعبير عن النشوان ، إن لم تزد عنها في ذلك .

(٢) V. Meillet, dans « L'Année Sociologique », T. 9; p. p. 6, 7; et Herzog : der romanischen Philologie. »

(٣) انظر صفحة ١٨٦ ، وآخر صفحة ١٩٥ ، وأول ص ١٩٦ ، و صفحة ٢٢٢ .

٧- وقد يكون العامل في تغير معنى الكلمة أن الشيء نفسه الذي تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة به... وما إلى ذلك. فكلمة « الريشة » مثلا (plume) كانت تطلق على آلة الكتابة أيام أن كانت تتخذ من ريش الطيور، ولكن تغير الآن مدلولها الأصلي تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة، فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشككة في صورة خاصة. والقطار كان يطلق في الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم في السفر، ولكن تغير الآن مدلوله الأصلي تبعاً لتطور وسائل المواصلات فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية. و« البريد » كان يطلق على الدابة التي تحمل عليها الرسائل، ثم تغير الآن مدلوله تبعاً لتطور الطرق المستخدمة في إيصال الرسائل فأصبح يطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية في العصر الحاضر. و« بنى الرجل بامرأته » كانت تستخدم كناية عن دخوله بها، لأن الشاب البدوي كان إذا تزوج يبني له ولأهله خباء جديد؛ ولا تزال تستخدم هذه العبارة كناية عن نفس المعنى مع أن الزفاف لا علاقة له في نظامنا الحاضرة بالبناء. وقد جرت العادة في بعض العصور بفرنسا أن يقضى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة عقوبتهم في أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية، ومن ثم جاءت عبارة *envoyer aux galères* وجاء وصف *galérien*. ولكن تغير الآن مدلولهما تبعاً لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها.

٨- عوامل تتعلق باختلاف الطبقات والجماعات. فكثيراً ما ينجم عن اختلاف الناس في طبقاتهم وقاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجها عن معانيها الأولى. ويؤدي إلى ذلك ما يوجد بين الجماعات الناطقة باللغة الواحدة من فروق في الخواص الشعبية والجسمية والنفسية

وفي شئون السياسة والاجتماع والثقافة والتربية ومناحي التفكير والوجدان ومستوى المعيشة وحياة الأسرة والتقاليد والعادات ...، وفي الظروف الطبيعية والجغرافية المحيطة بكل جماعة منها، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف، والآثار العميقة التي تركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المشتغلين بها، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التي يكثُر ورودها في حياتهم وتساثر بقسط كبير من انتباههم، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم ... وهلم جرا. فمن الواضح أن هذه الأمور وما إليها من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها الأولى وتوجه معانيها في كل طبقة وفي كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها كما تقدم شرح ذلك بتفصيل في الفصل الخامس من هذا الكتاب (١).

ويدخل في موضوع التطور الدلالي نشأة كلمات لم تكن موجودة في اللغة من قبل وهجر كلمات كانت مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضاً تاماً .

أما نشأة كلمات في اللغة فتدعو إليها في الغالب مقتضيات الحاجة إلى تسمية مستحدث جديد مادي أو معنوي (مخترع جديد، نظام حديث في الشؤون الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها، نظرية جديدة علمية أو فلسفية ... وهلم جرا) . ويتم ذلك بإحدى الوسائل الآتية :

١ - إنشاء الكلمة إنشاءً على الوجه الذي يبيناه بتفصيل في أواخر

(١) انظر على الأخص صفحات ٢٠٧ - ٢٠٩، ٢٢١ - ٢٢٦ .

الفصل السادس بصدده موضوع التجديد في اللغة (١). وهذه الوسيلة لا تكاد تستخدم إلا في لغات الكتابة وخاصة في إنشاء المصطلحات العلمية وما شا كلها (٢).

٢ - انتقال الكلمة من اللهجة أو اللهجة إلى لغة أو لهجة أخرى على الوجه الذي شرحناه في الفصول الرابع والخامس والسادس (٣).

٣ - إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات المهجورة في اللغة على الوجه الذي شرحناه في أواخر الفصل السادس (٤).

٤ - تفرع الكلمة في صورة تلقائية أو مقصودة من الكلمات المستخدمة في اللغة. ويتم ذلك عن طريق الاشتقاق بأوسع معانيه، أو تكوين كلمة من كلمتين أو أكثر، أو تسمية شيء جديد باسم مكانه أو مخترعه، أو نحت أفعال من بعض الأسماء الجامدة أو أسماء الأعلام لعلاقة ما... وهم جرا (٥).

(١) انظر صفحات ٢٦٠ - ٢٦٢ .

(٢) تستخدم أحيانا هذه الوسيلة كذلك في اللهجات الاجتماعية كما سبقت الإشارة إلى ذلك في آخر ص ٢٢٥ .

(٣) انظر في الفصل الرابع صفحات ١٨٤ - ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠١ وفي الفصل الخامس صفحات ٢١٣ - ٢١٧ وفي الفصل السادس صفحات ٢٣٠ - ٢٣٥ .

(٤) انظر ص ٢٦٠ .

(٥) من أمثلة نعت الأفعال من أسماء الأعلام كلمة تبتدد فلان إذا صار مترقا فانها مأخوذة من « بعداد » ، ومن أمثلة ذلك في اللغات الأوروبية كلمة to boycott . وأصل ذلك أن مالكا ارلنديا يسمى Boycott كان غير مرضى عنه في أثناء حركة من الحركات الشعبية الوطنية ، فقومطع من جميع جيرانه وزملائه ، وأخذ من اسمه فعل to boycott المستخدم الآن في المقاطعة السياسية والاقتصادية وما إليها . وقد انتقل هذا الفعل من الإنجليزية إلى معظم اللغات الأوروبية (الفرنسية boycotter والآلية boycotten . . . الخ) V. Meillet, op. cit. p. 29 .

وأما انقراض الكلمة من الاستعمال فترجع أسبابه إلى عوامل كثيرة من أهمها ما يلي :

١- انقراض مدلول الكلمة نفسه أو عدم استخدامه . ويصدق هذا على الملابس ، الأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية... التي انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها فمن ذلك في الفرنسية veste, casaquin, cabas, carosse, soupentes, briquet, pacotille, corvette, frégate, brulot, boulet, arpent, écu, liard toise... etc (١)

وقد انقرض كذلك في اللغة العربية كثير من الكلمات الدالة على نظم جاهلية تضى عليها الإسلام كالمرباع والضرورة والتوافج... وهلم جرا (٢).

٢- انعزال كلمة وعدم ارتباطها بفصيحة من الكلمات معروفة الأصل متداولة الاستعمال . فانعزال الكلمة ، أى عدم اتصالها بأسرة معروفة ، لا يقف أثره عند تعريض مدلولها للانحراف عن وضعه الأصلي على الوجه الذى سبق شرحه (٣) ، بل كثيراً ما يعرضها هي نفسها للفناء . فما أشبه الكلمات بأفراد الحيوانات الاجتماعية : يظل الواحد منها قويا منيع الجانب ما اندمج في أفراد قطيعه وقوى تضامنه معه ، ويتعرض للأذى والهلاك كلما انعزل عنه أو وهنت العلاقات التي تربطه به . - ولهذا السبب كادت تنقرض من لغة التخاطب

(١) V. Dauzat, op. cit. , 228 et suiv.

(٢) المرباع ربيع النخلة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه في الجاهلية . والضرورة هو الذى يدع

التكاح تبلا أو الذى يحدث حدثا ويلجأ إلى الحرم . والتوافج الابل تماق في الصداق .

(٣) أنظر صفحة ٣٠٦ رقم ٢ .

الفرنسية كلمات : besicles, binocle, missive, visage, miroir وحل محل كل منها كلمة معروفة الاشتقاق قوية الصلة بافراد أسرتها :
 . lunettes, lorgnon, lettre, figure, glace

٣ - ثقل الكلمة على اللسان أو عدم تلاؤم أضواتها مع الحالة التي انتهى إليها تطور أعضاء النطق . فإن هذا العامل لا يقف أثره عند تعريض أصواتها للانحراف عن مخارجها الأولى على الوجه الذي سبق شرحه^(١) بل قد يعرضها هي نفسها للانقراض . وإلى هذا يرجع السبب في انقراض كثير من الكلمات العربية من لغات التخاطب العامية في العصر الحاضر .

هذا ، وكثير من الكلمات التي تنقرض من لغات المحادثة تأوى إلى ركن شديد في ميادين الشعر أو الأمثال أو الآداب أو العلوم أو الفنون فتتوطد لها فيه أسباب المنعة والبقاء .

انتهى طبعه في المحرم سنة ١٣٦٠
 فبراير سنة ١٩٤١

❦

تعقيب وإصلاح



(صفحة ٢٠ سطر ١١) « في مختلف أشكالها ومباحثها ، صوابه « أشكالها ومناحيها » .

(صفحة ٢٧ سطر ٥) « فإن موضوعات كل فرع منها متميز ، صوابه « متميزة » .

(صفحة ٥٧ سطر ٢١) « مدينة ميلو ، صوابه « ميو » .

(صفحة ٥٨ سطر ١٨ ، ص ٦١ س ١٠) « Néo - gramerians » صوابه

« Néo - gramairiens »

(صفحة ٥٩ سطر ١٨) « Tard » ، صوابه « Tarde »

(صفحة ٦٤ سطر ٢٣) يضاف إلى المرجع المذكور في هذا السطر مرجع آخر لنفس المؤلف هو « دراسة لغوية للهجات أوفيرني السفلى ، في أربعة أجزاء .

« Etude linguistique sur la Basse - Auvergne » .

(صفحة ٧٦ السطر الأول) « في عشر مجلدات ، صوابه « في عشرة

مجلدات » .

(صفحة ٧٦ أسطر ٩ - ١٩) يستثنى بما ذكرناه في هذه الفقرة بعض معجمات قديمة حرصت نوعا ما على التفرقة بين الحقيقة والمجاز (الأساس مثلا) وبعض معجمات حديثة سارت من بعض الوجوه على غرار المعجمات الأوروبية في تنظيم الكلمات وترتيب معانيها... وما إلى ذلك. ومن هذه الطائفة « محيط المحيط ، و « أقرب الموارد » و « البستان » .

(صفحة ٧٨ سطر ٨) « تحفة الرائد... » ، صوابه « نجمة الرائد وشرعة

الوارد... » .

(صفحة ٧٨ أسطر ٣ - ٨) يدخل في النوع المشار إليه في هذه الفقرة

المعجمات الفلسفية والعلمية وما إليها ، ككشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي.

والتعريفات للجرجاني والسكيات لأبي البقاء... وهلم جرا .
 (صفحة ٧٨ سطر ١٩) « على المعنى وضده في آن واحد وشرحها... »
 صوابه « على المعنى وضده وشرحها » .
 (صفحة ٨٤ سطر ٢٥) « أفريقيا الوسطى » صوابه « أفريقيا الجنوبية » .
 (صفحة ٩٦ سطري ١٥، ١٨) (٣) صوابه (٢) و (٢) صوابه (٣) .
 (صفحة ٩٩ سطر ٨ وص ١٠٠ س ٢٤ وص ١٤٩ س ١١) Muler صوابه

Müller

(صفحة ١١٣ سطر ٧) « والفريق الثالث » صوابه « والفريق الثاني » .
 (صفحة ١١٣ سطر ٢١) « أصوات الكلمات » صوابه « أصول
 الكلمات » .

(صفحة ١١٥ سطري ٧، ١٤) نقصد باستقلال الروابط زيادتها عن أصوات
 الكلمة، فالواو القصيرة (الضمة) والنون الساكنة الملحقان بكلمة « محمد » في
 جاء محمد (محمدن) تعتبران من الروابط المستقلة، وهما تشيران في هذا التركيب
 إلى أن مدلول محمد هو الذي أحدث الحدث .

(صفحة ١١٦ سطر ١٧) « خارج المنزل » صوابه « خارج المنازل » .
 (صفحة ١١٨ أسطر ٥ - ٧) « فجملة المبتدأ والخبر لا يرتبط عنصراها
 غالبا... الخ » صوابه « فبعض الجمل الاسمية والجمل الفعلية لا ترتبط عنصراها
 بعضها ببعض بأي رابط ملفوظ، وإنما تفهم العلاقة بينها من ترتيبها أو من السياق
 مثل « ضرب موسى عيسى » . وجميع الجمل على هذا النحو في اللغات العامية
 المنشعبة عن العربية، فقد تجردت جميعها من علامات الإعراب الدالة على وظائف
 الكلمات وعلاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض .

(صفحة ١٢٢ سطر ١١) « vocales » صوابه « vocaux » .

(صفحة ١٢٣ سطر ٢٠) يضاف إلى هذا السطر ما يلي : « وهو في الغالب
 يحاكي هذه الأصوات المبهمة بوضعها في أصوات ذات مقاطع، فيعبر عن صوت.

الدجاجة مثلا بكلمة « كاك » وعن صوت الكلب بكلمة « هَوَّ » ... وهلم جرا .
(صفحة ١٥١ أسطر ٢ - ٤) يضاف إلى اللغات المذكورة في هذا السطر
اللغة اليونانية الحالية .

(صفحة ١٥١ سطر ١٣) « البريتون » نقصد بها La Bretagne الفرنسية .
(صفحة ١٥١ سطر ١٦) « اللغة الجوتية » ، هي لغة قبائل الجوت Goths
وهو شعب كان يسكن قديما جرمانيا الشرقية .

(صفحة ١٥١ سطر ٢٠) يدخل في شعبة اللغات المذكورة في هذا السطر
اللغة الفلامندية (لغة مقاطعة الفلاندر ببلجيكا) ويتألف من هذه اللغة مع اللغة
الهولندية فرع لغوى واحد يسمى فرع اللهجات النثرلندية ، أنظر التعليق
الأول من ص ١٩٤ .

(صفحة ١٥١ سطر ٢٣) « Littonie » صوابه « Lettonie » أو « Latvia » .
(صفحة ١٥٢ سطر ٢) نقصد من « البلغارية » الواردة في هذا السطر
البلغارية الحديثة ، لأن البلغارية القديمة قبل أن يتغلب عليها اللسان الصقلي كانت
من فصيلة اللغات الفينية كما ذكرنا ذلك بصفحة ١٦١ سطر ١٨ .
(صفحة ١٥٢ سطر ١٠) نقصد بالقوقاز الوارد ذكره في هذا السطر
القوقاز الأوسط .

(صفحة ١٥٤ سطر ٩) أنظر تفصيل القول في اللغات الآكادية في الفصل
الأول من كتاب « فقه اللغة » للمؤلف .

(صفحة ١٥٤ سطر ١٢ ، ١٣) أشمل تقسيم اللغات الآرامية (نسبة إلى
آرام بن سام) هو ما يلي : ترجع اللهجات الآرامية إلى مجموعتين يفصل بين
منطقتيهما الفرات وصحراء الشام ، وتسمى الشرقية منهما « مجموعة اللغات
الآرامية الشرقية » والغربية منهما « مجموعة اللغات الآرامية الغربية » .

أما اللغات الآرامية الشرقية فتشمل اللهجات الآرامية التي كان يتكلم بها
بجنوب العراق وشماله وهي اللهجات التي قضت على اللغات الآكادية (البابلية -

الأشورية) في هذه البلاد. وتنقسم مجموعة اللغات الآرامية الشرقية إلى لهجات كثيرة من أهمها أربع لهجات. إحداهما اللهجة الجنوبية التي شرح بها يهود مدرسة بابل كتاب المشناه (ويسمى هذا الشرح الجمارا، ويتألف منه مع المشناه ما يعرف بتلود بابل). وثانيتهما اللهجة المندائية Mendéen التي كانت يتكلم بها طائفة المندائيين وهي طائفة تقطن كذلك جنوب العراق. وثالثتها اللهجة الحرافية التي تنسب إلى مدينة حران شمال العراق. ورابعتها اللهجة السريانية وهي لهجة مدينة إدسا Edessa كما كان يسميها اليونان أو أرهي Orhai كما كان يسميها السريان أنفسهم أو الرها كما كان يسميها العرب (وهي واقعة في شمال حران). والسريانية هي أهم اللهجات الآرامية على الإطلاق وأغناها في الإنتاج الأدبي والعلمي والفلسفي. وقد انقسمت السريانية تحت تأثير الانقسام الديني إلى لهجتين تختلف كل منهما عن الأخرى في كثير من المظاهر: إحداهما اللهجة اليعقوبية، وثانيتهما اللهجة النسطورية.

وأما اللغات الآرامية الغربية فتشمل اللهجات الآرامية التي كان يتكلم بها في سورية وفلسطين وشبه جزيرة سينا وما إليها. وهي اللهجات التي قضت على اللهجات الكنعانية (العبرية والفينيقية) في هذه البلاد. وتنقسم مجموعة اللغات الآرامية الغربية بحسب عصورها إلى لهجات متعددة أشهرها ثلاث لهجات تمثل كل لهجة منها مرحلة خاصة. أولها الآرامية الغربية في أقدم عهودها. وقد وصلنا منها نقش لملك حماه يرجع تاريخه إلى القرن الثامن ق م ونقوش للملك شمال يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الثامن أو أوائل السابع ق م. وثانيتهما الآرامية التي دون بها بطريق مباشر بعض قطع من سفرى عزرا Esdras ودانيال (في القرنين الثالث والثاني ق م). وثالثها الآرامية الفلسطينية الحديثة التي استخدمها اليهود في الغرب في ترجمة العهد القديم عن العبرية (وتسمى كتبهم هذه بالترجوم) وفي شرح كتاب المشناه (يسمى هذا الشرح الجمارا، وقد تألف منه مع المشناه ما يعرف بتلود بيت المقدس)؛ واستخدمها المسيحيون بسوريا

وفلسطين في ترجمة العهدين القديم والحديث عن اليونانية بعد أن تحرروا من نفوذ الكنيسة والثقافة السريانية.

أنظر تفصيل هذا الموضوع في الفصل الثالث من كتاب « فقه اللغة » للمؤلف .

(صفحة ١٥٤ سطر ١٤) انظر تفصيل الكلام في اللغات الكنعانية في الفصل الثاني من كتاب « فقه اللغة » للمؤلف .

(صفحة ١٥٤ سطري ١٥ ، ١٦) أنظر تفصيل الكلام في المجموعتين اليمنية والعربية في الفصلين الرابع والسادس من كتاب « فقه اللغة » للمؤلف .
 (صفحة ١٥٤ سطر ١٧) اللغات الحبشية : نزح الساميون إلى بلاد الحبشة من جنوب بلاد العرب (اليمن) على الأرجح . وامتزجوا امتزاجاً كبيراً بالسكان الأصليين لهذه البلاد الذين يرجع معظمهم إلى الجنس الحامي . وقد اشتبكت لغة هؤلاء الساميين في صراع مع لغات السكان الأصليين وكتب لها النصر عليها في بعض مناطق قليلة في مبدأ الأمر ، ثم أخذ نفوذها وعدد الناطقين بها يزيدان شيئاً فشيئاً حتى بلغت الآن مساحة المناطق الحبشية الناطقة بلهجات سامية نحو ربع مساحة الحبشة واريتريا (تبلغ مساحة الحبشة نحو مليون كيلو متر مربع ومساحة اريتريا ٧٥ ألف كيلو متر مربع) وبلغ عدد الناطقين بهذه اللهجات نحو ٧ ملايين أي نحو نصف مجموع سكان الحبشة واريتريا . أما بقية السكان فيتكلم معظمهم لهجات حامية كوشية ، وقليل منهم يتكلم لهجات سودانية .

أنظر تفصيل هذا الموضوع في الفصل الخامس من كتاب « فقه اللغة » للمؤلف .

(صفحة ١٥٥ سطر ١٠) « اللغات الكوشيتية » أو الكوشية نسبة إلى كوش Cuch وهو أحد أولاد حام (أنظر سفر التكوين ، الإصحاح العاشر فقرة ٦ وتوابعها) .

(صفحة ١٥٦ من السطر الخامس إلى آخرها ، والسطرين الأولين من

ص ١٥٧) أنظر تفصيل هذه الموضوعات في مقدمة كتاب « فقه اللغة » للمؤلف .

(صفحة ١٥٦ سطر ٢٣) « Cahen » صوابه « Cohen » .

(صفحة ١٥٧ سطر ٨) « في المناطق المتاخمة لبلاد الحبشة ، صوابه « في بلاد

الحبشة والمناطق المتاخمة لها » .

(صفحة ١٥٧ سطر ٩ وتوابعه) أول صراع حدث بين اللغات السامية كان

صراع الآرامية مع اللغات الأكادية والكنعانية . فقد اشتبكت في صراع مع

الأكادية أولا وقضت عليها في أوائل القرن الرابع ق م . ثم صرعت العبرية في

أواخر الرابع ق م ، وتغلبت على الفينيقية بآسيا في القرن الأول ق م . والصراع

الثاني كان صراع العربية مع أخواتها فقد اشتبكت في صراع مع اللغات اليمنية

القديمة وقضت عليها قبيل الإسلام . ولم يفلت من هذا المصير إلا بعض مناطق

متفرقة نائية ساعد انعزالها وانزواؤها على نجاتها ، فظلت محتفظة بلهجاتها القديمة

حتى العصر الحاضر . وأهم هذه اللهجات اللهجة المهرية التي يتكلم بها الآن في

منطقة مهرة الواقعة شرقي حضرموت على الساحل ، ولهجة شحر أو اللهجة

الإحكيلية ، ويتكلم بها شرقي منطقة مهرة ، واللهجة السقطرية ويتكلم بها في

جزيرة سقطرة والجزر المجاورة لها . ثم اقتحمت العربية على الآرامية معاقلها في

الشرق والغرب وانتزعتها منها معقلا معقلا حتى تم لها القضاء عليها حوالي القرن

الثامن الميلادي . ولم يفلت من هذا المصير إلا بعض مناطق جبلية منعزلة

لا تزال تتكلم اللهجة الآرامية إلى العصر الحاضر . ففي الغرب لا تزال الآرامية

لغة حديث في ثلاث قرى في سوريا ولبنان يبلغ عدد سكانها نحو ألفي نسمة :

قرية مسيحية تسمى « معلولة » على بعد خمس وثلاثين كيلو مترا تقريبا من شمال

دمشق ، وقرتان إسلاميتان مجاورتان لها . وفي الشرق لا تزال الآرامية كذلك

لغة حديث في بعض قرى بطور عابدين بجنوب العراق ، وبعض بلاد في شرق

الموصل وشماله وفي جبال كردستان وفي الشاطئ الشرقي لبحيرة « أورميا » .

ويبلغ مجموع سكان هذه البلاد نحو ربع مليون نسمة .

(صفحة ١٦٥ السطر الأخير) « 463615 » صوابه « 463 - 561 » .
 (صفحة ١٦٨ أسطر ٥ - ٩) يتألف الأصل السامي في الغالب من ثلاثة
 أصوات ساكنة « غير لينية » مختلفة (ق ت ل ، ض ر ب ، رج ع ... الخ) .
 غير أن لكل وجه من هذه الوجوه شواذ كثيرة :

(١) فبعض الأصول السامية يتألف من صوتين فقط . ويصدق هذا على
 بعض الحروف (عن ، قد ، بل ...) والضمائر (هو ، هم ...) وأسماء الشرط
 والموصول والإشارة (من ، ذا ..) وبعض أسماء الذوات (يد ، دم ..) . وثمت
 أفعال لا يبقى منها إلا حرفان في معظم وجوه تصرفها (قلت ، نلت ، عمت ،
 نمت ، رمت ..) . وهذا يدل على أن المعنى العام يتوقف في هذه الأفعال على
 صوتين فقط . على أن الأفعال الأخرى نفسها ليست جميع أصواتها بدرجة
 واحدة من الأهمية في تأدية المعنى ، بل تزيد فيها غالباً أهمية صوتين على أهمية
 الصوت الثالث . - فالمعنى العام يتعلق فيها بصوتين فقط ؛ أما الصوت الثالث فيحدد
 هذا المعنى العام ويوجهه ووجهات خاصة . فالمعنى العام للتفرقة مثلاً يؤدي في
 العربية بصوتَي ف ر ، ويضاف إلى هذين الصوتين صوت ثالث يشار به إلى
 نوع التفرقة والمادة التي حدثت فيها : فرى ، فرم ، فرض (فرضت الخشبة فرضاً
 حززتها) ، فرص (الفرص القطع والمفراص الذي يقطع به الفضة) ، فرث
 (أفرث الكرش شقها وألقى ما فيها) ، فرج ، فرق ، فرز ... الخ . والمعنى العام
 للقطع يؤدي بصوتَي ق ط (أو صوت شبيهه بالطاء كالدال) ، ويضاف إلى هذين
 الصوتين صوت ثالث يشار به إلى نوع القطع والمادة التي حدثت فيها : قطع ،
 قطف ، قطم ، (قطمه قطماً من باب ضرب عضه وذاقه أو قطعه) ، قط (قططت
 القلم قظاً قطعت رأسه عرضاً في بربه) ، قد ... الخ . والصوتان اللذان تزيد
 أهميتهما في الفعل على أهمية الصوت الثالث يمثلان في الغالب صوت الفعل أي
 ما يحدثه الفعل من صوت عند وقوعه ، فهما يمثلان الأصل الأول الذي أخذت
 منه الكلمة . وفي هذه الناحية يظهر وجه الشبه بين الفصيلتين السامية والهندية -

الأوروبية (انظر ص ١٧٨ أسطر ١٥ - ٢٠) .

(ب) وبعض الأصول السامية يتألف من صوتين سا كنين وصوت لين أو نصف لين (قال ، وعد ...) .

(ح) وبعضها مؤلف من صوتين سا كنين مضعف ثانيهما (تم ، ردّ ...) .

أما الكلمات التي تبدو رباعية الأصول في العربية والعبرية فهي متفرعة في الحقيقة عن أصول ثلاثية (دخرج مثلا متفرعة عن درج) على الرغم من أن علماء الصرف يعتبرون جميع أصواتها أصيلة .

هذا ، وللأصوات السا كنة (ونغني بها ما عدا أصوات المد) في اللغات السامية أهمية تزيد كثيرا على أهمية أصوات المد ، ويبدو هذا في ثلاثة وجوه في الدلالة والنطق والرسم .

فالمعنى الأساسي للكلمة يشار إليه غالبا بالأصوات السا كنة ، أما أصوات المد فلا تعدو وظيفتها في الغالب تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهات خاصة (ق ت ل تدل على المعنى العام للقتل ، قتل يدل على وقوع القتل في زمن مضى من واحد غائب ، قتل يدل على قتل حدث في زمن مضى ومسند للفعال .. وهلم جرا) .

والأصوات السا كنة تنال في اللغات السامية أكبر قسط من عناية المتكلم . وهي لذلك أوضح في الجرس من أصوات المد وأظهر منها في السمع . وقد سرت أهمية الأصوات السا كنة في الدلالة والنطق إلى الرسم نفسه . فأهم ما يعنى الرسم السامي بإظهاره هي الأصوات السا كنة ، أما أصوات المد فيغفل بعضها إغفالا تاما ، ويشير إلى بعضها بالشكل ، ويرسم بعضها رسما مضطربا غير دقيق . وهذا في الرسم الحديث . أما الأشكال القديمة للرسم السامي فكانت تغفل جميع أصوات المد .

(صفحة ١٥٥ سطر ٦) « الشيلوهية ، صوابه « الشلحية ، بكسر فسكون

فكسر أو « لغات الشلحا » أو « لغات أهل الشلوح » .
 (صفحة ١٥٥ سطر ٧) « زئاته » صوابه « زناجة » .
 (صفحة ١٧٠ أسطر ١٧ - ١٩) تختلف اللغات الهندية - الأوروبية عن اللغات السامية فيما يتعلق بأصول الكلمات من أربعة وجوه : أحدها أن أصول الكلمات الهندية - الأوروبية تختلف في عدد أصواتها اختلافاً كبيراً فمنها الثنائي ومنها الثلاثي ومنها الرباعي وهلم جرا . وثانيها أن الأصول ليست مؤلفة من أصوات سا كنة فحسب بل تختلط فيها الأصوات السا كنة باللينية . وثالثها أن أهمية الأصوات السا كنة لا تزيد فيها عن أهمية الأصوات اللينية لا في الدلالة ولا في النطق ولا في الرسم . ورابعها أن الأصل نفسه كلمة مستقلة يمكن فصلها والنطق بها على حدة . وقد يتحقق أحياناً هذا الفصل فيبقى الأصل في الكلمة مجرداً من كل عنصر آخر .

(صفحة ١٧٣ سطر ٥ ، ٦) يستثنى مما ذكر في هذين السطرين اللغات الأكادية ؛ فإن للفعل فيها ثلاثة أزمنة أصيلة : زمانان يشار إليهما بأصوات تلحق أول الفعل ، وهما الزمن الماضي التام والزمن المضارع للاستقبال ؛ وزمن ثالث يشار إليه بملحق في آخر الفعل وهو الزمن المعبر عن الاستمرار (انظر كتابنا « فقه اللغة » ص ٢٦) .

(صفحة ١٧٦ سطر ٢٢) « معنى هذه الة » صوابه « معنى هذه الكلبة » .
 (صفحة ١٩٤ الأسطر الأربعة الأولى) يضاف إلى الأمثلة المذكورة في هذه الأسطر ، تغلب اللغة العربية العدنانية على اللغات الينية القديمة (أنظر تفصيل ذلك في الفصل الرابع من كتابنا « فقه اللغة ») .

(صفحة ٢٣٦ سطر ١٤) « وتهذيب اتجاهاتها » صوابه « وتهذبت اتجاهاتها »

(صفحة ٢٥٣ سطر ٢) « demarkatin » صوابه « demarkation »

(صفحة ٢٨١ سطر ٤) « lmouillé » صوابه « mouillé » 1

(صفحة ٢٨٧ سطر ٢) « سقطوت » صوابه « سقوط » .

أهم المراجع

أولا - أهم المراجع العربية



- ١ - ابن جنى الخصائص
- ٢ - ابن سيده المخصص
- ٣ - ابن فارس الصاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها
- ٤ - التبريزي تهذيب كتاب الألفاظ لابن السكيت
- ٥ - الثعالبي فقه اللغة
- ٦ - الجواليقي (أبو منصور) المعرب من الكلام الأعجمي
- ٧ - الخفاجي (شهاب الدين) شفاء العليل فيما ورد في كلام العرب من الدخيل
- ٨ - السيوطي المزهري في علوم اللغة وأنواعها
- ٩ - الشدياق (أحمد فارس) سر الليال في القلب والإبدال
- ١٠ - اليازجي نبعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد

ثانيا - أهم المراجع الاجنبية



- 1 - Baldwin : Le Developpement mental chez l' enfant et dans la race
« trad. fr. »
- 2 - Bally : Le Langage et la Vie.
- 3 - Bally : Précis de Stylistique
- 4 - Berry : An Experimental study of Imitation
- 5 - Bloch: Les Premiers stades du Langage del'enfant « j.de Psych.1921»
- 6 - Boas : Handbook of American Idian Languages, 2 vols. Washington
- 7 - Brandenburg : Language development

-
- 8 - Bréal : Essai de Sémantique
 9 - Bréal : Mélange de Mythologie et de Linguistique
 10 - Brockelmann : Précis de Linguistique Sémitique « trad. fr. »
 11 - Claparède : Psychologie de l'Enfant . . . etc.
 12 - Clodd : Story of the Alphabet « New York »
 13 - Grammont : Mélanges Meillet
 14 - Darmesteter : La Vie des Mots
 15 - Darwin : L'Expression des Emotions « trad. fr. »
 16 - Darwin : L'Origine des Espèces « trad. fr. »
 17 - Dauzat : Les Patois
 18 - Dauzat : La Philosophie du Langage
 19 - Dauzat : La Vie du Langage
 20 - Dauzat : Etudes Linguistique sur la Basse - Auvergne
 21 - Delacroix : Le Langage et la Pensée
 22 - Dumas et collaborateurs : Traité de Psychologie
 23 - Durkheim : La Règle de la Méthode sociologique
 24 - Durkheim : Les Formes élémentaires de la Vie Religieuse
 25 - Gennep (Van) Essai d'une théorie des Langues Spéciales (dans
 Revue des Etudes ethnographiques et sociologiques)
 26 - Gillieron et Roques : Etude de Géographie Linguistique
 27 - Ginnezen : Principes de Linguistique psychologique
 28 - Grammont : La Dissimilation
 29 - Grégoire : Petit Traité de Linguistique
 30 - Guillaum : L'Imitation chez l'enfant
 31 - Hermann - Paul : Etudes sur les changements phonétiques
 32 - Hovelacque : La Linguistique
 33 - Jespersen : Language; its nature, development, and origin
 34 - Jespersen : The Progress of Language.
 35 - Kohler : L'Intelligence des Singes Supérieurs « trad. fr. »
 36 - Leroy : Le Langage
 37 - Levy - Bruhl : Les Fonctions mentales des Sociétés primitives
 38 - Malinowski : Primitive Language
 39 - Mallery : Sign - Language among the North American Indians
 40 - Marichelle : L'Enseignement de la Parole aux sourd - muets
 41 - Meillet : Comment les mots changent de sens (dans l'Année
 Sociologique, T - IX, P. P. 3 - 33)

-
- 42 - Meillet : Les Dialectes Indo - Européens
- 43 - Meillet : Introduction à l' Étude Comparative des Langues Indo - Européens
- 44 - Meillet : Les Langues dans l' Europe Nouvelle
- 45 - Meillet : Linguistique Historique et Linguistique générale
- 46 - Meillet et Cohen (groupe de linguistes sous la direction de Meillet et Cohen) : Les Langues du Monde
- 47 - Muller (Max) : The Science of Language
- 48 - Muller (Max) : New Lectures on the Science of Language
- 49 - Paulhan : La Double Fonction du Langage
- 50 - Pawlowitch : Le Langage enfantin
- 51 - Piaget : Le Langage et la Pensée chez l' Enfant
- 52 - Renan : Histoire générale des Langues Sémitique
- 53 - Renan : L' Origine du Langage
- 54 - Ribot : L' Evolution des Idées Générales
- 55 - Roudet : Éléments de Phonétique générale
- 56 - Rousselot : Introduction à l' Etude des Patois
- 57 - Rousselot : Les Modifications Phonétiques du Langage
- 58 - Rousselot : Principe de Phonétique expérimentale
- 59 - Roustan : Psychologie
- 60 - Sapir (E) : Language (New York)
- 61 - Saussure (De) Cours de Linguistique Générale
- 62 - Sayce : Introduction to the Science of Language (2 vols) .
- 63 - Sayce : Principles of Comparative Philology
- 64 - Sechehaye : Programme et Méthode de la Linguistique théorique
- 65 - Sweet : History of English Sounds
- 66 - Sweet : The Practical Study of Language
- 67 - Taine : Observations sur l' Acquisition du Langage par les Enfants (Revue Phil . 1876)
- 68 - Tarde : Lois de l' Imitation
- 69 - Tomas (Antoine) : Essai de Philologie Française
- 70 - Tomas (Antoine) : Mélange d' Etymologie Française
- 71 - Tylor : Early History of Man - kind
- 72 - Tylor : Origin of Civilisation

-
- 73 - Vannier : L' Esprit et les Mœurs d' une nation d' après sa
Langue
- 74 - Vendryès : Le Langage
- 75 - Vendryès : Reflexion sur les lois phonétiques
- 76 - Whitney : Language and the Study of Language
- 77 - Wright : Lectures on the comparative grammar of the Semitic
Languages



(الموضوع)	(الصفحة)
٣ - المراحل التي يجتازها الطفل في أصواته وتعبيراته	١٢٦ - ١٤٢
٤ - عوامل كسب الطفل للغة	١٤٢ ، ١٤٣
٥ - مبلغ تمثيل الطفل في ارتقائه اللغوي لنشأة اللغة الإنسانية وتطورها	١٤٤ - ١٤٧
الفصل الثالث: فصائل اللغات وخواص كل فصيلة منها وما بينها من صلوات	١٤٨ - ١٧٩
١ - أشهر الآراء في فصائل اللغات	١٤٨ ، ١٤٩
٢ - الفصيلة الهندية - الأوروبية	١٥٠ - ١٥٤
٣ - الفصيلة السامية - الحامية	١٥٤ - ١٥٧
٤ - الفصائل الأخرى	١٥٨ - ١٦٧
٥ - بعض ماتحتناف فيه الفصيلتان السامية والهندية - الأوروبية	١٦٨ - ١٧٥
٦ - وجوه الشبه بين الفصيلتين السامية والهندية - الأوروبية	١٧٦ - ١٧٩
الفصل الرابع: صراع اللغات	١٨٠ - ٢٠١
١ - نظره عامة في عوامل الصراع وآثاره في حياة اللغات	١٨٠ ، ١٨١
٢ - العامل الأول من عوامل الصراع اللغوي: نزوح عناصر أجنبية إلى البلد:	١٨١
(أ) الحالات التي يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين؛	١٨١ - ١٨٨
(ب) الحالات التي لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب؛	١٨٨ - ١٩٠
(ج) الخلاصة.	١٩٠ ، ١٩١
٣ - العامل الثاني من عوامل الصراع اللغوي: تجاوز شعبين محتلي اللغة:	١٩١
(أ) الحالات التي يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين؛	١٩٢ - ١٩٦
(ب) الحالات التي لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب؛	١٩٦ - ١٩٨
(ج) الخلاصة.	١٩٨ ، ١٩٩

(الموضوع)	(الصفحة)
٤ - عوامل أخرى للاحتكاك اللغوى	٢٠١ - ١٩٩
الفصل الخامس : تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات	٢٢٦ - ٢٠٢
١ - انتشار اللغة وأسبابه	٢٠٥ - ٢٠٢
٢ - تفرع اللغة إلى لهجات نتيجة لازمة لانتشارها	٢١١ - ٢٠٥
٣ - اللهجات المحلية وصراعها بعضها مع بعض ونشأة لغة الدولة أو اللغة الفصحى أو لغة الكتابة	٢١٨ - ٢١١
٤ - اختلاف مناحى اللغة الفصحى باختلاف فنون القول : لغة الآداب وخصائصها وأنواعها ، الشعر والنثر ، وظيفتا اللغة : الدلالة والإيحاء	٢٢١ - ٢١٩
٥ - اختلاف اللهجات في البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وفتاتهم ، اللهجات الاجتماعية ،	٢٢٦ - ٢٢١
الفصل السادس : تطور اللغة وارتقاؤها	٢٦٤ - ٢٢٧
عوامل تطور اللغة	٢٢٧
١ - انتقال اللغة من السلف إلى الخلف وأثره في التطور اللغوى	٢٣٠ - ٢٢٨
٢ - تأثير اللغة باللغات الأخرى : تبادل المفردات بين اللغات	٢٣٥ - ٢٣٠
٣ - أثر العوامل الاجتماعية والنفسية والجغرافية في خصائص اللغة وتطورها ونقد نظرية دوسوسور	٢٤٥ - ٢٣٦
٤ - العوامل الأدبية المقصودة :	٢٤٦
(أ) الرسم ؛	٢٥٨ - ٢٤٦
(ب) حركة التجديد في اللغة ؛	٢٦٢ - ٢٥٨
(ج) المؤلفات اللغوية ؛	٢٦٣ ، ٢٦٢
(د) نشاط التأليف والترجمة ؛	٢٦٣
(هـ) تعليم لغة الكتابة .	٢٦٤ ، ٢٦٣

(الموضوع)	(الصفحة)
الفصل السابع: أصوات اللغة، حياتها وتطورها	٢٦٥ - ٢٩٥
١ - خواص التطور الصوتي وعوامله	٢٦٥ - ٢٧٠
٢ - التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق ونظرية روسلو	٢٧٠ - ٢٧٣
٣ - اختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب	٢٧٤ - ٢٧٧
٤ - الأخطاء السمعية: سقوط الأصوات الضعيفة ونظرية روسلو ومييه	٢٧٨ ، ٢٧٩
٥ - تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض	٢٧٩ - ٢٨٣
٦ - موقع الصوت في الكلمة	٢٨٣ - ٢٩٠
٧ - تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض	٢٩٠ - ٢٩٥
الفصل الثامن الدلالة وتطورها	٢٩٦ - ٣١٣
١ - أنواع التطور الدلالي	٢٩٦ ، ٢٩٧
٢ - خواص التطور الدلالي ومناهجه	٢٩٨ - ٣٠٣
٣ - عوامل التطور الدلالي :	٣٠٣ - ٣١٣
(أ) عوامل تتعلق باستخدام الكلمات	٣٠٣ - ٣٠٦
(ب) عوامل تتعلق ببلوغ وضوح الكلمة في الذهن	٣٠٦
(ج) عوامل تتعلق بأصوات الكلمة	٣٠٦ ، ٣٠٧
(د) عوامل تتعلق بالقواعد	٣٠٧
(هـ) عوامل تتعلق بانتقال اللغة من السلف إلى الخلف	٣٠٧ ، ٣٠٨
(و) عوامل تتعلق بانتقال الكلمة من لغة إلى لغة	٣٠٨
(ز) عوامل تتعلق بما يطرأ على مدلول الكلمة نفسه	٣٠٩
(ح) عوامل تتعلق باختلاف الطبقات والجماعات	٣٠٩ ، ٣١٠
نشأة الكلمات ومقتضياتها ووسائلها	٣١٠ ، ٣١١
انقراض الكلمات وعوامله	٣١٢ ، ٣١٣
تعقيب وإصلاح	٣١٤ - ٣٢٢
أهم المراجع	٣٢٣ - ٣٢٦

بعض كتب أخرى للمؤلف

- ١ - Contribution à une Théorie Sociologique de l' Esclavage.
- ٢ - Distinction entre la Femme et l' homme dans l' Esclavage.
- حصل بهما على شهادة ا.د. كتوراة بدرجة الشرف، الممتازة من جامعة السربون
- ٣ - في التربية : (قررت وزا'ة المعارف تدرسه بدار العلوم)
- ٤ - الاقتصاد السياسي (يدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية)
- ٥ - البطالة ووسائل علاجها (نال جائزة « المباراة الأدبية »)
- ٦ - مواد الدراسة (يدرس بدار العلوم)
- ٧ - لمحة في تاريخ الأدب اليوناني (تحت الطبع)
- ٨ - فقه اللغة : اللغات السامية (« »)



Bibliotheca Alexandrina



0413442